موجز تاريخ مصر في الحقبة العلمانية

(١٨٠٩ - ١٩٨٦)

أسامة حميد

«كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى
أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى
إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى»

الفهـــــرس

مقـــــــدمة

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ـ وبعـد . .

فلقد كتب كثير من الاسلاميين عن الصراع بين الاسلام والكفر ـ لكنهم ركزوا على الصراع الفكرى .

ان هذا يعكس حالة الازمة التى لم نتجاوزها تماما ـ فتاريخ الاسلام كحركة جماهيرية لم يدون حتى الان (باستثناء السيرة وفترة الخلافة الراشدة) ـ وغلب على التأريخ للاسلام الطابع الملوكى ـ ثم غلب على تأريخنا للعصر الحديث الطابع الفكرى .

ان الركام الهائل لوثائق الفكر فى القرنين الماضيين ليس له قيمة تاريخية كبيرة ـ لانه لا يمثل الا مجادلات وفرقعات كانت محصورة فى دائرة صغيرة من المثقفين (مثلما تفرد اليوم الصفحات الطوال لمن يسمون بالمفكرين ولا يعرهم أحد اهتماما) ـ ولذلك فان منهج هذه الدراسة هو تحليل التاريخ كصراع بين الحق والباطل ولكن من خلال انعكاس الصراع على الجماهير ـ ولما كانت قوى الباطل قد أقامت مركبا سياسيا / اقتصاديا / اجتماعيا (أى مركب القهر / الظلم / الانحلال واللامسئولية) بما يضمن هيمنتها فى النهاية ـ ولما كان المد الشعبى والحركة الاسلامية قد هدف دائما الى تحطيم هذا المركب لاقامة مركب (الحرية / العدالة / الفضيلة والمسئولية) ـ فقد اهتممنا بتتبع تلك التركيبة شدا وجذبا بين الاتجاهين ـ ومن ثم أصبح ممكنا أن نتفهم التحولات الفكرية المواكبة ـ لكن التركيز الرئيسى فى هذا البحث كان بلا شك على قضية النضال ضد الاستعمار .

ان تحديدنا لبداية الحقبة العلمانية ـ وتحديد مفهوم العلمانية نفسها قد وردا بصفحتى ٢٥ ، ٧٠ على التوالى ويهمنا فى هذا الصدد أن نشير الى عدة حقائق :

* ان هذا البحث منحاز سلفا ـ وبالتالى فهو ليس (علميا) ولا (موضوعيا) ولا (محايدا) ـ تلك الالفاظ التى اعتاد المشعوذون من العلمانيين أن

يصدروا بها أبحاثهم ظانين أنها يمكن أن تغطى على الزيف والتلفيق الذى يمارسونه .

ان الكاتب منحاز الى :

١ ـ الانتماء العميق للأمة الاسلامية وبالتالى فان ما يسمى بالوطنية المصرية أو القومية العربية هو رجس من عمل الشيطان .

٢ ـ الانحياز الى الفقراء والمستضعفين فى أى مكان على كوكب الارض ، وقد هدف هذا البحث ـ ضمن ما هدف ـ الى كشف الدور الاجرامى للمستكبرين فى واحدة من بقاع هذا الكوكب (مصر) .

* ان مشاعر الكراهية العميقة التى يكنها الكاتب لكافة المستكبرين وكافة العلمانيين لا تعنى بالضرورة أننا سنجاريهم فى تزييفهم للتاريخ لصالح اتجاهنا "ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا " وفى الحقيقة فاننا فى غير حاجة الى التزييف ـ لأن التاريخ دائما فى صف الحق .

* لم يتطرق البحث الى الآلاف من الاحداث غير ذات المغزى لكيلا نخرج من السياق الرئيسى الى قضايا هامشية ـ كما تغاضينا عن كثير من الاحالات المرجعية لكيلا يتضخم حجم الهوامش .

* لم يعتمد البحث على خبر لم يثبت يقينا ـ كما لم نستشهد بأى تحليل مغرض وضع بهدف تصفية حسابات شخصية وحزبية ـ ولم نأخذ على أحد شيئا الا ما أقره هو على نفسه .

* لا يتضمن هذا البحث اجابات وافية عن موضوعين :

- نقد الاتجاه الاسلامى   - مرحلة ما بعد المنصة

لانهما سيكونان موضوعا لبحث آخر باذن الله .

اللهم وفق المسلمين لتوجيه ضربة قاصمة لقوى الشرك والطغيان ـ ووفقنا لاعادة تاريخ مصر وكل الوطن الاسلامى الى مساره الطبيعى .

القاهرة فى ١٩٨٦/٣/١

اسامة خميس .

حركة التاريخ

ان أية محاولة للبحث الجاد فى أية قضية تاريخية صغرت فى شأنها أم عظمت - وكذلك أية محاولة لتفسير الظواهر المرتبطة بالحياة والتطور الانسانى - لن يكون لها قيمة اذا لم تنطلق من فهم القضية الجوهرية فى هذا الكون - أعنى قضية الصراع بين الحق والباطل - لقد بدأ هذا الصراع قبل نزول الانسان الى الارض وهو مستمر الى يوم أن تبدل الأرض غير الارض والسموات .

لكن هذا لا يعنى أن صراع الحق والباطل هو الصراع الوحيد الذى شهدته الأرض - فعندما يضعف معسكر الحق ستظهر صراعات من نوع آخر بين قوى الباطل بعضها بعضا وتستند هذه الصراعات على فلسفات تبرر الاستعلاء على الأجناس الأخرى والاستئثار بالموارد الاقتصادية للأمم الأضعف وعموما فقد اتفقت جميع الفلسفات الوضعية على ضرورة الصراع وان اختلفت بعد ذلك فى تصوراتها لأطراف الصراع وكيفية ادارته .

وبالاضافة لما ذكرنا - هناك صراع داخل معسكر الحق نفسه - بهدف الوصول الى الصورة المثلى لتحقيق العبودية لله رب العالمين ولاقامة العدل بين الناس وينشأ هذا النوع من الصراع عندما تبدأ الانحرافات تظهر داخل معسكر الحق .

ولكل نوع من الصراعات السابقة سنن خاصة به - قد أجملها القرآن ودعانا بعد ذلك الى البحث التاريخى وأخذ العبر - وتقتضى أية معالجة تاريخية جادة الالمام أولا بهذه السنن ثم دراسة قصة هذه البشرية والغوص فى ذلك الى أبعد الأعماق بهدف التوصل الى ادراك سليم لطبيعة المرحلة التى تمر بها الأمة الاسلامية وكذلك الجنس البشرى كله .

ان هذا غير ميسر لنا حاليا - لأن البحث التاريخي الاسلامي - بعكس العلماني - يحتاج الى وقت وجهد وتدقيق (حيث لا مكان فيه للفبركة) - بينما لا تهدف هذه الصفحات اكثر من أن تكون تمهيدا لدراسة أوسع فيما بعد باذن الله .

* * *

- ١ -

لما تقادم العهد بالبشرية وظهر الشرك جاءت الرسالات ، ولكنها - قبل مجيء الاسلام - تميزت بأن كل رسول كان يرسل الى قوم محدودين في المكان والزمان وأن الأمر انتهى في معظم الأحوال بايمان القليل وجحود الأغلبيات يقودهم المستكبرون - ولم تكن الجماعة المؤمنة مكلفة بالجهاد وكان عقاب الله ينزل في النهاية .

- ٢ -

وتعتبر تجربة بني اسرائيل استثناء ، في بعض ما تميزت به - حيث أتيح لمجتمع اسلامي مصغر أن يحيا في مساحة صغيرة من الأرض وأن يتعرض بعد ذلك لانحرافات شتى - هي نفس ما تعرض له المجتمع الاسلامي الكبير بعد ذلك - وقد تعرضت السور الأولى من القرآن لقضية انحراف بني اسرائيل بالتفصيل .

- ٣ -

ومع التطور التاريخي بدأت الجماعات البشرية تنزع نحو التواصل وانفتحت بينها خطوط مواصلات تدفقت عليها السلع والافكار - وما لبث التطور أن أحال عالمنا اليوم الى (قرية الكترونية) بتعبير كثير من مفكري العصر - وتواترت الأحاديث حول مشاريع لتوحيد الثقافة العالمية وأصبح الانسان في أي مكان يستطيع مشاهدة الحدث لحظة وقوعه في أية بقعة من الارض

فألغيت اعتبارات المكان والوقت .

وقد يكون ذلك أحد أسباب مجيء الاسلام الى الناس كافة وكونه خاتم الرسالات - وقد تطلب هذا أيضا أن تبقى معجزته خالدة وأن تصان من التحريف (وربما كان ذلك أحد أسباب ظهور الاسلام فى جزيرة العرب بعيدا عن الفلسفات الوثنية القديمة التى لم تسلم منها النصرانية ولا اليهودية - وكذلك بعيدا عن تحكمات الأباطرة وارهابهم - تلك التحكمات التى آلت بالنصرانية الى نهايتها المعروفة) .

ولكن الذى لا ريب فيه أن أهم صفة تميز بها الاسلام عما سبقه من رسالات هو أنه أعطى الجماعة المؤمنة من الآن فصاعدا مسئولية (الشهادة على الناس) وأصبح الجهاد ذروة سنام الدين .

- ٤ -

ورغم انتقال دعوة الحق من مرحلة (القومية) الى مرحلة (العالمية) بمجيء الاسلام - فقد بقيت خطط الشيطان وأساليبه واحدة من حيث الجوهر - وان تغيرت بالطبع فى تفاصيلها ومظاهرها - فاذا كانت عبادة الأصنام الحجرية أمرا مثيرا للسخرية فى هذا العصر - فقد طور الشيطان أشكالا أخرى للصنمية - فصنع من البشر أصناما تعبد (عبد الناصر - أتاتورك - ماو - كيم ايل سونج ...) أو أوحى الى أوليائه بفلسفات جديدة تلائم المراحل التاريخية المختلفة (ماركس - ميشيل عفلق ...) .

ولقد كان على الشيطان دائما أن يتعامل مع ثلاثة أصناف من البشر :

(أ) المستكبرون : الذين لا يخلو منهم مجتمع - وهؤلاء قد أقاموا (ترتيبات) تضمن مصالحهم الدنيوية - وفى سبيل التشبث بها سيعملون باخلاص على محاربة أية دعوة للحق لأنها تعنى انهيار مصالحهم المادية واحلال العدل - وربما لم يصل بعض أصحاب المصالح الى مستوى

التفكير الاستراتيجي ـ ولكن على أية حال كان لديهم (حس سياسي مرهف) بمدى خطورة هذه الدعوة على مصالحهم .

ويندرج تحت هذا التصنيف من يحوزون (السلطة) أو (المال) أو كليهما ـ والحقيقة أن هناك علاقة جدلية بين السلطة والمال ـ فالوزير يسرق ويرتشي ـ والمليونير إما أن يحوز السلطة مباشرة أو يؤثر في توجهاتها بما يخدم مصالحه (جماعات الضغط) ويرتبط بهؤلاء وهؤلاء مجموعة من محترفي الدجل السياسي يزينون للمستكبرين أعمالهم (المفكرون العلمانيون والعاملون في أجهزة الاعلام والمرتزقة المسمون رجال الدين) (١)

ومن الواضح أن المستكبرين سيكونون في توافق دائم مع الشيطان فطمس الله على قلوبهم فأصبحوا بحق شياطين الانس .

(ب) <u>المستضعفون أو الأغلبيات البشرية :</u> وهؤلاء يشكلون المجال الواسع لاغواء الشيطان الذي استغل بعض العناصر فيهم : الجهل بالحق ـ الضعف المتأصل في النفس البشرية والذي يقود الى السقوط اذا لم يعرف الحق ويتبع . . . . . الخ ـ وهكذا كانت الأغلبيات البشرية في معظم مراحل التاريخ رصيدا لمعسكر الباطل (وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) ـ ولكن هذه الأغلبيات لم تعدم رصيدها الفطري أبدا فاذا زالت عنها العوارض التي أدت الى ضلالها ـ فلن تلبث أن تعود الى الفطرة (واذ أخذ ربك من بني آدم . . . الآية) .

---

(١) وصف علي شريعتي المستكبرين بأنهم يشكلون ثلاثي (العنف ـ الذهب ـ المسبحة) أي (السلطة ـ المال ـ الكهنوت) وشبهه لهم ب (فرعون ـ قارون ـ بلعام) .

وقد تمثلت خطة الشيطان تجاه هذه الفئة من بنى آدم في ادخالها ضمن (نظام) اقتصادى أو اجتماعى معين - بحيث تجد نفسها لا تملك من أمرها شيئا - ومن خلال هذا النظام الذى يسيطر عليه المستكبرون تتم عملية منظمة لاضلال المستضعفين (وذلك باخراج دين له رجاله المتخصصون) وتتم عملية أخرى للاستئثار بجهدهم وابقائهم فقراء فلا تعد و طموحاتهم بعد ذلك أمور عيشهم اليومى .

ولكن مع الفتح الاسلامى سيتم نسف كافة (النظم) التى أرساها حزب الشيطان - وهنا يتدخل الرصيد الفطرى الكامن ويعود الناس الى الحق أفواجا (اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا) .

وبسبب التطورات التكنولوجية أصبح تنفيذ المخطط الشيطانى اكثر سهولة من أى وقت مضى فقد أرسيت (نظم) للتعليم والاعلام والاقتصاد والسياسة ضمنت سيطرة تكتلات من المجرمين والدجالين والاحتكاريين على مقاليد الأمور فى جميع أنحاء العالم (باستثناء ايران بالطبع) كما ضمن النظام التعليمى عملية غسيل مخ منظمة للانسان المعاصر منذ أن يبدأ عقله فى التفتح على الدنيا وضمن النظام الاعلامى اقتحام بيوت الناس واتمام عملية غسيل المخ .

ونظرا لبشاعة الجاهلية الحديثة فقد تطلب الأمر فلسفات وأفكارا منظمة (بعكس الجاهليات الساذجة القديمة) - وهكذا تطورت العلوم الاجتماعية ووضعت لها مناهج كثيرة - وسميت الفلسفات الحديثة - من باب الدجل - (بالعلمية) و (الموضوعية) .. الخ .

(ج) الجماعة المؤمنة : وهى القلة دائما - ولكن القلة أو الكثرة لم تكونا

أبدا مدارا للحق أو سببا للنصر - وقد كلفت هذه الجماعة بتكاليف محددة هى العبادة (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) - وعند مستوى معين من الايمان يكون نصر الله - بصرف النظر عن توازنات القوى وحسابات السياسة الدنيوية (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى) (انا للنصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) .

وخطة الشيطان هنا مخالفة لخطته مع المستضعفين - فبينما يلجأ مع الأخيرين الى تشكيل (نظام) لاستعباد الأفراد - فانه مع الجماعة المؤمنة يلجأ الى المستوى الفردى فى محاولة لتحطيم الفرد ثم تحطيم ترابط المجتمع الاسلامى بعد ذلك - ويكون الرد الاسلامى على الشيطان هنا هو (جهاد النفس) أى تحدى الشيطان بمجرد أن يبدأ خطته من الفرد .

وبينما يبقى المستكبرون والمؤمنون محافظين على خصائصهم - الى أن يتمكن أحدهما من تحقيق جانب من هدفه فى افناء الطرف الآخر- فان المستضعفين يتميزون بالتغير فى خصائصهم ووظيفتهم - وعند ما ينهار (النظام) الذى أقامه الشيطان ويتحرر المستضعفون فانهم سيتحولون وبسرعة الى جماهير للجماعة المؤمنة التى ستتزايد مسئوليتها الطليعية بعد أن أصبحت مسئولة عن قيادة مجتمع وليس مجرد الدعوة .

- ٥ -

لقد افتتحت احداث التاريخ الاسلامى بجهود مائة ألف من الصحابة قاموا بأكبر حركة فتوح عرفها التاريخ خلال قرن واحد - ولكن الأهم من ذلك أنهم أنشئوا أروع وأعدل نظام عرفه

الجنس البشرى أعنى نظام الخلافة الراشدة .

- ٦ -

وطبقا لسنن الله تعرض هذا النظام للانتقاص وبدأ تدهور وئيد جعل المجتمع الاسلامى بعد ١٢ قرنا فى حالة (قابلية للاستعمار) بتعبير مالك بن نبى - وفى ذلك الوقت كان الغرب قد استجمع أسباب القوة المادية وأزاح آخر عقبة فى طريق انطلاقه (الكنيسة) واخترق الوطن الاسلامى - ورفرفت الرايات الغربية على جميع الارض الاسلامية تقريبا - وبدأت خطوات منظمة لتحقيق التبعية فى الفكر والسياسة والاقتصاد والاجتماع

وبذلك فنحن بازاء مرحلتين متميزتين من مراحل التاريخ الاسلامى :-

أ - تدهور اجتماعى - وإن بقى المجتمع محافظا على تماسكه وعلى نظام القيم الاسلامى (ولو ظاهريا) .

ب - الاختراق الغربى الذى جاء بالعلمانية - وهذه المرحلة تلفظ أنفاسها الأخيرة وهى المقصودة بالدراسة فى هذا البحث .

*   *   *

عوامل تدهور المجتمع الاسلامى(١)

- ١ -

أدت موجة الفتوح الكاسحة الى ظهور متغيرين :

(أ) دخول شعوب وحضارات سابقة على الاسلام ضمن البلاد التى فتحت. ولم يكن من السهل اقتلاع معتقدات تلك الشعوب أو اجتثاث جذورها الحضارية دفعة واحدة (على الرغم من أن الفتوح الاسلامية قامت بأكبر حركة هضم حضارى فى التاريخ بلا خلاف) .

(ب) مع انتشار الاسلام من البيئة الصحراوية الى البيئات الزراعية الغنية المجاورة كثر المال وبدأت أعراض أمراض الحضارة تدب فى اوصال المجتمع الاسلامى ـ ورغم المواقف الفريدة لبعض الصحابة مثل أبى ذر رضى الله عنه ـ فلم يكن ذلك ليستطيع ايقاف الموجة .

- ٢ -

ولكن العامل الجوهرى فى تدهور المجتمع الاسلامى هو بلا ريب انفصال قيادة الأمة الى قيادتين : سياسية وفكرية منذ حوالى سنه ٤٠ هـ ـ وطبيعة القيادة السياسية واحدة (اسلامية كانت ام غير اسلامية) فهى تريد الاستقرار وتضيق ذرعا بما ينغص عليها أمرها ـ وعلى الخلاف من ذلك طبيعة القيادة الفكرية التى لا تنفك تجاهد لاقرار المواقف الصحيحة وللنهى عن المنكر فكان لا بد أن تصطدم بالسلطان ـ والحق أن التاريخ الاسلامى لم يعدم من يمثل الموقف الصحيح ـ ويصح أن نطلق تعبير (الحركة الاسلامية) على التيار المنبعث من داخل المجتمع والذى يعمل على اعادته الى الصورة المثلى للتطبيق الاسلامى .

(١) ان الحضارات ظاهرة معقدة لا تكفيها عدة صفحات ولا حتى عدة مجلدات. كما أن الاحكام العامة عليها لا تعنى أنه لا يوجد استثناءات .

وفى البداية حدث تمرد على الترتيبات الخاطئة والمنافية لروح الاسلام - وكانت جزيرة العرب هى المنطلق الطبيعى لحركات التصحيح هذه - فهى - باصطلاحات عصرنا - تحوى احتياطى المثقفين والقياديين فى الأمة - ولكن قمعت الحركة الاسلامية بلا رحمة : قتل الحسين وضربت الكعبة بالمنجنيق واستبيحت المدينة وقتل عبد الله بن الزبير وقتل زيد بن على وصلب وأحرق جثمانه وذر فى الهواء فى محاولة لزرع اليأس فى نفوس المعارضين للنظام القائم - وازاء القوة الباطشة اتخذت الحركة الاسلامية أسلوبا جديدا هو التنظيمات السرية (لاسقاط الحكم) أو أسلوب السلبية تجاه السلطان - وكان تعبير السلطان وقتها يرد فى كتابات الفقهاء بما يتضمن النفور .

والواقع أن تاريخ الاسلام بعد سنه ٤٠ هـ هو تفاعل بين الثلاثى : السلطان - الحركة - المجتمع - وهذا هو الفارق بين نظام الخلافة الراشدة وأى نظام آخر قد ينسب الى الاسلام - ففى نظام الخلافة تكون الحركة نفسها هى السلطة ويكون المجتمع كله قريبا من الحركة أو متلاحما معها - مما يعطيه قوة دفع هائلة لتحقيق الاهداف الاسلامية فى هذه الدنيا - أعنى شن الهجوم النهائى الشامل ضد القوى الطاغية وتحرير الجنس البشرى .

- ٣ -

وكان للصراع أو للتنافر بين السلطان والحركة عدة تداعيات هامة (١):

سندرس هنا ما يتعلق بالمجتمع الاسلامى فقط وينبغى ألا نغفل تقصير الدول الاسلامية كلها فى مشروع تحرير العالم - فبحكم أن المسلمين هم الاوصياء على البشرية فانهم مسئولون مباشرة عن وقوع العالم فريسة للغرب بعد ذلك . لقد قامت معظم الفتوح الاسلامية نتيجة مبادرات طليعة الامة ولم يحدث أن كان هناك مشروع محدد لفتح العالم - ومن المثير للغرابة أنه كلما ازداد حجم الدول الاسلامية تقل قدرتها على الفتوح (وليس العكس) والسبب فى ذلك هو استنفاد الاحتياطى الطليعى مع غياب نظام للتعبئة .

(أ) نشأة الفرق وانتعاش الحركة الشعوبية :

فلقد أدى النظام السياسى الجديد الى : (١) سخط الشعوب غير العربية خاصة الفرس فلم يسمح لهم بأى دور سياسى واستمر فرض الجزية مثلا على من أسلم منهم ، (٢) تحول القياديون المعادون للاسلام الى العمل السرى مستغلين المتغيرات الاجتماعية الجديدة ودعوا الى الشعوبية والى بعض العقائد الهدامة .

ولكن انتشار الفرق لم يتحقق على نطاق واسع الا فى العصر العباسى حيث حدث أكبر امتزاج حضارى فى التاريخ كله ، ففى بوتقة واحدة صهرت الحضارات العربية والبيزنطية واليونانية والفارسية والهندية والمصرية اضافة الى بعض المؤثرات الصينية - فكان هذا يعنى ازدهار حركة الترجمة ونشوء أفكار جديدة هى خليط من الاسلام والفلسفات الوضعية مع اضفاء طابع اسلامى شكلى عليها .

وأدت هذه الأفكار الى تمزيق الطبقة المثقفة فى المجتمع الاسلامى وشغله بالصراعات الداخلية والتى اتضحت جليا حينما بدأ المعتزلة يضطهدون الكتلة الرئيسية للمجتمع الاسلامى (أهل السنة) عندما حازوا النفوذ فى بعض فترات العصر العباسى - كما ظهر أثر التفكك فى بقاء الدولة العباسية عاجزة ازاء الحروب الصليبية وعجزها عن قهر القرامطة الذين نقلوا الحجر الاسود الى القطيف مدة ٢٨ عاما .

وكان ظهور الفرق يعنى انفتاح جبهة جديدة أمام الحركة الاسلامية مما حد من قدرتها على العمل على الجبهتين الهامتين :
مقاومة الفساد السياسى .
مقاومة التدهور الاجتماعى .

التدهور الاجتماعي والخلقي :

ان قاعدة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر لو طبقت كما يأمر الاسلام لقضى أولا بأول على جميع مظاهر الانحراف قبل استفحالها ولكن هذا يتضمن اضطرابات فى نظام سياسى واجتماعى قد استقر بعد موجة الفتوح الكاسحة وما ترتب عليها من كثرة الاموال وركون الناس بعد ذلك - ولذلك كان من الصعب احداث التغيير دفعة واحدة لصعوبة تحقيق التغيير الفجائى فى النفس البشرية ولأن طبيعة الدولة (كنظام) ستكون عاملا معرقلا - ولو كان هناك تفهم بين القيادتين السياسية والفكرية فلربما اتخذت القيادة الفكرية مبادرات لتحقيق مشاريع شاملة للاصلاح الاجتماعى .

تجزؤ المعرفة وقتل روح الابداع وسيادة الجمود وانتشار الصوفية وشرك القبور :

فقد تطور هذا الأمر كالآتى :

١- اندثر الجيل الفريد الأول وظهرت الحاجة الى التدوين (١) .

٢- اتسعت رقعة الوطن الاسلامى كثيرا بحيث شملت اقواما وبيئات جديدة وتشعبت الحاجات الانسانية .

٣- انصب كل جهد العلماء على العمل الأكاديمى بسبب سلبيتهم تجاه الحكام .

ولذلك كان القرنان الثانى والثالث قرنا التدوين والتأصيل - حيث

ان هذا جزء من ظاهرة حضارية لاتقتصر على الحضارة الاسلامية وحدها تبدأ الحضارة بجيل فريد يعطيها قوة دفع هى أساسا (قوة روحية) اذا صح التعبير - وبعد ذلك تدخل الحضارة طورا آخر يكون (العقل) فيها هو مصدر الدفع - ثم يضمحل الابداع ويبدأ الانهيار . أنظر عرضا لذلك فى : مالك بن نبى : شروط النهضة .

شهدا جهودا ضخمة لجمع السنة وتأسيس المذاهب الفقهية - وبسبب ضخامة المادة العلمية ظهرت التخصصات فأصبح هناك الفقهاء والمحدثون والمتكلمون والأخلاقيون والمتصوفون - وانقسم الاسلام نفسه الى ما أصبح يسمى (عقيدة) و (فقه) ... الخ (بينما كان أبو حنيفه قد عرف الفقه بما يشمل العلوم الاسلامية كلها) وتربت أجيال على هذه التخصصات كل منها أخذ الاسلام من وجهة نظر واحدة - كذلك انقسمت العلوم الى عقلية ونقلية واتخذ كثير من العلماء موقفا سلبيا من العلوم العقلية وأصبح العقل كما لو كان متهما . وانضاف الى ذلك سبب هام للتقليد المذهبى والجمود هو تبنى الدول لمذاهب رسمية وكان هذا يعنى تخريج أجيال من المفتين والقضاة من المذهبيين وأدى ذلك فى فترات معينة من التاريخ الى تشكيل جبهة من المذهبيين ضد المجتهدين (كما حدث مع ابن تيمية) ولكن بقيت للمجتهدين قيمتهم فى توليهم دور القيادة الشعبية عند ما يتضعضع النظام السياسى (ابن تيمية أيضا كمثال) - وبمرور الزمن قل المجتهدون - حتى اذا جاءت الهجمة الغربية اتخذت الحركة الاسلامية شكلا جديدا فبعد أن كان العلماء هم المكون الاساسى للحركة طوال ١٢ قرنا أصبح الشباب يكونون جسم الحركة ولما كانوا قد تعلموا أول ما تعلموا فى المدارس العلمانية فقد كان اعادة بناء منهج علمى وتربوى اسلامى لهم أمرا شاقا خاصة فى غياب التنظيم الاسلامى الفعال - كما أن حداثة سن هؤلاء الشباب لم تسمح بظهور جيل من المفكرين

من بينهم (١) .

(د) تغييب قوة الجماهير المسلمة فى أحرج مراحل الصراع مع الباطل :

فبعد أن تراكم فعل العوامل السابقة نشأت الدولة العثمانية معبرة عن التدهور الماثل - ورغم اخلاصها الشديد للاسلام (وربما تفوقت فى ذلك على كل ما سبقها من دول) - فانها قد ارتكبت خطأ فادحا عندما استبدلت بقوة الجماهير المسلمة قوة عسكرية نظامية - وهكذا لم تتمكن الدولة من الافادة من مكاسب اطلاق الطاقة الجماهيرية وكان هذا مناخا ملائما للمخربين من دعاة العلمانية والقومية العربية (حيث لا يمكن تفريخ هذه الأفكار الا فى جو دكتاتورى قمعى كالذى ساد الدولة العثمانية فى القرن ١٩م) وعندما انهارت القوات

(١) هناك بعض الاستثناءات التى تولى فيها العلماء فى العصر الحديث قيادة حركات اسلامية (السنوسية - جهود متفرقة فى المغرب والجزائر وتركيا) .

ولم يحدث أن ظهرت حركة تجديد من داخل الهيئة العلمية الاسلامية فى الدولة العثمانية وقد انتكست جهود بعض الأزهريين للتجديد داخل الأزهر فى القرن الماضى (وان كان المطالبون بالتجديد رغم وجاهة مطالبهم لا يمكن أن نعدهم اسلاميين حقيقيين) .

وهناك استثناء آخر هو الخصوصية الشيعية فلم يحدث الانفصال بين (السلطة) و(الحركة) عند الشيعة لأن معظم الدول الشيعية المبكرة قامت فى المغرب العربى بعيدا عن الكتلة الشيعية الرئيسية فى المشرق - وعندما تكونت المؤسسة العلمية لدى الشيعة فى العصر الصفوى (١٥٠١ - ١٧٢٢) لم تكن الدولة الصفوية فى حاجة للاصطدام بها بسبب تراث الولاء الذى تكنه جماهير الشيعة لقياداتهم الفكرية وبسبب حاجة القيادة الصفوية للدعاية المذهبية فى حروبها الطويلة مع العثمانيين - ولقد حاولت أسرة بهلوى (١٩٢٥ - ١٩٧٩) النيل دون جدوى من المؤسسة وكان أحد أهداف ما يسمى بالثورة البيضاء (١٩٦١) تجريد تلك المؤسسة من مواردها الاقتصادية .

العثمانية على جميع الجبهات غداة الحرب العالمية الأولى ـ لم يكن رد الفعل الجماهيرى سوى انفعالات عاطفية ولم يكن رد فعل المثقفين سوى بعض أبيات من الشعر فى رثاء الخلافة ـ رغم أنها كانت المرة الأولى فى تاريخ الاسلام كله التى حدث فيها هذا الموقف الجلل .

- ٤ -

ان الحديث عن تدهور المجتمع الاسلامى ينبغى ألا يأخذنا الى تصورات بعيدة عن الحقيقة فنعتقد أن التاريخ الاسلامى ما هو الا سلسلة من الاخطاء ـ فبعد ١٢ قرنا من الرسالة كان المجتمع الاسلامى قابلا لنشوء نهضة شاملة فيه دون اضطرابات عنيفة ـ كما أنه لو قورن بمجتمعات أخرى فلن يعتبر مجتمعا متدهورا ـ ولكن الاساس هنا فى التقويم هو مقارنة النموذج الامثل (الخلافة الراشدة) بما تلاه من مراحل التاريخ الاسلامى .

- ٥ -

لقد أدى التدهور الى اختلال ميزان القوة بين عالم الاسلام وعالم الغرب بعد خمسة قرون من الرسالة ودخل الغرب فى صراع مع عالم الاسلام لسبعة قرون أخرى قبل أن تسقط أولى المناطق الهامة فى قلب الوطن الاسلامى ـ وكان العامل الجوهرى الذى منع سقوط الوطن الاسلامى أولاً ـ هو تقديم الاجابة الصحيحة : الجهاد ـ وهذا ما أدركه لويس التاسع فى سجنه بالمنصورة وفيه وضع تصورا شاملا لطبيعة الصراع مع عالم الاسلام حيث وجد أنه :

١ ـ من العبث مهاجمة الاسلام فى قلبه ـ والأولى أن تحدث حركة التفاف واسعة لتطويق الوطن الاسلامى حيث تكون الأطراف

دائما أضعف فتسقط فى هدوء دون استفزاز الكتلة الاسلامية الرئيسية .

٢- وأن مجرد استخدام القوة ضد المسلمين قد يؤدى الى نتيجة عكس المرجوة وبدلا من ذلك يجب اللجوء الى أساليب أخرى (وقد انتعشت بعد ذلك حركة الاستشراق وعلى أساسها بدأ ما يسمى بالغزو الفكرى) .

وقد يبدو أن مخطط لويس التاسع كان ساذجا - اذ اعتقد بأن التحالف مع الحبشة الهزيلة سيؤدى الى وضع الوطن الاسلامى بين فكى كماشة - ولكن ذلك كان تفكيرا راقيا بمنطق ذلك العصر - والحقيقة أن فكرة الاتصال بالحبشة هى السبب المباشر للكشوف الجغرافية .

ولقد أدت تلك الكشوف الى انفساح العالم من جديد أمام الغرب الذى كانت أطرافه قد تآكلت من جراء المد الاسلامى فيه (توقف التوسع العثمانى فى أوربا سنه ١٥٧١) كما أدت أيضا الى تراكم هائل للقوة المادية بسبب نهب المستعمرات .

ومع التطور دخل الغرب عصر الصناعة ونشأت طبقات جديدة فى مجتمعاته (التى كان يغلب عليها الاقطاع) وتمكنت الطبقات الجديدة من ازاحة نفوذ الكنيسة (الثورة الفرنسية) وهكذا نشأت اللبرالية التى دفعت عجلة التطور بقوة - وتحولت الدول الأوربية من دول استعمارية [1] الى دول امبريالية [2] - وفى ذلك الوقت

---

١) المقصود المرحلة التى قام فيها الاوربيون باستيطان العالم الجديد (١٥٠٠ - ١٨٠٠) وجلب الرقيق من افريقيا وابادة هنود امريكا .

٢) المقصود المرحلة التى تدافعت فيها القوميات الاوربية للسيطرة على المواد الخام والاسواق (المناطق الكثيفة السكان) لأن عصر الصناعة يتطلب هذا والا فقدت الدولة أهم عناصر قوتها .

بالذات بدأ اختراق الوطن الاسلامى فى قلبه (١) وظهرت اصطلاحات (المسألة الشرقية) و(الرجل المريض) وكان ذلك بعد ٧٠٠ سنة من أولى المحاولات الغربية للسيطرة على قلب الوطن الاسلامى (أى الحروب الصليبية) .

وهكذا جاءت الحملة الفرنسية كطليعة :(١) للغرب بمفهومه التاريخى (٢) وللعلمانية التى كانت فكرة جديدة وقتها .

ورغم كل مظاهر التدهور والتى بلغت حد اقامة أربع جماعات للصلاة فى الازهر ـ فضلا عن الخلافات والجدل العقيم ـ رغم كل ذلك كانت هناك قيادات متنورة تدرك طبيعة المرحلة ـ وهذه القيادات هى التى قادت الشعب بعد ذلك ضد الحملة وقدمت الاجابة الصحيحة: الجهاد ـ وامتلأ سجن القلعة بأعضاء التنظيمات السرية التى اشترك فيها النساء والاطفال وصنعت الأسلحة على أحدث تكنولوجيا ـ وان قراءة لوثائق الحملة (بالعربية أو بالفرنسية) لتشير الى اكبر حركة مقاومة شعبية فى تاريخ مصر كله ـ وبعد ٦ سنوات فقط من خروج الحملة قدمت الاجابة الصحيحة مرة أخرى على الحملة الانجليزية فى رشيد .

ان دخول العالم عصر الصناعة كان يحمل فى طياته نذرا بأكبر تحولات شهدتها الكرة الأرضية فى وقت قصير ـ كان هذا يعنى

---

(١) لم يهاجم الغرب الوطن الاسلامى فى قلبه فى البداية لما ذكرناه سابقا ـ وبسبب قوة الدولة العثمانية ولأن طبيعة الاستعمار وقتها كانت الاكتفاء باحتلال المناطق الساحلية فى العالم واعتبارها محطات للتجارة ولما جاء عصر الصناعة سعت الامبرياليات الغربية الى التوسع لاحتلال الارض ذات المواد الخام أو الكم البشرى الكبير ـ ومنذ حرب القرم سنه ١٨٥٦ بدأت الفجوة التكنولوجية تتسع بين الأسلحة العثمانية والأسلحة الأوربية وتوالت التراجعات العثمانية .

تعقد وتشابك العلاقات بين الدول ـ كان يعنى أن العالم (على أساس أسباب القوة الجديدة) سينقسم الى دول تابعة وأخرى متبوعة ـ كان يعنى أن تقدما سيحدث فى نظم الاتصالات وفى وسائل التعليم والاعلام وكان مناخ الحرية الفكرية (الذى جاء به المذهب اللبرالى) يعنى احتمال ظهور أفكار جديدة وانشقاق المجتمعات على أساسها الى كتل متصارعة ـ وباختصار كانت المعطيات الجديدة تعنى تحولات فكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية .

ولم يكن من السهل الاحتفاظ بالانتصار الاسلامى دون الاستجابة للمتغيرات الجديدة وبمعنى آخر فقد كانت المرحلة تحتاج الى (فكر) لأن الصراع لم يعد بالبساطة التى كان بها أول مرة عندما كان مجئ العدو يقابل بسيل هادر من المجاهدين المسلحين بأسلحة بسيطة .

وفى هذه المرحلة الحساسة لجأ الشيطان ـ وكما قلنا من قبل ـ الى تطوير أساليبه مستفيدا مما يسره عصر الصناعة من وسائل الاغواء ـ لم يلجأ فقط لتخريب الانسان فى الوطن الاسلامى ولكنه سبق الى تخريب الانسان الغربى [1] وجعله أسير الاحتكاريين والسياسيين المجرمين أو أسير الشيوعية .

وفى المقابل لم يطور المسلمون فكرا لمواجهة المرحلة واقتصرت أعمالهم على معالجات جزئية (الوهابية) أو على المقاومة المستميتة ضد الهجمة الغربية (السنوسية ـ الجهاد الاسلامى فى الجزائر ـ عبد الكريم الخطابى ـ الشيخ شامل فى القوقاز ـ سامورى فى غرب افريقيا ـ احمد بن ابراهيم فى شرق افريقيا) ـ وقد أثبتت أحداث التاريخ أن حركة مقاومة قامت لمجرد المقاومة لن يكتب لها الاستمرار .

---

(١) انظر عرضا مبسطا ورائعا لعملية تخريب الانسان الغربى والمسلم فى على شريعتى : "المدنية والحضارة" مجلة المسلم المعاصر عدد ٣٣ ص ص ٣٣ / ٤٦

الاختراق الغربى للمجتمع الاسلامى

لقد اتخذ هذا الاختراق شكلين رئيسيين (وان كانت لكل بقعة في الوطن الاسلامى تجربتها المتميزة فى صراعها مع الغرب) :

(أ) الانقلاب العنيف المباشر من الاسلام الى الكفر (نموذج أتاتورك بعد سنه ١٩٢٤ ونموذج رضا بهلوى بعد سنه ١٩٢٥ ومحاولات أمان الله خان ملك افغانستان والتى قبرت فى مهدها) .

(ب) الانسياب التدريجى البطىء للأفكار والاخلاق الغربية وقد حدث ذلك وسط شعوب يصعب التغيير العنيف فيها (مصر) أو لسبب ظروف أخرى - ففى الهند مثلا حدث التغريب وسط الهنادكة والسيخ أولا - فلم يكونوا يملكون المقومات الثقافية الذاتية لمواجهة الثقافة الغربية - ولما كان المسلمون أقلية عددية فلم يكن هناك بد من الانضواء فى النظام الجديد - وحدث نفس الشىء مع مسلمى افريقيا جنوب الصحراء

وحتى مع بداية الاختراق الغربى فقد بقى الجهاد هاجسا مسيطرا على انجلترا بالذات [1] وكانت الورقة الوحيدة التى بقيت فى يد السلطان العثمانى لمساومة الغرب هى التهديد باعلان الجهاد في الهند (التى لم تتبع الدولة العثمانية أصلا !) ولذلك شجع الانجليز القاديانية (١٩٠٠) التى أنكرت الجهاد .

ونظرا لشدة تشعب موضوع كيف دخلت العلمانية فسنقصر الكلام على مصر حيث يهتم بحثنا بدراسة التحولات الاجتماعية فى مصر (هذا مع ايماننا الجازم باستحالة تجزئة التاريخ الاسلامى) .

---

(١) التى كانت تسيطر على معظم الوطن الاسلامى - أما فرنسا فقد سيطرت على مناطق هامشية أو صحراوية أما هولندا وايطاليا فقد كان نصيبهما (متواضعا) .

مقدمات العلمانية
(١٨٠٩ - ١٩٢٢)

محمد على[1]: ثنائية المؤسسات (١٨٠٩ - ١٨٤٢)

لا غرابة فى اتفاق جميع المذاهب العلمانية من أقصى اليمين الى أقصى اليسار على امتداح محمد على - لانه عند ما تصبح المسألة (الكفر ضد الاسلام) فستتوحد فصائل الكفر[2] .

لقد أحدث محمد على تغييرات جوهرية فى المجتمع فى مصر وكان ذلك هو الاساس الذى استقرت عليه أو تسربت من خلاله المفاهيم العلمانية - وان كان محمد على نفسه لم يقصد بالضبط ادخال العلمانية بالمعنى الذى نفهمه اليوم (بخلاف أتاتورك والشاه اللذين قصدا ذلك) - لقد اختلفت التفسيرات كثيرا فى الاهداف الحقيقية لاعمال محمد على وبلغ التهافت ببعض التفسيرات الى القول بأن هذا الالبانى كان له مشروع قومى عربى (كذا) - والحقيقة التى اتفق عليها المؤرخون الراسخون أن محمد على كان يهدف الى تكوين امبراطورية ترث دولة الخلافة نفسها - وفى سبيل ذلك حول مصر الى قاعدة اقتصادية وعسكرية ضخمة لتحقيق مشروعه .

---

(١) بدأ محمد على ولايته سنة ١٨٠٥ ولكن كانت السلطة الفعلية بيد العلماء- فقد كان تدخل العلماء اليومى لاصلاح أمور البلاد والعباد والحد من جور المماليك من روتين سياسة مصر الداخلية قبل الحملة الفرنسية - ولكن فى سنة ١٨٠٩ انفرد محمد على بالحكم وبدأ فى تخريب البلاد - وهذه السنة اعتبرناها البدايات الاولى للعلمانية .

(٢) من الممكن تتبع أمثلة كثيرة مشابهة :

-عبد العظيم رمضان مثلا فى كتاباته انحاز للاستعمار ضد الثورة المهدية ! كما وصف موقف بريطانيا فى حادث ٤ فبراير بأنه " وقفة صارمة الى جانب قضية الديمقراطية " ٤ فبراير وثائق جديدة - مقال بجريدة الاهرام ١٤/٢/١٩٧٥

-على الدين هلال يصف حزب الامة ذى الميول الاستعمارية (بينما قدم حزب الامة تيارا فكريا تنويريا (كذا) دون أن يتمتع بثقل سياسى حقيقى فان الحزب الوطنى مثل تيارا شعبيا جارفا بدون ذلك التيار التنويرى) السياسة والحكم فى مصر ص ٨١ .

لقد بلغ عدد الجيش المصرى فى عهده ٣٨٠ ألف جندى (فى بلد تعداده ٥ر٢ مليون نسمة) وكان الاسطول المصرى ثالث أقوى أساطيل العالم ـ ولقد أقام محمد على نظاما اقتصاديا أشبه بالنظم الشيوعية (رغم طابعه الاحتكارى) ـ ووصلت جيوشه الى مشارف عاصمة الخلافة .

ان عمليات التحول الاجتماعى لم تكن هدفا فى حد ذاتها ـ وكما قال أحد الكتاب المعجبين بمحمد على (ولكن هذا الذى يعتبر وسائل لديه ـ هو بعينه الذى يعتبر غايات لدينا نحن المصريين)

لقد جاء محمد على واليا على مصر بجهود العلماء والجماهير (١) وضد ارادة السلطان ـ وبخبرة السياسى كان من أول انجازاته نفى العلماء وعزلهم عن الجماهير خاصة بعد أثبتت أحداث رشيد سنة ١٨٠٧ مدى ما يمكن أن تشكله المقاومة الشعبية على نظامه من خطر (٢) .

وهكذا انفرد محمد على بسلطة تدبير الامور لاكثر من ثلث قرن كان فيها الحاكم الوحيد والزارع الوحيد والصانع الوحيد والتاجر الوحيد ـ وكشأن كل طاغية فقد تحققت فيه سنن التاريخ ـ لقد أصيب محمد على بالجنون قبل وفاته وشاهد بنفسه انهيار جميع مشاريعه الخارجية وانهيار نظامه الاقتصادى (بعد أن أجبرته دول أوربا والدولة العثمانية على اتباع سياسة الباب المفتوح سنة ١٨٣٩) وبعد مماته انهار النظام التعليمي والقاعدة الصناعية (وقد تكررت هذه الانهيارات سنة ١٩٦٧ مع الزعيم الملهم ـ عندما انهار الجيش وانهار الاقتصاد وانهارت فكرة القومية العربية وانهار نفوذ مصر على العرب) .

---

(١) فى سنة ١٨٠٥ كانت تتصارع على مصر ثلاث قوى (العثمانية ـ انجلترا ـ فرنسا) وكلها لم تدرك قوة الجماهير ـ أما محمد على فقد أدرك ـ وأجاد استغلال تلك القوة .

(٢) ولذلك نفى عمر مكرم الى دمياط سنة ١٨٠٩ ـ وعندما اعتقد محمد على أن العلماء لم يعودوا يشكلون خطرا على نظامه أعاد عمر مكرم الى القاهرة سنة ١٨١٩ لكن الجماهير تلقته بمظاهرة سياسية كبيرة ترحب به ـ فعزم محمد على على اعادة نفيه وانتهز فرصة الانتفاضة الشعبية فى باب الشعرية سنة ١٨٢٢ ونفى عمر مكرم الى طنطا .

لقد أرسى محمد على اول ركيزة للعلمانية حيث أنشأ نظاما تعليميا على غير أساس اسلامي وكان الهدف منه تلبية احتياجات المشروع الضخم - كما أرسى جذور نظام قضائي غير اسلامي حيث استبعدت بعض الحدود [1] وكثرت اللوائح والتنظيمات المخالفة لروح الاسلام .

ان هذه الثنائية في المؤسسات الحضارية (التعليم والقضاء) قد تعمقت وانعكست على الاخلاق والسلوك وكلما كانت تزداد الفجوة اتساعا بين المؤسسات التقليدية (المنسوبة الى الاسلام) والمؤسسات الجديدة - كان التضييق يزداد على المؤسسات الاسلامية - فمثلا بعد افتتاح الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨ تخرج جيل جديد ليس له علاقة بالاسلام ان لم يكن معاديا له - واحتكر هذا الجيل توجيه السياسة والفكر في مصر - في الوقت الذي فقد فيه الازهر بعضا من مكانته بانشاء دار العلوم سنة ١٨٧٢ لتخريج مدرسي اللغة العربية ثم فصل القضاء الشرعي عن الازهر سنة ١٩٠٧ ثم صدر قانون (بتنظيم) الازهر سنة ١٩١٠ قيد حركة الطلبة والموظفين والمدرسين وفي سنة ١٩٢٠ صدر قانون آخر منع الازهريين من الاشتغال بالسياسة !! وفي العشرينيات انتقلت قيادة الازهر الى ادارة انشأها الملك .

وبالنسبة للقضاء - فبسبب هزال المؤسسة القضائية الاسلامية لم تستطع الصمود أمام متغيرات العصر الحديث فتسربت التشريعات الغربية الى مصر بعد معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ومنذ حوالي سنة ١٨٦٥ سعى اسماعيل لادخال النظام القانوني الفرنسي وظهرت المحاكم المختلطة سنة ١٨٧٥ وأرادت المحاكم الاهلية (التي أنشئت سنة ١٨٨٣) محاكاة المحاكم المختلطة (لكيلا تكون هناك امتيازات أجنبية وتسترد مصر سيادتها التشريعية) [2] - وبعد

---

(١) كان هناك اهمال في تطبيق الحدود لعدة قرون قبل محمد علي - وعند ما حاول السلطان عزل محمد علي سنة ١٨٠٦ امتدحه العلماء في رسالتهم الى قائد الاسطول العثماني فكتبوا له : (. . والشريعة مقامة في أيامه . . الخ) لكن ذلك كان مناورة بالطبع على غرار ما فعل نعيري .

(٢) هذا الرأي للمستشار طارق البشري في (المسألة القانونية بين الشريعة الاسلامية والقانون الوضعي) ندوة التراث وتحديات العصر في الوطن=

معاهدة مونترو والغاء الامتيازات الاجنبية سنة ١٩٣٧ شرع فى اعداد قانون مدنى مصرى (طبق اعتبارا من سنة ٤٩) وكان للكفور المدعو السنهورى اليد الطولى فى ذلك وقد استمد هذا القانون نصوصه من القانون المقارن (أى كل تشريعات الغرب) فان لم يجد فمن التطبيقات المصرية فى المحاكم فان لم يجد فمن الشريعة الاسلامية !!ـ وقد وصف السنهورى القانون بعد ذلك بأنه (يمثل الثقافة الغربية أصدق تمثيل ويمثلها فى أحدث صورة من صورها)(١) .

ومع تعمق الثنائية ضاقت سبل العيش أمام خريجى التعليم الاسلامى (بخلاف خريج الجامعة" الافندى" الذى أصبح طبيبا أو محاميا أو مهندسا) وسخرت وسائل الاعلام من المعممين ـ فى نفس الوقت الذى أظهرت فيه خريج الجامعة باعتباره القدوة لبسطاء الناس .

حتى اذا تعززت المؤسسات العلمانية وأحكم الحصار حول المؤسسات المنسوبة الى الاسلام وصارت الاخيرة مشلولة من الناحية العملية ـ ألغيت هذه المؤسسات دفعة واحدة (سنة ١٩٥٥ الغاء المحاكم الشرعية ونظام الوقف الاهلى و سنة ١٩٦١ قرار ما يسمى تطوير الازهر) .

لقد كان دور محمد على اذن هو افتتاح الثنائية (عن حسن قصد أو سوء قصد ـ هدفا كان أم مجرد وسيلة لمشروع اكبر) ـ ولكن من رحمة الله أن محمد على لم يأت بأى فكر أو نظرية سياسية (٢) فلم يكن ليستطيع التوفيق بين الفكرة الاسلامية وبين أعماله التى أسخطت الناس (٣) .

= العربى . سبتمبر ١٩٨٤ (مركز دراسات الوحدة العربية) أما عبد القادر عودة فله رأى آخر معروف راجع أيضا لطيفة سالم : النظام القضائى المصرى الحديث. مؤسسة الاهرام ١٩٨٤ .

(١) قارن هذا بادعاء الدجالين اليوم بأن القانون المدنى مطابق للشريعة وأنه فقط يحتاج الى (تنقية) .

(٢) عن عقيدة محمد على راجع رسالة الدكتوراه لمحمد صلاح السيد (ماركسى) بعنوان مصر فى عهد محمد على : عملية التحديث وعلاقتها بالصراع الدولى فى الشرق الاوسط ص ص ٥٥٢ - ٦٠٩ .

(٣) لقد أوردت وثائق تلك الفترة الشىء الكثير عن سخط الناس من النظام الاقتصادى وعن الفرار الجماعى للاولاد من المدارس وعن الهروب من الجيش وعن فرار الفلاحين من حقولهم واحراقهم للمحاصيل .

سعيد واسماعيل : تبلور شخصية مصرية على حساب الشخصية الاسلاميـــة (١٨٥٤-١٨٧٩)

لقد تبلورت هذه الشخصية من خلال عدة عوامل :

(١) العامل الجوهرى هو طبيعة الشعب المصرى نفسه فى كونه (متسامحا)[(١)] فى نظرته الدينية بخلاف شعوب الشام والعراق - ولقد وصل الامر الـى تخصيص رواق للاقباط يدرسون فيه العلوم الاسلامية بالازهر - والــى أن نوبار باشا (الارمنى) كان يرأس احتفال موكب المحمل الذاهب الى مكة (عندما كان رئيسا للوزراء) .

(٢) عزلت مصر عن مجرى التطور فى الدولة العثمانية : بمقتضى معاهـــدة لندن سنة ١٨٤٠ حيث أعطى محمد على استقلالا داخليا كما حصل اسماعيل على فرمانين سنة ١٨٦٧ ، ١٨٧٣ أعطيت مصر بموجبهما مزيدا مـــن الاستقلال الذاتى أوشك أن يقترب من الاستقلال الكامل .

(٣) المؤسسات الحديثة : التى أزالت الفوارق بين المسلمين والنصارى - لقد بدأت هذه المؤسسات زمن الجدب الفكرى فى عهد محمد على فلـــم تتطبع بفكرة محددة - ولكن شهد عصر محمد على مزيدا من الحريـــة للنصارى والاجانب عموما (وصلت أول ارسالية تنصير الى مصر سنة ١٨١٥) وشهد عهدا سعيد واسماعيل مزيدا من فتح الباب للاجانب - وقـــد أزيلت الفوارق القانونية بين المسلمين والنصارى تماما بعد رفع الجزيـــة عن النصارى سنة ١٨٥٥ ودخولهم الجيش سنة ١٨٥٧ ثم انشئ أول مجلس نيابى وشارك فيه النصارى سنة ١٨٦٦ وفى ذلك الوقت كان يـــتم احلال تدريجى لقيادات مصرية محل القيادات التركية فى الجيـــــش والمناصب الادارية الكبرى وفى سنة ١٨٦٩ عربت الدواوين وفى سنـــة ١٨٨٣ أنشئت المحاكم الاهلية وعين بها قضاة من النصارى .

---

(١) ان صح التعبيـــر .

(٤) الفكرة الوطنية : وقد ظهرت لسببين :

× انتشار الافكار الوطنية فى أوربا بعد اجتياح نابليون لبلاد كثيرة منها ثم نشره لافكار الثورة الفرنسية فيها وكان نصارى الشام أول من تلقفوا هذه الافكار ودعوا اليها على أساس أن يكون لهم نصيب فى أية دولة قد تنشأ على أساس الوطنية ـ ثم ان فكرة فصل الدين عن السياسة لا تتعارض مع النصرانية ـ وفى عهد سعيد واسماعيل انفتحت أبواب مصر على مصاريعها أمام الشوام الذين طاردهم الحكم العثمانى وكان فتح أبواب مصر فى عهد اسماعيل جزءا من سياسته التى لخصها فى عبارة (سأجعل مصر قطعة من أوربا) وهكذا جاء الى مصر كثير من الشوام الذين بثوا سمومهم وسط المثقفين فى مصر وكانت مصر تعيش وقتها جوا من الحرية الفكرية وكان يصدر فيها عشرات الصحف يوميا .

وهناك رافد آخر للوطنية لم تصطدم بالدين فى البداية ـ فقد بدأها الطهطاوى [1] (وهو أزهرى) بتمييزه بين (أخوة الدين) و (أخوة الوطن) ثم ازدهرت الوطنية على يد الافغانى وعبدالله النديم ـ والحقيقة أن مفهوم الوطنية لدى هذه الفئة من المثقفين كان يختلف تماما عنه اليوم ويختلف أيضا عن الوطنية التى دعا اليها الشوام فقد دعا الاخيرون الى الفلسفات الغربية فى الاستعلاء الجنسى ووحدة المصلحة بين أبناء الوطن الواحد ـ بينما الوطنية بمفهومها الاول عاطفة وحماسة اكثر منها فلسفة ـ وهى أيضا فكرة غامضة يبدو أنها نشأت تحت ضغط الظلم الذى عانى منه المسلمون والنصارى سواء بسواء ثم ضغط الاحتلال وهو الذى دعا كثيرا من غير المسلمين الى صرف النظر مؤقتا عن أى خلاف دينى (كذا) لتفويت الفرصة على سلطات الاحتلال لاحداث الفرقة بين المصريين بعضهم بعضا ـ كما حدث أيضا أن كرر الانجليز والاقباط تهمة تعصب المسلمين مما جعل بعض المهزومين يدفعون (التهمة) بترديد العبارات الوطنية ـ وقد استمرت هذه الوطنية (الغامضة) حتى سنة ١٩١٩ وقد ذكتها أشعار البارودى وشوقى .

(١) كانت توجد دعوات وطنية مشابهة فى نفس تلك الفترة خارج مصر ففى تركيا مثلا دعا نامق كمال (١٨٤٠ - ١٨٨٨) الى الوطنية واعتبرها مرادفا للاسلام ودعا لتوحيد الوطن الاسلامى تحت قيادة الدولة العثمانية .

الانتفاضة العرابيـــة (١٨٨١ - ١٨٨٢)

لقد أدت اللبرالية الشديدة التى ميزت عهد اسماعيل الى السخط عليـه من بعض القوى - والى الطمع فى المزيد من اللبرالية من قوى أخرى .

- فقد سخطت القوى الكبرى الاوربية التى اعتبرت أن اسماعيل قد خرج عـن اطاره بفتوحاته للسودان والصومال واوغندا وارتريا وسعيه للقضاء علـى مملكة الحبشة - كما خافت تلك القوى من الصحوة الشعبية التى أجبـرت اسماعيل على جعل الحكم شورى [١] . وكانت الصحوة الشعبية تهـدد النفوذ الغربى الذى كان يحكم حلقاته حول مصر (شراء بيت روتشيلـد اليهودى لاسهم قناة السويس - رهن أراضى مديريات بأكملها وفاء لديـون مصـر) .
- وسخط على اسماعيل أيضا كل من أضارهم النفوذ الاوربى المتنامى وهم كبار موظفى الدولة [٢] وبعض الاقطاعيين الذين تضجروا من الضرائب التى فرضت عليهم من أجل سداد ديون مصر وأسس هؤلاء الموظفون والاقطاعيون (وكثير منهم اتراك) تنظيما سريا لهم [٣] (جمعية حلوان) أو (الحـزب الوطنى المصرى) كان له دور هام فى الاحداث بعد ذلك

---

(١) كان مجلس شورى النواب سنة ١٨٧٩ له سلطة البرلمانات الغربيــة (قراراته ملزمة) وقد افلحت القوى الاوربية فى عزل اسماعيل بعد ذلك بشهـور .

(٢) كان عدد الموظفين الاجانب ١٤٠٠ مقابل ٩٢٠٠ مصرى سنة ١٨٨١ .

(٣) من قياداته : شريف باشا - اسماعيل راغب باشا - سلطان باشا (الخائن) عمر لطفى باشا - شاهين باشا كنج - سليمان أباظة باشا .

- سخطت القوى الاسلامية على رهن اسماعيل لمقدرات مصر بيد الاجانب(١) وعلى الظلم وعلى ادخال اسماعيل لكثير من القيم المنافية للاسلام ـ وقد تمثلت هذه القوى في مجموعةالافغانى (الحزب الوطنى الحر منذ ١٨٧٩) (٢) والعلماء وبعض الاعيان .

وكان هناك سخط في الجيش بسبب اخفاق حملة فتح الحبشة (١٨٧٦) - وبسبب النظام الذى منع المصريين من الترقي وبسبب محاباة الضباط الشراكسة ـ وهكذا تأسس تنظيم سرى بالجيش (الحزب الوطنى الاهلى) اشترك فيه عرابى وزملاؤه .

---

(١) لقد خططت الرأسمالية العالمية لعملية اخطبوطية معقدة انتهت بايقاع مصر في دوامة الديون . أنظر عرضا مفصلا في : روبرت مابرو : تاريخ النهب الاستعمارى لمصر : الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٨٠) - وأيضا : بنوك وباشوات (كتاب الاهالى - ١٩٨٥) .

(٢) كان الافغانى يدعو للثورة ويخاطب الفلاح المصرى" هذا الفأس الذى تغرسه في الارض لا تفيد منه شيئا ـ أولى بك أن تغرسه في صدور ظالميك وكان الافغانى قد فكر في اغتيال الخديوى اسماعيل لكن الظروف لم تواته .

أما الحزب الوطنى نفسه فقد نشر بيانا عن أهدافه تضمن خمس نقاط هى (على التوالى) :

(أ) " اتخاذ الباب العالى ركنا يستند عليه في اعماله ويعتقد أن جلالة السلطان عبد الحميد مولانا وخليفة الله في أرضه وامام المسلمين ـ والحزب لا يريد قطع هذه الصلات والعلاقات ما دامت الدولية العلية في الوجود " لكن يؤكد أنه" يحافظ على امتيازاته الوطنية بكل ما في وسعه ويقاوم من يحاول اخضاع مصر وجعلها ولاية عثمانية" .

(ب) "يخضع للجناب الخديوى وهو مصمم على تأييد سلطته ما دامت احكامه جارية على قانون العدل والشريعة" مع " العزم الاكيد على عدم عودة الاستبداد والاحكام الظالمة التى اورثت مصر الذل"

(ح) يقبل الحزب باستمرار المراقبة الاوربية على الديون .

(د) يرفض الحزب اثارة القلاقل ولكنه يؤكد على حرية المطبوعات وتعميم التعليم .

(هـ) "الحزب سياسى لا دينى وهو مؤلف من رجال مختلفى الاعتقادوالمذاهب.

ويلاحظ أن التنظيمات السرية السابقة كانت على اتصال فيما بينها دائما حتى لقد اختلط الامر على بعض المؤرخين ـ وهناك من جمع بين عضوية اكثر من تنظيم (ومنهم عرابى نفسه) وفى النهاية ذابت التنظيمات بعضها فى بعض .

- وكان هناك سخط شعبى على مجمل الاوضاع ـ وعندما سمحت السلطة للفلاحين (سنة ١٨٥٤ فى عهد سعيد) بترك أراضيهم اذا أرادوا ـ تركت مئات الآلاف من الافدنة بل وأصبحت الاراضى الزراعية تعرف باسم (متروك) أو (مرغوب) .

وكان الخديوى اسماعيل يملك وحده اكثر من ثلث الاراضى الزراعية فى مصر (وبالضبط ١٫٩٦ مليون فدان) وكان اقاربه وخدمه يملكون مليون فدان أخرى وكان الاقطاعيون يملكون معظم الباقى .

وفيما بين ١٨٧٦ - ١٨٨٢ ارتفعت ديون الفلاحين المسجلة لدى المحاكم المختلطة من نصف مليون جنيه الى ٦ ملايين رهن مقابلها ٤٠٠ ألف فدان وقد أدت هذه الاوضاع فيما بعد الى سلسلة من الهجمات العنيفة قام بها الفلاحون على أراضى الاقطاعيين واستولوا على مساحات شاسعة منها (١) .

- وفى مقابل كل هذا السخط ـ كانت القوى العلمانية بدورها تطمع فى تغيير النظام والاتيان بنظام يعطى مزيدا من قوة الدفع للبرنامج العلمانى مع تقنين تلك اللبرالية ـ وكانت هذه القوى ممثلة فى التنظيم السرى المسمى مصر الفتاة وقد تأسس بالاسكندرية (١٨٧٩) وكان كثير من اعضائه من اليهود والموارنة وكان الافغانى على صلة ببعض اعضائه ـ وقد اعلن هذا التنظيم عن نفسه بعد ذلك واقترح برامج مفصلة تتضمن لبرالية كاملة .

---

(١) راجع : مصر للمصريين مائة عام على الثورة العرابية ـ مركز الدراسات بالاهرام ١٩٨١ . فصل للدكتور على بركات بعنوان : حركة المطالبة بالاراضى فى الثورة العرابية وفصل آخر بعنوان : هجوم الفلاحين واستيلائهم على الاراضى عنوة .

وبسبب تفاقم مشكلة الديون ـ توقفت مصر عن السداد اعتبارا من سنة ١٨٧٦
د أت المراقبة الانجليزية الفرنسية على المالية المصرية وسعى الاوربيون لاعلان
لاس مصر ـ لكن القوى الاسلامية بل والعلمانية تدخلت وعرضت مشروعا لانقاذ
ر ـ لكن الاوربيين كانوا قد أخذوا زمام المبادرة وافلحوا فى عزل اسماعيل
ولية توفيق .

بعد ذلك تطورت الاحداث بسرعة وحدثت الانتفاضة الشعبية بالكيفية
معروفة وأحس الاقطاعيون أن الزمام سيفلت بما يهدد سيطرتهم هم الاخرين
نسحبوا بهدوء من الحركة أو عملوا على تخريبها من الداخل وخيانتها ـ
ى البداية حاولوا رشوة عرابى فرفض ـ لكنهم نجحوا مع قادة عسكريين كثيرين(١)
هكذا عندما بدأ الانجليز المعركة الفاصلة عند التل الكبير (٢) كان قادة
خيالة (المسئولون عن الانذار المبكر) قد افسحوا الطريق للانجليز وكان
خائن الحقير على خنفس يدل الانجليز وبعد ذلك سلمهم مفاتيح القلعة .

* * *

لقد تعددت التحليلات عن أسباب فشل الحركة العرابية وركزت تحليلات
ليسار على أن الجناح الاقطاعى فى قيادة الحركة لم يكن ليغامر بامتيازاته
زاء المد الشعبى ـ كما ركزت تحليلات أخرى على عدم اتقان عرابى فن الثورة
فلم يردم القناة وخدعه دى لسبس كما أنه لم يستطع عزل الخديوى وقت
لتفاف الجماهير حول عرابى) بالاضافة طبعا الى أن تلك المرحلة كانت تمثل
روة المد الاستعمارى فى العالم .

---

(١) كان سلطان باشا هو المبادر الاول بتقديم الرشاوى ثم صار أهم مرشد للانجليز فى حملتهم لاعتقال الثوار (حيث اعتقل ثلاثون الفا) وبعد ذلك طالب ـ بصفاقة منقطعة النظير ـ بأن يدفع له الانجليز عشرة الاف جنيه كأتعاب.

من الجدير بالذكر أن سلطان باشا كان يملك ١٣ الف فدان ـ وان ابنته (هدى شعراوى) صارت زوجة (على شعراوى) احد رفيقى سعد زغلول فى الوفد ـ وهى مؤسسة ما يسمى بالحركة النسائية فى مصر.

(٢) عندما كانت المعركة شعبية (فى الاسكندرية وكفر الدوار) لم يكن ممكنا حدوث خيانات اما وقد انتقل الانجليز الى الميدان الشرقى (معركة التل الكبير) فقد أدت الطبيعة الصحراوية للمنطقة الى تعذر تنظيم مواجهة شعبية للانجليز.

ان كل التحليلات السابقة صحيحة لكنها جزئية - ان السبب الرئيسي للفشل هو الافتقار الى نظام عقائدى يقود الحركة (فضلا عن تشعب مداخل من أسهموا فى الحركة وتشعب أهدافهم النهائية) - لقد أدى الافتقاد الى عقيدة الى :

(أ) عدم تحديد العدو بدقة (وبالتالى اصبح الاقطاعيون جزءا من الحركة أو بمعنى آخر فقد اصبحت الحركة مخترقة من نفس العدو الذى تحاربه) ايضا لم يحدد عرابى موقفه من الخديوى ولم يستغل تردد الخديوى لتصفيته - بل لقد هتف بحياة الخديوى فى ميدان عابدين .

(ب) عدم الاستفادة من الفرصة الفريدة عندما انطلقت القوة الجماهيرية - وكان يمكن اعدام الخونة فى هذا الوقت - وعندما كان الشعب فى قمة حيويته (الاعتداء على الاقطاعيين والاجانب والحماسة الفائقة فى التصدى للبوارج الانجليزية فى الاسكندرية واسهام النساء فى القصف المدفعى) - كان عرابى يدعو للهدوء وتجنب الاعتداء على الاجانب.

(ج) مع ولاء العرابيين القاطع للدولة العثمانية لم يتفهموا طبيعة الضغوط التى جعلت السلطان يصدر منشورا بعصيان عرابى - ولو كان هناك وعى شعبى كان يمكن تجاهل المنشور لكن ما حدث هو العكس وفسر عرابى نفسه هزيمته فى المعركة بالخور الذى تسلل الى الجنود لانهم اعتبروا أنفسهم " عصاة على السلطان مخالفين لكتاب الله وسنة رسوله" بتعبير عرابى .

وهناك سبب آخر للفشل تمثل فى طبيعة القيادة نفسها وبالذات عرابى :

(أ) فلم يكن عرابى بالذى يستحق أن يكون قائدا - فهو الى جانب أنه عديم الخبرات تقريبا لم يكن بالثورية الكافية وكان زملاؤه اكثر منه ثورية - ان رجولة الاميرألاى محمد عبيد وصلابته ستظل أبدا مضربا للامثال - أيضا الاميرألاى سليمان سامى الذى اعدمه الانجليز - الشيخ حسن العدوى - عبد الله النديم . . . . الخ .

ب) كان عرابى يمثل المصرى فى فطرته وطيبته - لكن الطيبة فى مفهوم السياسة ليست سوى السذاجة ولذلك خدعه دى لسبس كما كان عرابى يصرح بأنه لن يكون البادئ بالضربة الاولى (وهو ما صرح به عبد الناصر أيضا سنة ١٩٦٧) - وفى النهاية سلم عرابى نفسه وسلاحه (اعتمادا على شرف انجلترا وشرف كل انجليزى) على حد تعبيره وهذا موقف كفيل بنسف تاريخه النضالى من أساسه - ولكن على العموم عاد فى نهاية حياته وأعرب عن ندمه - وصدر مذكراته بالآية (ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم) [1] .

ج) بسبب عدم ثورية عرابى فقد خضع لقانون رد الفعل وكانت الاحداث هى التى تملى عليه القرارات ولم يأخذ المبادرة .

ترد هذه الاية فى مذكرات عرابى التى نشرتها دار الهلال سنة ١٩٥٣ - بل المثير للسخرية أن محمد نجيب صدّر مذكرات عرابى قائلا " ولا أشك فى أن ضمنته من وقائع وطنية واتجاهات قومية (؟ !) سيكون له أثره المحمود فى هذا عهد الجديد " .

قارن هذا التزييف بما نقله ساطع الحصرى ، عن رأى عرابى فى القومية - لقد ف عرابى فكرة تأليف دولة عربية بأنها " ضياع للاسلام عن بكرة أبيه فضلا عن أنه ون خروجا على طاعة الله ورسوله " .

ساطع الحصرى - ما هى القومية - دار العلم للملايين بيروت ١٩٥٩ ص ٢٠١)

الاحتلال الانجليزى[1]: تبلور اتجاهين سياسيين (١٨٨٢ - ١٩١٩)

حدث ركود فى العمل السياسى بعد حركة عرابى بسبب جو الارهاب الذى فرضه الاحتلال الانجليزى على البلاد ـ ولكن كان قد سبق ذلك الركود انفتاح سياسى وفكرى فى عهد اسماعيل وأتاح هذا الفرصة للافغانى أن يكوّن مدرسة فكرية فى مصر كانت تدعو الى العدل والشورى فى الحكم وطرد النفوذ الاجنبى وتحقيق الوحدة الاسلامية بقيادة الدولة العثمانية ـ اذن تحولت الحركة الاسلامية الى حركة سياسية أكثر منها اصلاحية اجتماعية وذلك بتأثير تزايد النفوذ الاجنبى وكان دور الازهر فى تضاؤل بسبب انكفاء الازهريين على مناهج تعليمية بالية وقضايا أكاديمية جدلية ـ أى أن دور الازهر الذى أصابه الشلل منذ عهد محمد على لم يتمكن الازهريون من استرداده فى فترة الانفتاح الفكرى زمن اسماعيل فقد كانت المرحلة قد تجاوزتهم ـ كما أن تعيين شيخ الازهر كان يتم وفقا لارادة الدولة منذ عهد محمد على مما حجم دور الازهر.

وهكذا استطاع الافغانى ومدرسته أن يكون وقتها ما يمكن أن نعتبره الاتجاه الاسلامى ـ ونظرا لعدم أصالة كثيرين من أعضاء هذا الاتجاه واختلاط المفاهيم لديهم فسنستخدم تعبير الاتجاه المحارب للاستعمار.[2]

ذلك أن الاحتلال الانجليزى قد أدى الى بلورة اتجاهين سياسيين فى مصر : محارب للاستعمار ـ ومهادن أو ممالئ له .

---

(١) لم يحكم الانجليز مصر حكما مباشرا بسبب التبعية القانونية للدولة العثمانية وبسبب منافسة دول أوربا الاخرى (حتى ١٩٠٤ تاريخ الوفاق الودى) واكتفى الانجليز بتعيين مستشارين فى الوزارات يقدمون (النصح)

(٢) ان محاولة اصدار الاحكام على أشخاص هذا الاتجاه قد تقودنا الى جدل عقيم . ان هذه الشخصيات لم تسلم من مؤثرات عصرها .

وقد اتخذ الاتجاه المحارب للاستعمار عدة وسائل مثل انشاء الحزب الوطنى والتعبئة الجماهيرية من خلال الصحف مثل "العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى" التى شرحت آيات الجهاد والابتلاء ولذلك صادرها الانجليز (١٨٨٤) قبل أن تكمل ستة أشهر من عمرها [١] - أيضا" مجلة الاستاذ" التى أصدرها عبد الله النديم وأوقفها كرومر فورا بضغطه على حكومة مصر وتهديده بأن قوات الاحتلال الانجليزى ستعتقل النديم اذا لم يرحل عن مصر - كذلك عقدت المؤتمرات ونظمت المظاهرات وتشكلت التنظيمات السرية المتفرعة عن الحزب الوطنى وقام أحد هذه التنظيمات بتنفيذ أول عملية اغتيال سياسى فى مصر الحديثة (اعدام بطرس غالى سنة ١٩١٠).

وكان حادث طابا سنة ١٩٠٦ [٢] دليلا على تماسك الشعب خلف الاتجاه الاسلامى [٣] وكانت له عواقب بعيدة الاثار الا أن نتيجته العاجلة تمثلت فى استقالة كرومر الذى كان يرسل التقارير الى حكومة (جلالة الملك) بأن الاسلام قد انتهى أمره فى مصر .

---

(١) وقد أبعد الافغانى عن مصر بمشورة القنصل الانجليزى على الخديوى توفيق سنة ١٨٨٩ وكانت تهمته أنه يرأس (جمعية من الشبان ذوى الطيش تجتمع على فساد الدين والدنيا) .

(٢) خلاصته أن الانجليز كانوا يريدون ضم سيناء لمصر لتأمين القناة وحدثت مناوشات عند طابا بين القوة الانجليزية والقوات العثمانية وفى فترة المفاوضات استطاع الحزب الوطنى تعبئة الشعب ضد ضم سيناء لمصر وقال ان حدود مصر مع الدولة العثمانية هى حدود ادارية محضة .

(٣) ولذلك لا تجرؤ الكتب المدرسية على ذكر هذا الحادث رغم اتفاق المؤرخين على خطورته في تاريخ مصر - ولا يخفي العلمانيون غيظهم الشديد من هذا الحادث - كما أن ضيق أفقهم لم يسمح لهم بتفهم موقف الحزب الوطنى فيستغرب على الدين هلال مثلا (ولعل ذلك يثير مفارقة تاريخية فى غاية الغرابة فالحزب الذى فرس كراهية الاحتلال بين المصريين وتحدث قائده مصطفى كامل بأروع الكلمات وأعذبها فى حب مصر لم يصل بفكره (كذا) الى الاستقلال التام فقد استخدم قادته حجة السيادة العثمانية على مصر لاثبات بطلان الاحتلال الانجليزى) السياسة والحكم فى مصر ص ٨١

يقول مصطفى كامل فى كتابه (المسألة الشرقية) " وواجب المسلمين أن يلتفوا أجمعين حول راية الخلافة الاسلامية المقدسة وأن يعززوها بالاموال والارواح ففى حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم وفى بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الاسلامية " كما وصف مصطفى كامل ضرورة بقاء الدولة العثمانية بأنه " من أول الامور الضرورية اللازمة لسلامة بنى الانسان " أما محمد فريد فكان مقياس الوطنية عنده هو مدى " تأييد روابط التابعية للدولة العثمانية وترك فكرة استقلال مصر استقلالا تاما "
ووصف الابقاء على الدولة العثمانية بأنه " ابقاء على الاسلام نفسه " ووصف اقبال المصريين على الاكتتاب لمساعدة الدولة العثمانية فى حربها ضد اليونان سنة ١٨٩٧ بأنه دليل على " زيادة الاحساسات الوطنية عند المصريين " ـ ورغم أن الحزب الوطنى ضم فى عضويته بعض النصارى فقد اعتبره كرومر حزبا دينيا اسلاميا (١) .

ولكن كرومر يصف الاتجاه المحارب للاستعمار بدقة فيقول (١٩٠٦) " اذا قلنا ان الحركة الوطنية المصرية الحالية ليست الا حركة الى الجامعة الاسلامية ـ لم يطابق قولنا الواقع من كل الوجوه ـ ولكن لا ريب فى كون هذه الحركة مصبوغة صبغا شديدا بصبغة الجامعة الاسلامية " وقال انه " توجد حركة وطنية وأخرى اسلامية لكنهما ممتزجتان بحيث لا يسهل على الانسان أن يقول أين تبتدئ احداهما وتنتهى الاخرى "

أما الاتجاه المهادن للاستعمار (مثل محمد عبده (٢) وبخاصة فى النصف الثانى من حياته) أو الممالئ له (مثل الاقطاعيين) فيمكن أن نقسمه الى خمس نوعيات :

---

(١) لقد انفصل النصارى عن الحزب الوطنى بعد أقل من عام من انشائه وكونوا الحزب المصرى احتجاجا على مقالات الشيخ عبد العزيز جاويش .
من الجدير بالذكر أن الصحف القبطية اطلقت على ويصا واصف (الذى انضم للحزب) يهوذا الاسخريوطى باعتباره خائنا للطائفة .
(٢) لجأ محمد عبده الى كرومر ليحميه من الخديوى عباس الذى صفى الاوقاف ووقف ضد مشروع محمد عبده للتجديد فى الازهر .

× فئات لم تكن استعمارية بطبعها ولم تزل ضد الاستعمار ولكن تحت الظروف الصعبة رأت أنه لا جدوى من المقاومة وينبغي التدرج في الاصلاح (مثلا اقتراحات محمد عبده بأن يبدأ الاصلاح من التعليم ودعوته لمحاربة البدع وشرك القبور وكذلك العدل في توزيع الثروة والشورى في الحكم ودعا أيضا الى التخلص من عقيدة الجبر ومن المذهبية وطالب ببعث روح الجماعة) .

× فئة الاثرياء الذين ظهروا بعد انهيار النظام الاحتكاري لمحمد علي - وهؤلاء شكلوا حزب الامة سنة ١٩٠٧ [1] (والذي تحول معظم أعضائه الى الوفد بعد ذلك مثل فخري عبد النور وسليمان أباظة وعلي شعراوي) وقد اقتنع هذا الاتجاه بأن الانجليز هم المسيطرون وأنه من الاوفق لمصالحهم الذاتية أن يتفاهموا مع المستعمر .

× المثقفون الذين آمنوا بالليبرالية وقد شكلوا جناحا في حزب الامة لم يكن سوى واجهة لتبرير الاتجاهات الاستعمارية للحزب - ومن أمثلتهم لطفي السيد الذي رأس تحرير صحيفة حزب الأمة المسماة (الجريدة) وقد وصف لطفي السيد فكرة الجامعة الاسلامية بأنها (أوهام لا سبيل الى تحقيقها) ودعا الى (الأحرى بالمصري أن يفكر في نفسه أولا وفي مصلحته قبل كل شيء والتي يتفق فيها سائر المصريين ولا يشاركهم فيها غيرهم من المسلمين) .

---

(١) بسبب أزمة طابا سارع الانجليز بافساح المجال أمام العلمانيين وهكذا عين سعد زغلول وزيرا للمعارف (اكتوبر ١٩٠٦) وأسست الاحزاب العلمانية دفعة واحدة : حزب الامة (سبتمبر ١٩٠٧) الحزب الوطني الحر (يوليو ١٩٠٧) الحزب المصري (سبتمبر ١٩٠٧)
لقد اتفقت جميع هذه الاحزاب في رفضها جلاء الانجليز ورفضها للدستور!! "لأن الطفرة محال" حسب حزب الامة (بينما كان الحزب الوطني يصر على الدستور) ودعت هذه الاحزاب الى أن تقتصر الانتخابات لمجلس الشورى على كبار الملاك بينما دعا الحزب الوطني أن تدعى كل الجماهير للانتخابات

وهذا الجيل هو أول جيل مصرى يعتنق الوطنية بمفهومها الغربى - وقد كان نظام التعليم الذى أرساه القس الانجليزى دانلوب ثم افتتاح الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨ عاملا على أمداد هذا الاتجاه بالافكار وبكثير من المهزومين المنبهرين بالثقافة الغربية والذين كانوا يرددون ألفاظا من قبيل (الامم المتمدنة) و(الرقى) وغير ذلك من مظاهر انهزامهم - وفى هذا الوقت أيضا بدأت الدعوة الى العامية (١)

وكان المثقفون اللبراليون يتفقون فى مهاجمتهم للجامعة الاسلامية وفى دعوتهم للاصلاح التدريجى بدلا من مهاجمة الاستعمار (بلا طائل) على حد قولهم .

وقد وصفهم كرومر بدقة (مصر الحديثة جـ ٢ ص ٢٢٨ - ٢٢٩) "ان المجتمع المصرى فى مرحلة الانتقال والتطور السريع وكانت نتيجته الطبيعية أن وجدت جماعة من الافراد هم مسلمون ولكنهم متجردون عن العقيدة الاسلامية والخصائص الاسلامية وان كانوا غربيين فانهم لا يحملون القوة المعنوية والثقة بأنفسهم وان المصرى الذى خضع للتأثير الغربى فانه وان كان يحمل الاسم الاسلامى لكنه فى الحقيقة ملحد وارتيابى والفجوة بينه وبين عالم أزهرى لا تقل عن الفجوة بين عالم أزهرى وبين أوربى "

× النصارى الذين كانوا قد دللوا فى عهد اسماعيل - وقد أثنى أحد كتابهم (توفيق اسكاروس افندى) على اسماعيل وبلغ به التفاؤل أن قال (ولئن لم يحن الوقت الذى يقيم فيه الاقباط تماثيل ذهبية للعاملين المخلصين ..) (٢)

---

(١) يمكن تتبع الدعوة الى العامية من سنة ١٨٨١ على الاقل لكنها كانت جهودا هزيلة .

(٢) توفيق اسكاروس : نوابغ الاقباط ومشاهيرهم فى القرن التاسع عشر جـ ٢ ط ١٩١٣ ص ٦٥ .

وكان الاقباط قد تمتعوا بالامتيازات الاجنبية قبل مجيء الاحتلال عن طريق اكتساب جنسيات دول أوربا وعملوا قناصل لهذه الدول في مصر - وجاء الانجليز فأبعدوا الاقباط عن المناصب[1] وأحلوا محلهم نصارى الشام فلم يكن الانجليز يثقون في الاقباط كما أن الانجليز أرادوا تصفية الامتيازات الاجنبية غير الانجليزية في مصر والتي كان يتمتع بها الاقباط أكثر من غيرهم - وقد كره الاقباط الانجليز بسبب مؤسسات التنصير المعادية لمذهبهم - وكانت هذه الارساليات توجه نشاطها للاقباط بعد فشلها أمام المسلمين - كذلك لم يركن الاقباط للانجليز بسبب (انهم تحققوا أنه ان عاجلا أو آجلا سيصل الانجليز الى تسوية مع الوطنيين) بتعبير ألبرت حوراني .

ولذلك أحس الاقباط أن الانجليز قد غبنوهم وحاولوا استغلال الصراع بين الخديوي عباس والانجليز فتقربوا للخديوي وطلبوا عقد مؤتمر بأسيوط لاعلان بعض مطالبهم - ويبدو أن الانجليز شجعوا من وراء الكواليس عقد هذا المؤتمر لكي ينفذوا سياستهم المشهورة في الايقاع بين أهل الوطن الواحد ثم التدخل بعد ذلك بدور المصلح بينهما - وقد عقد هذا المؤتمر سنة ١٩١١ في فترة تميزت بتزايد النشاط السياسي (بعد حادثي طابا ودنشواي سنة ١٩٠٦ وانشاء الاحزاب سنة ١٩٠٧ واعدام بطرس غالي سنة ١٩١٠) وقد أشرف على المؤتمر مرقص حنا وسينوت حنا وتوفيق دوس (وقد صاروا من قيادات الوفد بعد ذلك) وقام مطران اسيوط بافتتاح المؤتمر بنفسه - واقتصرت مطالب المؤتمر على تحقيق بعض الامتيازات للاقباط والمطالبة بجعل يوم الاحد عطلة لهم ودعا المؤتمر للوطنية - وقال أحد الخطباء" ألا فلنجعل الوطنية دينا عاما للمصريين يشترك المصريون في آداء واجباته المقدسة فيلتفون حوله خاشعين" .

وفي نفس العام (١٩١١) عقد "المؤتمر المصري" للرد على المؤتمر القبطي واشترك فيه علمانيون واسلاميون لكن العلمانيين هم الذين وجهوا المؤتمر واتهموا

---

(١) كان الاقباط في مطلع هذا القرن يشغلون ٤٥٪ من وظائف الحكومة (سميرة بحر : الاقباط في الحياة السياسية المصرية دكتوراه من جامعة القاهرة ١٩٧٧ ص ٧٦٠) .

الاقباط بأنهم (وهم الاقلية الضعيفة تذرعوا بمطالبهم حتى يصلوا الى معونة انجلترا المسيحية الى أن يكون لهم فى مصر حق السيادة على الاكثرية الاسلامية العظمى) ولكن أحد قادة المؤتمر أكد (فليكن مبدؤنا لا وطن للدين ولا دين للوطن) .

وهكذا يتضح أن أقباط مصر لم يكونوا ضد الاستعمار كما أنهم لم يكونوا معه [1] ـ واقتصر موقفهم على ما هو منطقى بالنسبة لهم ـ أى انتهاز تلك الفرصة التاريخية لزيادة مكاسبهم ولنشر الفكرة الوطنية .

× المثقفون الذين لم يكن يعنيهم ما يجرى فى مصر ـ ذلك أن السلطان عبد الحميد قد ضغط على من يشوشون على حكمه ـ ففر النصارى الى فرنسا والمسلمون الى مصر ـ وقد أنشأ الاخيرون (الجمعية اللامركزية) وكان أبرز أعضائها عبد الحميد الزهراوى ـ الكواكبى ـ رشيد رضا ـ رفيق العظم ـ محب الدين الخطيب وكانوا يدعون الى نقل الخلافة للعرب [2] والى وطنية عربية عاطفية مشابهة للوطنية المصرية العاطفية لدى مصطفى كامل وقد عبرت عنهم صحيفة المنار وأكثروا من استخدام تعبيرات : العروبة / الاسلام / الرابطة الشرقية .

أما النصارى فقد أنشئوا (الجمعية الوطنية العربية) فى باريس سنة ١٨٩٥ ودعوا للعروبة على أساس الافكار الغربية ـ وأصدر نجيب عازورى كتابه (يقظة الامة العربية) سنة ١٩٠٥ فى باريس وفى سنة ١٩١٣ عقدوا مؤتمرا عربيا حضره مندوبون عن الجمعية اللامركزية .

* * *

---

(١) باستثناء الاقطاعيين والمثقفين العلمانيين وكانت تمثلهم جريدة مصر التى دعت الى " التسبيح بحمد الاحتلال الانجليزى " .

(٢) ان هؤلاء المثقفين كانوا ـ فى التحليل الاخير ـ يعملون لحساب الانجليز ـ وقد اتهمهم مصطفى كامل (جريدة اللواء ٤ / ١ / ١٩٠٠) بأنهم " يسعون لأجل مملكة وتأسيس خلافة عربية تكون العوبة فى ايدى احدى الدول الاجنبية وتسليم زمامها الى أحد المسلمين الفاقدين الاحساسات الاسلامية "

ثـورة ١٩١٩

مقدمات الثورة :

لقد ربط جميع المؤرخين بين اندلاع أعمال العنف الثورى فى مـــارس ١٩١٩ وبين انتهاء الحرب العالمية الأولى ومطالبة الشعب المصـــــرى بالاستقلال طبقا لوعود الانجليز قبل الحرب - ولا ريب أن هذا الربـــــط يتغاضى عن شوط طويل كان قد قطع بالفعل فى طريق الثورة - اذ أن تسارع وقع الأحداث فى مصر بعد حادث طابا سنه ١٩٠٦ وكفاءة الحزب الوطـــنى فى التعبئة الجماهيرية قد أظهر أن ثورة فى مصر قد بدأت فعلا - وهـــو ما تأكد من الحوادث المتتالية :

١ - فقد كانت مصر تعج بالتنظيمات السرية المتفرعة عن الحزب الوطـــنى - فعند اغتيال بطرس غالى (١٩١٠) كشفت التحقيقات عن وجـــــود ٨٥ تنظيما سريا [1] .

٢- وعندما غزت ايطاليا ليبيا تمرد الضباط الاسلاميون بالسلوم [2] (١٩١١) وقاموا بتدريب ٤٠٠٠ ليبى كما قاموا بتهريب القادة العسكريـــين الأتراك عبر الاراضى المصرية الى ليبيا - وعند اعلان الحمايـــــة الانجليزية على مصر (١٩١٤) اشترك هؤلاء الضباط مع اخوانهـــم الليبيين فى الهجوم على مصر لتحريرها ، فيما عرف تاريخيا باســـم الحملة السنوسية (وبسبب ذلك حشد الانجليز ٢٠٠٠٠٠ جنـــدى)

٣- رفض الجنود المصريون محاربة القوات العثمانية عند محاولتها عبـــور القناة عند الدفرسوار لتحرير مصر [3] .

---

(١) راجع : محمود متولى : مصر وقضايا الاغتيال السياسى ج ١ ص ١٠٢ دار الحرية ١٩٨٥

(٢) بقيادة محمود لبيب (صار وكيلا للاخوان فيما بعد وهو مؤسس تنظـيم الضباط الاحرار) وصالح حرب (صار رئيسا لجمعية الشبان المسلمـين فيما بعد) .

(٣) عن موقف الرأى العام المصرى المصر على التبعية للدولة العثمانية غداة الحرب - راجع : زكريا سليمان بيومى : الحزب الوطنى (١٩١٢ -١٩٥٣) ماجستير فى التاريخ من جامعة عين شمس ١٩٧٤ ص ١٤٠

٤ـ بعد اعلان الحماية وقعت عدة محاولات لاغتيال السلطان حسين لأنه ارتضى أن تعينه دولة مسيحية (محاولة محمد خليل فى ابريل ١٩١٥ وقد حوكم وأعدم ـ محاولة فى قصر رأس التين لنسف موكب السلطان بكامله ـ محاولة خدم قصر السلطان احراق القصر على من فيه ...) .

٥ـ كما شهدت الاعوام السابقة لثورة ١٩١٩ سلسلة من عمليات الاغتيال المنظم للجنود الانجليز وبالذات فى حى شبرا (حدث ٥٠ اغتيال أو محاولة اغتيال فيما بين ١٩١٥ وتصريح فبراير ١٩٢٢) .

٦ـ بل ان الخديوى عباس عند ما مال للانجليز فى أخريات أيامه أصبح هدفا للاغتيال فى عدة مؤامرات أهمها ما عرف باسم قضية المؤامرة الثورية (أغسطس ١٩١٢) والتى اتهم فيها محمد فريد والشيخ عبد العزيز جاويش بالتحريض على قتل الانجليز والخديوى ورئيس الوزراء واللورد كتشنر (المعتمد البريطانى) .

٧ ـ ثورة الرديف (يناير ١٩١٦) حيث خرجوا من ثكنات عين شمس وحاصروا قصر عابدين رغم الاحكام العرفية ـ وفى مرحلة لاحقة حدث صدام دموى مع الشرطة .

٨ـ ثورات العمال المتكررة : ضد الانجليز (١٣/٨/١٩٠٩) بقيادة " الجمعية السرية لبؤساء السكك الحديدية" وثورتهم فى مارس ١٩٠٩ ضد قانون المطبوعات وثورتهم فى يوليو ١٩٠٩ ضد قانون النفى الادارى وفى سبتمبر ١٩١٤ ضد قانون الرقابة على الصحف وفى ١٩١٨ ضد قانون التشرد وعند اعلان الحماية .

٩ـ اضراب ١٢ ألف أزهرى فى يناير ١٩٠٩ والصدام مع السلطة واستقالة شيخ الازهر حيث طالب الازهريون باعطاء العلماء مكانهم اللائق وانتخاب موظفى الازهر عند تعيينهم .

الثـــورة

عند ما وضعت الحرب العالمية أوزارها فكر الأمير عمر طوسون فـــى تأليف وفد ينوب عن الشعب المصرى لبحث موضوع استقلال مصر أمام مؤتمـــر الصلح (المعنى باعادة ترتيب الاوضاع فى العالم بعد الحرب) وعرض عمـــر طوسون الفكرة على رئيس الوزراء الذى أشار عليه بعرضها على سعد زغلـــول عضو البرلمان وهو ما تم فعلا (اكتوبر ١٩١٨) حيث رحب سعد زغلول بالفكرة - لكن السفير الامريكى نصح سعدا بالذهاب الى انجلترا مباشرة - وكـــان هذا يعنى استبعاد عمر طوسون بسبب ولائه للدولة العثمانية وكراهيتـــه للانجليز - أما سعد زغلول فكان ينتمى الى "مدرسة ذات تاريخ قديم فـــى التفاهم المباشر مع الانجليز" (١) .

وبعد حديث ذليل مع المندوب السامى (٢) (١٣/١١/١٩١٨) (أصبح الآن عيدا للجهاد الوطنى) ! رفض الانجليز سفر الوفد .

فحتى ذلك الوقت كان الانجليز يقسمون القوى فى الساحة المصريـــة الـــى :

- المعتدلون وهم أعضاء الحكومة وكبار الاقطاعيين والمستفيدون مـــن التبعية .
- المتطرفون الذين أصبح يمثلهم الوفد .

وكان الانجليز يعتقدون بامكانية التفاهم مع القوى الاولى حيـــث استعدادها للتهادن اكبر (طرحوا مشروع استقلال ذاتى فى اطار الحماية) - لكن الانجليز لم يكونوا يضمنون استمرار هذه القوى - وعلى اثر تقرير مـــن القائم بالاعمال الانجليزى فى مصر الى وزارة الخارجيـــــــــة

---

(١) عبد العظيم رمضان : الحركة الوطنية (١٩١٨-١٩٣٦) ص ٨٧

(٢) فى هذه المقابلة عرض سعد زغلول اعطاء بريطانيا حق احتلال قناة السويس وعقد معاهدة تحالف مع بريطانيا دون سواها وتقديم جنود مصريين لتنفيـذ المشاريع الانجليزية وابقاء المستشار المالى الانجليزى .

فى ٧ مارس (١) بادر الانجليز باعتقال سعد وزملائه فى ٨ مارس ليصنعوا منه بطلا (على غرار ما جرى للقوات الفرنسية امام أتاتورك وصناعته كبطل فيما بعد) (٢) .

وهكذا بدأت الشرارة الأولى فى الثورة باضراب طلبة الحقوق (٩مارس) ورغم تحذير عبد العزيزفهمى للمتظاهرين "ان المسألة ليست لعب أطفال - دعونا نعمل فى هدوء ولاتزيدوا نار الغضباشتعالاعند القوم" (٣) رغم ذلك فقد انفجر الموقف فى ١٠ مارس بمظاهرات طلبة الازهر (حيث تشتبك المجموعات الصغيرة لهؤلاء الطلبة الاشداء المكونة من مصريين واتراك وهنود وعرب وافغانيين وجاويين ومراكشيين ... الخ مع بعضهم بعضا فى العادة فى منازعات ومشاحنات ولكنهم مستعدون دائما لأن يوحدوا صفوفهم ضد السلطات المسئولة) (٤) ثم تطورت الاحداث لتصنع أروع مشاهد التخريب والدمار على امتداد الحقبة العلمانية كلها - فمن المظاهرات والاضرابات تصاعدت الاحداث الى تعطيل المواصلات واقتلاع الخطوط الحديدية والتلغرافية الى قتال الشوارع الى مهاجمة مراكز الشرطة وتدمير الكبارى والاستيلاء على السلطة واعلان الاستقلال (زفتى - المنيا) بل ان اول استخدام للطائرات الحربية على ارض مصر كان لقمع الثورة فى اسيوط ورد الانجليز باحراق قرى باكملها (العزيزية البدرشين - الشبانات - نزلة الشوبك) أو بالمجازر الجماعية (حيث قتل ١٠٠ فرد فى قرية واحدة هى ميت القرشى) .

---

(١) مؤسسة الاهرام - مركز الوثائق والبحوث التاريخية لمصر المعاصرة : ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩ تقرير تشيتام ص١٨ حيث اعتبر ان سعد زغلول يضعف و(أنه فقد السيطرة على طبقة المثقفين وأنه يمضى وقته فى لعب القمار) .

(٢) وكما فى حالة أتاتورك (أبو الترك) فقد دعيت امرأة سعد (أم المصريين)

٣) د . محمود متولى : ثورات الشعب المصرى - مكتبة المعارف ١٩٨١ ص١٨٦

كان عبد العزيز فهمى أحد رفيقى سعد زغلول فى اللقاء مع المندوب السامى

(٤) مؤسسة الاهرام : م.س.ذ من مذكرة وكيل الخارجية البريطانية ص ٢٥٩

المهم - أنه مع تفاقم الثورة (حيث رفعت بعض القرى المصرية العلم العثماني كما رفع العلم العثماني على مركز شبرا) - فحدث تطوران :

١- أصبح الانجليز اكثر ادراكا للقوى السياسية حيث لم يعد هناك قوى معتدلة بل هناك قوتان :

أ - المتطرفون (أى العلمانيون ويمثلهم الوفد)

ب - المتطرفون غير المسئولين (الاسلاميون)

ولم يعد هناك من يستطيع تفريغ الثورة سوى (المتطرفين)

٢- انضم الاقباط للثورة حفاظا على كيانهم (ان الحفاظ على الكيان هو المفسر الوحيد تقريبا لسلوك الاقباط على امتداد تاريخ مصر الحديث كله) .

وبمقتضى الادراك الانجليزى الجديد " رأت السلطات العسكرية البريطانية أن تستعين بالوفد لاطفاء الثورة " (1) واستدعى الجنرال واطسن اعضاء الوفد (المعتقلين) لمقابلته (٣/١٦) فنصحوه " بتأليف وزارة تعطى من الترضيات ما يرضى الشعب حتى تستطيع أن تقوم بأعمال الظرف الحاضر" وهكذا لم يجد الانجليز استعدادا سريعا من الوفد لتفريغ الثورة فبدؤا خطة ستستغرق بعض الوقت .

فى ٣/١٨ حدث " انقلاب شامل فى السياسة البريطانية" تمثل فى :

— ضرورة القمع وتشكيل حكومة قوية .

— تكون الحكومة البريطانية " مستعدة لبحث أية مسائل مع الوزراء المصريين ويمكن لهؤلاء أن يصحبوا معهم وكلاء عن القضية الوطنية حتى ولو كانوا من المتطرفين " (2)

وهكذا فى ٣/١٩ عين أللنبى مندوبا ساميا بمصر (وهو الذى كان بارعا فى استخدام أقصى درجات العنف مع أقصى درجات الملاينة) .

---

(١) عبد العظيم رمضان م.س ص ١٤٥

(٢) م س ذ نقلا عن برقية المندوبين الانجليز فى مؤتمر الصلح بباريس .

وبالنسبة للاقباط فقد ذكر سعد زغلول فى مذكراته أنه عندما دعا جورجى خياط بك للمشاركة فى الوفد فانه " قبل أن يقبل استفهم منى عما يكون من شأن الاقباط بعد الاستقلال " - ولم يشارك الاقباط بالطبع فى الثورة منذ بدايتها لكنهم على الاقل اخذوا درسا مما حدث للأرمن واليونانيين (١) ونظرا لأن العنف تصاعد بصورة مفاجئة جدا - فلم يستطع زعماء الاقباط اتخاذ قرار سريع - وفى تقرير للسلطات الانجليزية بتاريخ ٣/١٩ " ان زعماء الازهر يحاولون اقناع البطريركية القبطية وطائفة الاقباط بالانضمام الى الحركة بطريقة فعالة " (٢) وفى ٣/٢٦ قامت الجماهير بتدمير كنيسة قبطية بالقرب من دسوق (٣) ولذلك مع أوائل ابريل (أى بعد انتهاء قوة الدفع الاساسية للثورة) اضطر الاقباط لاعلان انضمامهم للثورة (بحكمة عظيمة من وجهة نظر حماية النفس) (٤) وفى نفاق ممزوج بالسخافة قال أحد قيادات الاقباط (سرجيوس) " اذا كان الاستقلال موقوفا على الاتحاد - وكان الاقباط فى مصر حائلا دون ذلك - فانى مستعد لان أضع يدى فى يد اخوانى المسلمين للقضاء على الاقباط اجمعين !! لتبقى مصر أمة

---

(١) قامت الجماهير بنهب ممتلكات اليونانيين وقتل بعضهم كما هوجم الارمن الذين اطلقوا النار على الجماهير فاضطر الانجليز لوضع ٤٦٠٠ أرمنى تحت الحراسة المسلحة .

أنظر أيضا سميرة بحر : الاقباط فى الحياة السياسية المصرية أثناء فترة الوجود البريطانى دكتوراة فى السياسة من جامعة القاهرة ١٩٧٧ حيث لم تذكر الكاتبة أى اسهام للاقباط فى بداية الثورة .

(٢) مؤسسة الاهرام : م س ذ ص ٢١٨

(٣) م س ذ ص ٢٩٣ من تقرير أللنبى الى كيرزون راجع أيضا : مكى شبيكة : بريطانيا وثورة ١٩١٩ المصرية -معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٦ -ص ٥

(٤) مذكرة وكيل الخارجية البريطانية فى ٤/٩ م س ذ ص ٢٥٥

متحدة مجتمعة الكلمة"[1] وفى ٤/١٣ " وردت تقارير من الاسكندرية ودمنهور عن اعلان الاخاء بين الاقباط والمسلمين"[2]

أما القوى الاسلامية فقد كانت تفتقر الى التنظيم الجيد ـ ذلك أن الحزب الوطنى كان قد تضعضع ولذلك كان تأثيره الشعبى محدودا ـ وقد طرح برنامجه غداة الثورة حيث طالب بـ (١) الاستقلال التام لمصر والسودان (٢) جلاء الانجليز فورا (٣) الابقاء على الصلات الدينية بين مصر والدولة العثمانية (٤) الغاء الامتيازات الاجنبية (تقرير أللنبى فى ٤/٢٠).

وزاد الطين بلة أن الحزب الوطنى انشق على نفسه بسبب الثورة فكان هناك جناح رافض لاى تفاهم مع الوفد (على فهمى كامل شقيق مصطفى كامل وعبد اللطيف الصوفانى) وهناك من قبلوا بالانضواء تحت قيادة الوفد لكيلا يساعدوا فى تفرقة الصفوف فى اللحظات الحرجة (حسب تصورهم) ـ لقد كان محمد فريد فى منفاه من هذا الجناح حيث كتب يقول " انى اعتقد أن هذا الوفد لا يتأخر عن الاتفاق مع الانجليز لو وجد منهم صدرا رحبا ـ ولا يبقى يطالب فعلا وباخلاص حقيقى باستقلال مصر التام الا حزبنا الحزب الوطنى ولكنا لم نرد الآن الظهور بمظهر الانشقاق فأظهرنا رضانا عن هذا الوفد وتشجيعنا له مع اعتقادنا بعدم اخلاص معظم رجاله"[3] ـ ولكن المثير للغرابة أن الوفد حرص بنفسه على اختيار ممثلين عن الحزب الوطنى ولم يعط الفرصة للحزب لاختيار ممثليه .

---

(١) سيد قنديل ثورة ١٩١٩ ص ٧٣ ولما لم يعط سرجيوس منصبا كما كان يأمل عاد وهاجم ما دعا اليه فى سنة ١٩١٩ .

(٢) مؤسسة الاهرام م س ذ ص ٣١٥

(٣) عبد الرحمن الرافعى ثورة ١٩١٩ جـ ٢ ص ٥٠ ومن الجدير بالذكر أن عبد الرحمن الرافعى كان من أعضاء الحزب الوطنى الذين شاركوا فى الوفد .

هذا عن القوى الاسلامية المنظمة المسيسة ـ أما القوة الاسلامية الحقيقية في ذلك الوقت فقد تمثلت في الاسلام الشعبي [1] بقيادة علماء وطلبة الازهر ـ ولكن بسبب عدم الماما الازهريين بفنون الدجل لم يستطيعوا احباط المخطط الانجليزي للالتفاف حول الثورة .

لقد بدأت الثورة من الازهر واستمر الازهريون في تثوير الشعب حتى بعد انحسار الثورة ورغم أن السلطان حسين وعد الانجليز ببذل نفوذه على المفتي فان ذلك لم يؤثر على التيار الشبابي الذي وصفه تقرير اللنبي في ٦/٤ "ان العناصر الجاهلة الشديدة الحماس من بين طلبة الازهر برهنوا على أنهم لا يقيمون وزنا لكلام رؤسائهم من رجال الدين وأصبح مسجدهم ملجأ ليليا لجماعات كبيرة من الناس يجتمعون فيه ليسمعوا خطبا من وعاظ غير مسئولين مليئة بكل ما يدعو الى الاذى والتعصب " .

وفي ١٥/٥ ورد بتقرير اللنبي" لهجة العداء قد اشتدت حدتها في الازهر بطريقة ملحوظة فالخطب لا تزال تتسم بأقصى درجات العنف كما كانت في السابق "

وفي ١/٦ يقول اللنبي " وأصبح الازهر على وجه اليقين مركز مقاومة كل محاولات التهدئة"

وأخيرا لم يجد الانجليز بدا من اقتحام الازهر (ديسمبر ١٩١٩)

* * *

احباط الثورة :

بعد وصول أللنبي بقليل أفرج عن سعد زغلول (٧/٤) وسمح للوفد بالذهاب الى مؤتمر الصلح بباريس ومن يومها بدأت بدعة (المفاوضات) في

---

(١) لم تكتف الجماهير بمحاربة الانجليز والسلطة العملية بل انهم احاطوا ببيت محمد محمود باشا أحد ثلاثة المعتقلين مع سعد زغلول بهدف تخريب البيت واحراقه" لان الباشا لم يوزع القوت على الجائعين" ـ راجع فكرى أباظة الضاحك الباكي ص ٤٤/٤٥

السياسة المصرية [١] ـ وكانت (خطة الوفد) ترتكز على تصريحات ويلسون (رئيس أمريكا) فى حق تقرير المصير للشعوب [٢] ـ ولكن بعد وصول الوفد الى باريس بثلاثة أيام وفى نفس اليوم الذى طلب فيه سعد زغلول مقابلة ويلسون ليعرض عليه (ظلامة مصر) فى نفس هذا اليوم (٤/٢٢) اعترف ويلسون بالحماية الانجليزية على مصر وقال فى بيان الاعتراف ان الرئيس الامريكى والشعب (يعطفان كل العطف على أمانى الشعب المصرى المشروعة لتوسيع نطاق الحكم الذاتى) ! ولكنهما (ينظران بعين الاسف الى أى مجهود يبذل لتحقيق ذلك بالالتجاء الى القوة والشدة) .

وبذلك انهارت خطة الوفد المرتكزة على (تصريحات) ويلسون ثم تلقى الوفد الضربة النهائية باعتراف الألمان أنفسهم بالحماية الانجليزية على مصر (١٩١٩/٥/٧) ومن ثم بدأ سلسلة من التصرفات تنم عن اليأس حيث (طرق الابواب غير الرسمية) مثل الهيئات النيابية والجرائد والرأى العام (صاحب السلطان الاكبر على الحكومات) ! ولما لم تغن عنهم شيئا طرقوا أبواب الاشتراكيين وتبرعوا بالمال لجريدتهم فى فرنسا .

ولكن الانجليز بالطبع لم يكونوا يريدون قطع خط الرجعة على الوفد فأرسلوا لجنة ملنر الى مصر (ديسمبر ١٩١٩) بهدف تقييم الاوضاع بدقة ثم استمرار نهج التفاوض وقد جاء فى التقرير الذى وضعته اللجنة فيما بعد أن (زمام الحالة أثناء الثورة كان قد خرج من يد الوفد وانتقل الى ايدى المتطرفين غير المسئولين) [٣]

---

(١) لا يستحيى العلمانيون من ذلك بل يؤلفون الكتب عن (معارك التفاوض) حيث يفترض معركة حربية ومن ثم يكتبون عن (خطط التفاوض) .

(٢) فى الحقيقة كانت خطة الوفد فى البداية أن يطالبوا بالاستقلال والا فعلى الانجليز أن (ينظموا العلاقة بينهم وبين مصر) فى اطار الحماية ـ ثم فوجئوا بالثورة بعد ذلك . انظر محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية جـ ١ ص ص ٨٢/٨٣ ط ١٩٥١ .

(٣) تقرير اللجنة الخصوصية المنتدبة لمصر ص ٢٤٦ عمود أ .

وعلى أساس تقرير ملنر وضعت عدة مشروعات تعطى مصر استقلالا شكليا وفى يونيو ١٩٢٠ وصل الوفد الى لندن لاكمال (معركة) التفاوض - وبعد أخذ ورد اختلفوا حول مشروع ملنر ورفضوا أن يتحملوا تبعة قبوله فقرروا (استشارة الامة) وهو قبول ضمنى - خاصة وقد أصدر سعد زغلول بيانا يعضد المشروع" نظرا لاشتماله على مزايا لا يستهان بها وتغير الظروف التى حصل التوكيل فيها .. الخ "

لكن الحزب الوطنى أصدر بيانا قرر فيه "بإلقاء التبعة أمام الشعب وأمام الاجيال المستقبلة وأمام التاريخ وأمام الله على كل من يعمل لتحقيق هذا المشروع - الاستمرار فى الجهاد الوطنى بجميع الوسائل المشروعة " .

وبعد تحفظات شكلية قد مها الوفد قام أللنبى بابلاغ قرار بريطانى للسلطان فؤاد فى ١٩٢١/٢/٢٦ بأن الانجليز سيقد مون " تساهلا كبيرا" وقد تمثل هذا "التساهل الكبير" فى تصريح بأن " نظام الحماية لا يكوّن علاقة مرضية تبقى فيها مصر تجاه بريطانيا العظمى"

لقد كان" التساهل الكبير " اعترافا من الاستعمار بأن القوى العلمانية قد بلغت سن الرشد وأنها هى الاقدر على لجم حركة الجماهير - ولكن ما أن بدأ سعد زغلول يتربع على عرش مصر ليصنع منه آتاتورك آخر - حتى كان القدر يعد له نهاية غير ما خططوا له .

ففى نوفمبر ١٩٢٤ هاجم خمسة من الرجال السردار لى ستاك بالقنابل والرصاص فأردوه قتيلا [١] - وعلى الفور صرح سعد زغلول" لقد اغتالونى أنا ولم يغتالوا السردار " ورغم تأكيده للانجليز بأن" الحكومة ستعمل الممكن وغير الممكن أيضا لوضع يدها على مرتكبى هذه الجريمة " ورغم اعتذاره الرسمى لملكة انجلترا فلم يشفع له ذلك وأجبر على الاستقالة .

---

(١) كان المتهم الاول شفيق منصور عضو جمعية الاتحاد الاسلامى - وقد سبق اتهامه فى قضية اغتيال بطرس غالى وبسببها فصل من مدرسة الحقوق (حرصا على التلاميذ من أن تصل اليهم شرارة من شره)
أما المتهم الثانى (محمود اسماعيل) فقد أورد فى مذكراته أنه رفض الخدمة فى الاسطول بعد الهجوم العثمانى لتحرير مصر(١٩١٤) حيث انه كان " ممتلئا حمية وحماسة للدولة العلية دولة الخليفة وحامية الاسلام والمسلمين ومفعما أملا بقرب انتصارهم ورد مصر الى حظيرتهم وهذا كان وقتها آخر آمال

٢- العلمانية فى طورها الأول الفاشل (١٩٢٣ - ١٩٥٢)

الحقبة الليبرالية

الحقبة الليبرالية (١٩٢٣-١٩٥٢)

- ١ -

من الممكن أن نلخص تاريخ مصر فى الحقبة العلمانية بأنه يخضع لميكانيزم بندولى يشمل :

(١) محاولات مطردة من القوى المجرمة (الاستعمار وأذنابه العلمانيين فى مصر) لتجريد الجماهير من سلاحها (العقيدة الاسلامية) وادخالها فى دوامة الافقار والتجهيل - ومن ثم استتباب الامور للمجرمين .

(٢) حركة اسلامية جماهيرية (وأحيانا حركة جماهيرية افتقدت قيادتها الاسلامية فكانت مجرد انتفاضة للروح الاسلامية) هدفت الى الثورة على الاوضاع واعادة حركة التاريخ الى مسارها الصحيح .

ان هذا لا يعنى أن أيا من الحركة الاسلامية أو تدابير المجرمين هو رد فعل للاخر - ان هذا ليس إلا حركة التاريخ نفسها (الصراع بين الحق والباطل) .

لقد تكرر هذا النمط البندولى بطريقة أثارت دهشة القوى المجرمة من حيوية الاسلام [1] ودعتها الى ابتداع وسائل جديدة لاحباط الحركة الاسلامية الجماهيرية - وفى كل مرة كانت القوى المجرمة تتوهم أنها انتصرت نهائيا ثم لا تلبث أن تفاجأ بأن روح الاسلام قد انبثقت بأشد مما كانت .

ومع ازدياد ترددات البندول تراكمت الخبرة لدى الاسلاميين فى نفس الوقت الذى قلت فيه قدرة المجرمين على المناورة - ويبدو الآن أن القوى المجرمة قد فقدت القدرة على ابتداع بدائل جديدة ضمن مخططها - كما يبدو أيضا أن الحركة الاسلامية الجماهيرية فى سبيلها لاحكام الحصار حول تلك القوى تمهيدا لاجتثاثها وتصفيتها جذريا .

---

(١) عندما نحلل التاريخ اسلاميا لن يكون أمامنا مجال للدهشة - لان الاسلام العظيم قادر فى كل زمن على تقديم الاجابة الصحيحة .

لقد توصل التخطيط الغربى الى فكرة عزل الجماهير عن الاسلام منذ وقت مبكر (درس الحروب الصليبية) . ولكن لم يكن لدى الغرب ما يمكنه من تحقيق هذا الهدف - ان فساد معظم النظم السياسية التى حكمت الوطن الاسلامى - هو الذى تكفل بتحقيق أمنية الغرب - حتى تم أخيرا تقنين عملية عزل الجماهير عن مواجهة عدوها بقيام الدولة العثمانية واعتمادها على الجيوش النظامية - وهكذا أصبح ممكنا أن يخترق الغرب قلب الوطن الاسلامى بالقوة والارهاب وأن يسعى بعد ذلك لتحقيق ما تصوره عزلا للجماهير عن اسلامها .

ان الوجود الغربى السافر قد أدى لحسن الحظ الى استثارة الحس الاسلامى الكامن ، وهكذا أمكن للحزب الوطنى أن يقوم بتعبئة شعبية تجلت بوضوح فى حادث طابا سنة ١٩٠٦ مما دعا كرومر الى القول" شعب مصر كالرمال تدوس عليها وتدوس وتدوس ثم فجأة تقوم العاصفة فيغمرك هذا الرمل فى لحظة واحدة دون تفاهم" ولم تلبث أن هبت العاصفة بأشد مما كان متوقعا فى سنة ١٩١٩ .

فعندما شرع فى بناء أهم ركيزة للمشروع الاستعمارى بصدور وعد بلفور (١٩١٧) تطورت الاحداث واشتعلت الثورات فى المنطقة كلها سنة ١٩١٩ وكان هذا نذيرا بأن الاسلام مازال فى جعبته المزيد (وبالفعل اندلعت الثورة الاسلامية فى العراق سنة ١٩٢٠)وكان التقييم الاستعمارى للموقف كالاتى :

(١) الهدف : ايقاف الجيشان الاسلامى (كمهمة عاجلة) واقامة نظام يعتبر امتدادا للادارة الاستعمارية مع ضمان قدرته على دفع المشروع الاستعمارى قدما .

(٢) الوسائل المتاحة : - وجود قوى مستفيدة من حالة التبعية (الاقطاعيون - المثقفون العلمانيون - النصارى) .

- وصول الجماهير الى حالة الانهاك .
- غياب القيادة الاسلامية .

وبناء على ذلك اعطيت مصر والعراق والاردن استقلالات شكلية (١٩٢٠ - ١٩٢٣) وفى نفس الوقت اعترف باستقلال تركيا وايران (بعد أن أبدى أتاتورك والشاه استعدادهما ليكونا اكثر تغربا من الغرب) وكذلك اعترف باستقلال افغانستان (بعد هزيمة القوات العسكرية الانجليزية على يد الجماهير الافغانية سنة ١٩١٩) - وبعد سلسلة الاستقلالات هذه قامت النظم اللبرالية [١] فى المنطقة كلها كجزء من المشروع الاستعمارى .

العوامل التى قادت الى التطبيق اللبرالى

أ - العوامل الجوهرية :

× لقد أدت تراكمات تاريخية طويلة الى وضع الفلاح المصرى فى حالة من البؤس يرثى لها - ففى سنة ١٩٠٠ مثلا كان ١٪ من عدد ملاك الاراضى الزراعية يمتلكون ٤٤٪ من مساحة تلك الاراضى - وعند اعلان الاستقلال الشكلى سنة ١٩٢٢ كان ربع الاسر فى الريف من المعدمين (أى لا تمتلك أرضا ولا تستأجرها) وكان نظام السخرة معمولا به [٢] (وقد مات فى حفر القناه وحدها أكثر من ١٢٠ ألف عامل تحت أشعة الشمس اللافحة أو تحت ضربات

---

(١) لقد نشأت النظم اللبرالية فى الغرب كنتاج طبيعى لتطور التاريخ الاوربى وجهود المفكرين واخلاصهم من أجل مشروع النهضة - ومن الظلم أن نسمى الصور الممسوخة التى طبقت عندنا بأنها لبرالية ولكنها اكتسبت تلك التسمية تجاوزا فلم نر بدا من اقرار تلك التسمية (المكتسبة)

(٢) ألغيت السخرة (من الناحية الشكلية الاجرائية) فى وزارة رياض سنة ١٨٨٠ وأبطل الضرب بالكرباج فى وزارة شريف ولكن بقيت السخرة عمليا بسبب زيادة مشروعات الرى وزراعة اراضى الاقطاعيين . كان عدد المطلوبين للسخرة ١٦٥٠٠٠ سنة ١٨٨٤ ، ٩٥٠٠٠ سنة ١٨٨٦ وأعيد الغاؤها بقانون جديد (١٨٩٣) لكنها استمرت بنفوذ كبار الملاك والعمد .

السياط)[1] كما حشد نصف مليون مصرى بطريق السخرة لمحاربة الدولة العثمانية
فى الحرب العالمية الاولى (٢) (وقت أن كان عدد سكان مصر عشرة ملايين) - وقد
بلغ البؤس حدا جعل حزبا كالوفد يفتخر بأنه تبنى مشروعا للقضاء على ظاهرة
الحفاء - وفى ظل ذلك البؤس كان الناس يتطلعون الى من قد ينتشلهم من هذا
الوضع - ولذلك انجرفت قطاعات هامة من الشعب المصرى نحو الدنيوية بطريقة
حادة ومفاجئة بمجرد ان اعتبرت قضية الاستعمار قد حلت (أى بمجرد اعلان
استقلال مصر) ووضعت برامج الاحزاب بعد ذلك على أسس دنيوية بحتة - وكان
اقتناع الشعب المصرى بجدوى النظام القائم اقتناعا جارفا فى البداية يدل على
ذلك أن نسبة المشاركة فى انتخابات سنة ٢٤ ، ١٩٢٥ قد وصلت الى ٩٦٪ (٣)
* ولم يكن فى العالم كله فى ذلك الوقت من مذاهب دنيوية سوى اللبرالية فلم
يكن مضى على الثورة الشيوعية فى روسيا سوى بضع سنين - وطبعا من المستحيل
التفكير فى تطبيق الشيوعية فى بلد مثل مصر .

---

(١) مازالت الكراكات تستخرج بقايا العظام والجماجم حتى اليوم - لقد سخر
١٨٠ ألف عامل لحفر ١٤ كم فقط من القناة (منطقة عتبة الجسر) كما سخر
١٠٠ الف آخرون لشق الترعة الحلوة الى السويس (كان عدد سكان مصر
وقتئذ ٥ ملايين) - انظر " السخرة فى حفر قناة السويس " للدكتور محمد
عبد العزيز الشناوى " وقضية قناة السويس " للدكتور مصطفى الحفناوى .

(٢) ومن المثير للسخرية أن هؤلاء المسخرين سموا (متطوعين)

(٣) وان كانت تلك الانتخابات قد جرت بطريق التمثيل النسبى وان كانت أيضا
لا تدل على اقتناع الناس بالنظام اللبرالى فى حد ذاته وانما بالعصبيات
والاشخاص الذين مثلوا هذا النظام آنذاك (تماما مثلما ينتخب الناس اليوم
من يتوهمون أنه سيحقق لهم بعض المصالح وبالتالى أصبح الحزب الوطنى
اليوم يدعى أنه حزب الاغلبية الشعبية ! !)

× ان التطبيق اللبرالى لم ينشأ من فراغ فهو امتداد للمؤسسات التى بدأها محمد على وللافكار التى دخلت مصر فى وقت تال - وكل ما هنالك أن المؤسسات الاستعمارية قد تعرضت لعملية تمصير فقد حل مصريون محل المستشارين الانجليز - هذا التمصير سيؤدى الى مزيد من اندماج الشعب فى النظام لان المؤسسات بحالها القديم ستثير النفور - كما تعرضت هذه المؤسسات أيضا لعملية توسعة فمثلا زاد نصيب التعليم فى ميزانية الدولة من ٣ر٣٪ سنة ١٩١٣ الى ٦ر٨٪ سنة ١٩٢٩ الى ١٢ر٨٪ سنة ١٩٣٩ وكذلك توسعت وسائل الاعلام - وفى عقد العشرينيات انتشر تعليم البنات بعد أن كانت مدارس البنات تعد على أصابع اليد الواحدة .

ب - الاسباب المباشرة للتطبيق اللبرالى :

× لقد كانت القيادة الاسلامية غائبة فى الفترة (١٩١٩ - ١٩٢٣) وهى من أحرج الفترات فى تاريخ مصر فقد تضعضع الحزب الوطنى بسبب ضغوط الادارة الاستعمارية وبسبب الضغوط المالية وبسبب افتقاد القيادة الرشيدة وحدثت صراعات بين أعضاء الحزب واتجه بعضهم الى الاحزاب العلمانية الوليدة - أما الازهر فقد كان يفتقد الى القادة (وان كان به كم هائل من المهيجين السياسيين الذين حركوا الجماهير فى ثورة ١٩١٩) وفارق كبير بين القائد السياسى والمهيج السياسى .

× لقد قتل ٠٠٠ر٣ مصرى برصاص الانجليز فى ثورة ١٩١٩ وأعدم حوالى سبعين شخصا آخرين فى محاكمات عسكرية سريعة - ومهما كان الشعب ثوريا فان له طاقة لن يستطيع تجاوزها والاستمرار فى الثورة ولذلك تنجح الثورات أو تنتكس بحسب الفئة التى تصدت لقيادتها وقد أدت قيادة الوفد بعد ذلك الى اضاعة كل ما بذل من تضحيات فى ثورة ١٩١٩ . (طبعا هذا لا يعنى فشل الثورة - لانها نجحت فى ابطاء سرعة تقدم المشروع الاستعمارى)

* * *

تمصير العلمانية يواجه الفشل (١٩٢٣ - ١٩٣٦)

لقد اتسمت فترة ٢٣ - ٣٦ بسمتين :

١- سياسيا : انفراد الوفد بالشعبية دون منازع .

٢- فكريا : خلو الساحة لغلاة العلمانيين وشنهم حملة واسعة - فاشلة - لتمصير العلمانية .

فمن الناحية السياسية :

- ١ -

سيزداد وزن بعض العوامل فى السياسة فى فترة التطبيق العلمانى (مثل العوامل الشخصية والاقتصادية) - وبينما كان أتاتورك يصنع كبطل فى الاعلام - كانت عملية أخرى تتم لصناعة سعد زغلول كبطل (من خلال نفيه مرتين خارج مصر) وسعد هذا هو صهر مصطفى فهمى رئيس الوزراء فى عهد الاحتلال وصاحب لقب أشهر صديق للانجليز فى مصر - وسعد هو وزير الحقانية الذى حاكم محمد فريد - وهو وزير المعارف الذى رفض تعريب التعليم وهو الذى اعاد العمل بقانون المطبوعات (١) وقد اعترف سعد زغلول فى مذكراته بأنه استمر يلعب الميسر حتى آخر ايام حياته (٢) - وبينما كان كرومر يقول دائما (ان الاحتلال البريطانى باق الى الأبد) وبينما كان يصف الشعب المصرى بـ (ان أولاد العميان عادة يخرجون مبصرين) فقد وصف سعد كرومر فى مذكراته بأنه (يتنور منه - من كرومر - فى حياته السياسية)

---

(١) هو أشد القوانين السيئة السمعة فى تاريخ مصر الحديث (وكان العمل به كافيا لاسقاط الوزارة) .

(٢) وبسبب ذلك خسر كل ثروته (٤٠٠ فدان + ١٨٫٠٠٠ جنيه) واستدان .

ووصف ما أصابه عند سماعه اقاله كرومر (كنت كمن تقع ضربة شديدة على رأسه أو كمن وخز بآلة حادة فلم يشعر بألمها لشدة هولها) - ورغم كل هذه الصفات الخبيثة فان عقدة الزعامة والحقد على المنافسين كانت اكثر ما يميز سعد زغلول وفى ذلك مواقف كثيرة جدا وردت فى مذكرات زعماء وكتاب تلك الفترة .

ان الملابسات الخاصة بتشكيل حزب الوفد تحتاج الى دراسات تفصيلية ليس هنا مجالها - ولكن ما نريد ذكره أنه مابين غمضة عين وانتباهتها انضم كل زعماء مؤتمر اسيوط (١٩١١) الى الوفد وكذلك انتقل الاقطاعيون أعضاء حزب الامة السابقون الى الوفد وصار محمود سليمان باشا رئيس حزب الامة السابق رئيسا للجنة المركزية للوفد - وكان من أعضاء الوفد أيضا فتحى زغلول شقيق سعد زغلول وعضو المحكمة التى أصدرت أحكام الاعدام على أهالى دنشواى (والتى رقى بسببها وكيلا لوزارة الحقانية) .

ورغم الاصول المريبة لحزب الوفد ورغم نفوذ النصارى الكبير فيه فهو يعتبر افرازا طبيعيا لتلك المرحلة فاذا كانت بشاعة الحزب بهذا الحجم فهذا مقياس لبشاعة وتردى الاوضاع فى تلك المرحلة - ولذلك يتفق جميع العلمانيين بلا استثناء فى انحيازهم للوفد ومن المثير للسخرية أن اكثر المتحمسين للوفد هم الشيوعيون !

لقد تمتع الوفد بالشعبية حتى سنه ١٩٣٦ وذلك راجع الى :

- استناده للولاءات العائلية والمرتبطة بدورها بالنفوذ الاقطاعى - والحقيقة أن أى حزب حقق بعض الشعبية منذ بداية التطبيق العلمانى فى مصر - لم يحققها الا استنادا الى تلك الولاءات حيث لا يمكن اقناع شعب مسلم بأفكار مستوردة (مثلا لم يحقق الاتحاد الاشتراكى أية شعبية لانه دعا الى عقيدة ولم يستند للقبلية بل دعا الى الولاء للوثن) لقد أجمع علماء

السياسة على أن الولاء القبلي والعائلي هو من أشد مظاهر التخلف وقد كان دور العلمانيين دائما تكريس هذا النمط الخطير للتخلف محافظة على مكاسبهم (١) .

- لم يكن هناك بديل اسلامي حقيقي لمواجهة الوفد - فقد تشوهت المفاهيم تماما لدى الحزب الوطني في ذلك الوقت - كما أن الوحيد الذي بقي يدعي الولاء للاسلام لم يكن سوى الملك .

- كان فن تجهيل الشعب قد استخدم على نطاق واسع لأول مرة - و بالتالي انطلت الخدعة على كثيرين حيث أمكن تصوير قيادات الوفد على أنها وطنية وأنها (مشاغبة) للانجليز .

- ان اخلاص كثير من الشباب الوفدي للعلمانية واشتراكهم في التنظيمات السرية في المرحلة المتأخرة من ثورة ١٩١٩ قد أعطى مصداقية للوفد بلاشك .

- ٢ -

أعطيت مصر استقلالا مزيفا في فبراير سنه ١٩٢٢ (اذ شملت التحفظات الأربعة بقاء الجيش الانجليزي على امتداد أرض مصر كلها وتعهد الانجليز بحماية الاقباط والاجانب) ووسط أحكام عرفية تشكلت لجنة عينتها الحكومة (ولم ينتخبها الشعب) لوضع الدستور (٢) وأعطى الدستور دفعة جديدة

---

(١) انظر مثلا : عزة وهبى : تجربة الديمقراطية اللبرالية في مصر - دراسة تحليلية لآخر برلمان مصري قبل الثورة - ماجستير في السياسة من جامعة القاهرة ١٩٧٨ ص ٦٠ / ٦٥ نشرها مركز الدراسات بالاهرام

(٢) وصف سعد زغلول واضعي الدستور بأنهم (لجنة الاشقياء) ورغم ذلك فلا خلاف في أن دستور ١٩٢٣ هو أفضل دساتير مصر العلمانية .

للوطنية المصرية عند ما رفض الاشارة الى أى تمييز طائفى وعند ما رفض الاقباط أنفسهم أن يحميهم الانجليز ـ فقد كانوا يريدون الاسراع بتذويب الفوارق الدينية ـ لكى يكون ذلك على حساب المسلمين بالطبع .

تولى الوفد الحكم وبدلا من أن يتجه لمحاربة الانجليز كرس[1] نفسه لتصفية ما أبقاه الدستور من سلطة للملك (حيث ادعى الوفد أن الملك عقبة فى طريق تخليص البلاد من الانجليز وأنه لن يستطيع محاربة الانجليز والملك فى وقت واحد) وكان هجوم الوفد على الملك ضاريا (لأنه هجوم استند الى شعبية بلغت ٤٥ ٪ فى انتخابات سنه ١٩٢٤) ولذلك استخدم الملك كل الاسلحة الممكنة فسعى الى تولى الخلافة !! (التى اسقطت رسميا سنه ١٩٢٤) .وبالفعل دعى الى مؤتمر الخلافة ليعقد فى القاهرة لكنه تأخر الى سنه ١٩٢٦ (وكان الحسين ملك الحجاز قد نصب نفسه خليفة فى حركة بهلوانية مسرحية سنه ١٩٢٤) ـ كما أنشأ الملك أيضا حزب الاتحاد سنة ١٩٢٥ ـ وفى الفترة ٢٤/١٩٣٦ حكمت مصر بعدة أنماط : تحالف لأحزاب الاقلية ـ تحالف للوفد مع بعض أحزاب الاقلية (التى اصطدمت بالملك لاسباب كثيرة) ـ انفراد للوفد بالحكم ـ انفراد حزب الشعب (اسماعيل صدقى) بالحكم والغائه دستور ١٩٢٣ واجراءاته القمعية .

وباختصار لم يستقر الوضع السياسى حتى ان دستور سنه ١٩٢٣ لم يطبق خلال ١٣ سنة سوى ٣ سنوات ـ وفى تلك الفترة فشلت عدة مشروعات لعقد معاهدة تحالف بين مصر وبريطانيا بحيث تأمن بريطانيا على مصالحها (ومنها دفع البرنامج العلمانى قدما) نظير خروجها من مصر ـ ويعود هذا الفشل الى :

- لم تكن هناك تحولات اجتماعية تهدد الوضع القائم فلا داعى اذن للاستعجال فى عقد المعاهدة .

---

١) بعد فشل مفاوضات النحاس/ ماكدونالد (١٩٢٩) قال النحاس قولته الشهيرة " لقد خسرنا المعاهدة وكسبنا صداقة الانجليز" .

- عارض الوفد مشاريع المعاهدات التى وضعها غيره (مثل مشروع عبد الخالق ثروت) .
- تخوف الانجليز أنفسهم من التعاهد مع احزاب الاقلية (فرفضوا التوقيع على اتفاق هندرسن / محمد محمود) .

وبسبب استمرار القوات الانجليزية جاثمة على أرض مصر والذل الذى لاقاه المصريون على أرضهم خاصة فى القناة بسبب ذلك ازداد المد الشعبى المعارض للاستعمار منذ أوائل الثلاثينيات وكان هذا سيهدد ما أرساه الوفد من علمانية وتبعية للغرب ـ ولذلك شعر الانجليز بضرورة التوصل الى معاهدة تحالف نظير خروج جيشهم من مصر (وهو الشكل القديم القبيح للاستعمار) وازداد موقف الانجليز حرجا عندما غزت ايطاليا الحبشة سنة ١٩٣٦ وتشكلت المحاور فى أوربا واكفهر الجو الدولى منذرا بحدوث حرب عالمية ثانية ولذلك استدعى الوفد الى الحكم لتوقيع معاهدة ١٩٣٦ ووقع الانجليز معاهدة مماثلة مع العراق ووقعت فرنسا معاهدات مماثلة مع سوريا ولبنان ـ وقد عارض المعاهدة الحزب الوطنى (رفع شعار لا مفاوضة الا بعد الجلاء) كما عارضها بعض كبار الرأسماليين الذين توسموا أن مصالحهم قد تزدهر بالتحالف مع الامبريالية الالمانية الصاعدة .

وبعد المعاهدة سعى الوفد فى خطته لتصفية نفوذ الملك (وكان فاروق قد تولى سنة ١٩٣٦ وكان لا يزال قاصرا) ـ وعادت من جديد فكرة الخلافة تطرح نفسها وقام طلبة الازهر بمظاهرات تأييد للملك وقام شيخ الأزهر المراغى بدعم موقف الملك ضد الوفد وقام الاخوان كذلك بدعم موقف الملك ـ وعندما صلى الملك فى الازهر اماما قال النحاس ان هذا (اقحام للدين فيما ليس من شئونه) ولكن لم يلبث الوفد أن أقيل بعد أن أدى دوره فى عقد المعاهدة .

* * *

ان التحولات السياسية فى الفترة ٢٣ - ٣٦ لم تكن بالاهمية التى كانت للتحولات الفكرية :

فقد كان تحول ثورة ١٩١٩ الى نظام مؤسسى لبرالى - اضافة الى الغياب الاسلامى المؤقت - كان ذلك عاملا فى افساح المجال لدعاة اللبرالية والوطنية المصرية لكى يصولوا ويجولوا - ولكن لم يحدث أبدا أن تحولت أفكار هؤلاء المفسدين الى حركة جماهيرية [1] - اللهم الا أنهم نجحوا فى نقل افكارهم الافسادية (مايسمى تحرير المرأة والحرية الشخصية ... الخ) . الى حيز التطبيق العملى لا عن جدارة منهم فى الاقناع - ولكن اتسقت هذه الافكار مع موجه التحلل الاجتماعي التى دبت فى اوصال المجتمعات الاسلامية فى ذلك الوقت .

لقد تميزت الاطروحات فى فترة ١٩٣٦/٢٣ بالمطالبة بما يلى :

(١) أشد مظاهر اللبرالية : (فى كتابات سلامة موسى وطه حسين ولطفى السيد ... الخ)

يقول سلامة موسى (١٩٢٢) "شرط النهضة أن تكون اجتماعية واقتصادية وأدبية فلا يجب أن ترمى الى تغيير نظامنا الحكومى فحسب بل تغيير نظام العائلة واعتبارات الطبقات الاجتماعية وكذلك نظام الانتاج الاقتصادى - حتى الاسلوب الكتابى يجب تغييره وسبيل ذلك ايجاد زواج مدنى يعاقب من يتزوج اكثر من امرأة واحدة ويمنع الطلاق الا بحكم المحكمة ويجيز تزاوج الافراد وان اختلفوا دينا "

---

(١) ان النظام الذى يتمخض عن ثورة لا يكون منبثقا بالضرورة من عقيدة الشعب فلم يكن الشعب الفرنسى لبراليا عند ما قام بثورته ولم يكن الروس ملحدين عند ما ثاروا وكذلك لم يكن الشعب المصرى لبراليا عند ما قام بثورة ١٩١٩ .

ويقول أيضا فى كتابه اليوم والغد (١٩٢٧) " أنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب" ودعا الى ازالة " آثار العبودية والذل والتوكل على الآلهة" والى "نحن فى حاجة الى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان" وقال " ان الاجانب يحتقروننا بحق ونحن نكرههم بلا حق" وقال "ان الرابطة الدينية وقاحة فاننا أبناء القرن العشرين اكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا " .

ومن مرتدى تلك الفترة الازهري السابق احمد امين - يقول فى دعوته لوحدة الحضارة فى العالم (١٩٢٨) " الشرق لا يمكن أن تكون له مدنية خاصة تخالف فى أسسها مدنية الغرب - الا اذا أمكن أن يؤسس مدنية قوية تستطيع أن تسود المدنية الغربية وتكون مدنية العالم وذلك ما ليس فى مكنته الآن ولا فى المستقبل " .

٢) الالحاد : والتشكيك فى الاسلام - وقد كان سلامة موسى نفسه ملحدا وكذلك كان طه حسين عندما أصدر كتاب (فى الشعر الجاهلى) (١٩٢٦) حيث دعا الى الاخذ بمنهج الشك الديكارتى واعتبر أن بناء ابراهيم عليه السلام للكعبة (أسطورة) وقال " للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ولكن ورود هذين الاسمين فى التوارة والقرآن لا يكفى لاثبات وجودهما التاريخى "

وقام زكى نجيب محمود بالتشكيك فى قضية الغيب.

٣) احلال العامية محل الفصحى : ورغم المعارضة الشديدة التى لقيتها تلك الدعوات - فقد راجت العامية عمليا بسبب السينما والمسرح (وقد كتب هيكل روايته زينب سنه ١٩١٢ بالعامية) وكذلك استخدم توفيق الحكيم عبارات عامية كثيرة فى كتاباته .

(٤) الفرعونية : التى دعا اليها لطفى السيد وسلامة موسى وغيرهما ولم يعرهم أحد اهتماما ورغم ذلك فقد بذلت جهود جبارة فى الحفائر الأثرية على يد ماسبيرو وجوتييه وبرستد - ثم أدخل التاريخ الفرعونى فى مناهج التعليم وفى سنه ١٩٢٦ أعلن روكفلر المليونير الامريكى اليهودى عن تبرعه بمليونى جنيه لانشاء متحف للآثار الفرعونية (وان كانت الحكومة قد رفضت طلبه بسبب الشروط التى وضعها) .

وانتشرت الشعارات الفرعونية على أوراق النقد وكشعارات للكليات الجامعية وفى تمثال نهضة مصر وضريح سعد زغلول (١٩٢٧) الذى أنشئ على طراز فرعونى خالص .

(٥) وكان تطلع الملك فؤاد الى الخلافة ذريعة لكى يترجم على عبد الرازق كتابا للمستشرق مرجوليوث ثم ينسبه الى نفسه بعنوان " الاسلام وأصول الحكم " أنكر فيه أن تكون الخلافة من الاسلام - وحدثت معركة فكرية فى ذلك الوقت حول الخلافة - وصدرت عدة كتب للرد على على عبد الرازق .

(٦) وظهر التبشير أيضا فى أوقح صوره بعد اعلان الاستقلال مباشرة - فقد كان الانجليز قبل ذلك لا يرتاحون لجهود المنصرين لأنهم اعتقدوا أنها لن تسفر عن شئ أو بالاحرى ستسفر عن نتيجة عكس المرجوة - أعنى استثارة الحس الاسلامى وتمسك المسلمين بدولة الخلافة وهو ما يسعى الانجليز لضده - وقد عقدت سلسلة من المؤتمرات التبشيرية ووصلت الاوهام بالمؤتمرين الى التفكير فى تنصير الوطن الاسلامى (مؤتمرات : حلوان - القدس - استانبول - لبنان - بغداد - الجزائر) والحقيقة أن التبشير قد خدم الفكرة الاسلامية كثيرا ولم يحقق أى نجاح .

(٧) وازدهرت حركات ما يسمى تحرير المرأة [1] فقد صدرت مجلة السفور اثناء الحرب العالمية الاولى ثم أسست هدى شعراوى [2] الاتحاد النسائى المصرى سنه ١٩٢٣ وفى نفس هذا الوقت بدأت بعض النساء فى رفع النقاب (ولكن كن يرجمن بالحجارة فى الشوارع حتى حوالى سنه ١٩٢٨) وتوسع تعليم البنات كثيرا فى العشرينيات واندمجت النساء فى سلك الوظائف ـ ونشطت درية شفيق فى الدعوة للفساد (وفيما بعد أسست حزب" بنت النيل" وكانت تتلقى أموالا من عدة سفارات غربية (انتحرت درية شفيق بعد ذلك سنة ١٩٧٥).

(٨) وفى هذه الفترة أيضا ظهرت فئة المخنثين المسمون الفنانين وقد عملوا على تحطيم الدين والاخلاق وعلى زرع مفاهيم الوطنية والعداوة للاتراك بالذات (فرقة نجيب الريحانى النصرانى) وقد صور أول فيلم مصرى سنه ١٩٢٦ وكان الايطاليون وأوربيون آخرون ونصارى الشام هم أصحاب المجهود الرئيسى فى بدايات صناعة السينما فى مصر لمدة طويلة ـ وانشغلت معظم الصحف بمتابعة توافه حياة من يسمون بالفنانين وصورتهم على أنهم قدوة .

---

(١) لعل دعوة الطهطاوى هى الاولى فى سلسلة الدعوات لما يسمى تحرير المرأة فقد دعا الى انشاء مسارح ومراقص اقتداء بالفرنسيين وقال "ان الرقص على الطريقة الاوربية ليس من الفسق فى شيء " وفى سنة ١٨٩٩ دعا قاسم امين الى التحلل من بعض احكام الاسلام فى كتابه "تحرير المرأة " وأصر على ذلك سنه ١٩٠٢ فى كتابة " المرأة الجديدة" لكنه عاد عن آرائه سنه ١٩٠٦ وعموما بقى كل هذا الكلام فى نطاق الورق الذى كتب عليه ـ وحاول لويس عوض أخيرا أن يثبت أن النساء اللاتى عملن بالدعارة زمن الحملة الفرنسية هى رائدات ما يسمى بحركة تحرير المرأة .

(٢) هى ابنة محمد سلطان باشا الخائن الذى رافق الجيش الانجليزى فى زحفه على القاهرة سنه ١٨٨٢ وهى أيضا امرأة على شعراوى أحد رفيقى سعد زغلول .

(٩) وكان البغاء والشذوذ رسميين تشرف عليهما الدولة .

والى جانب الدعوات اللبرالية والدعوات الافسادية السابقة - كانت هناك افكار توفيقية - فازاء التفوق الغربى لم يوجد من بين المسلمين من يتمتع بالثقة فى النفس (الا قليل) وذلك راجع بالطبع الى عدم فهم الاسلام فهما حقيقيا واعتبار الاسلام مجموعة موروثات .

وحاول التيار التوفيقى التصدى للموجة الغربية وصدرت الكتب للرد على طه حسين وعلى عبد الرازق واشتهرت اسماء امين الرافعى (له " المعركة بين القديم والجديد " سنه ١٩٢٦) ومحمد حسين هيكل الذى دعا الى أن نأخذ من الغرب ما سماه الحياة العقلية ومن الشرق الحياة الروحية (١) - بل ان طه حسين نفسه بدأ يكتب فى الاسلام .

وكان الباعث على ظهور التوفيقية هو السخط على الغرب بسبب فظائعه فى قمع المقاومة الاسلامية فى البلاد المجاورة - هذا السخط امتزج بالهزيمة الداخلية فلم يولد تيار اسلاميا اصوليا فكانت التوفيقية - ومن اسبابها ايضا ان الحرب العالمية اظهرت خطر الافكار القومية (عندما حاربت القوميات الاوربية بعضها بعضا) وكذلك أدت استفزازات المنصرين الاجانب الى استثارة ما تبقى من حس اسلامى - كذلك كانت الدعوة الى الالحاد من اسباب ظهور التوفيقية - فقد اتبع الشيخ طنطاوى جوهرى اسلوبا مشابها لما اتبعه النورسى فى تركيا من حيث تركيزه على الاستفادة مما يسمى بالعلم الحديث فى خدمة

---

(١) كانت نتيجة التأثر بالغرب أن انقسم الانسان (الذى هو وحدة) الى جانب مادى وجانب روحى .

قضية اثبات الالوهية والنبوة والغيب وقد أخرج طنطاوى جوهرى سيلا من الكتب وأخرج تفسيرا للقرآن ضمنه كثيرا من نظريات العلوم الطبيعية وكذلك خرائط تاريخية .

ان أشخاصا نعتبرهم اسلاميين - ما هم فى الحقيقة الا توفيقيين بل ان حسن البنا نفسه لم تكن تخلو أقواله من عبارات توفيقية (تعتبر بمقاييسنا اليوم ادانة لقائلها) وكذلك كان محمد اقبال توفيقيا رغم عمقه الشديد .

* * *

وبعد فشل مشروع تمصير العلمانية - قنعت القوى المجرمة بالتوفيقية باعتبارها هى كل يمكن انجازه ضمن المشروع الاستعمارى - وبالتالى سنستطيع التمييز بعد سنه ١٩٣٦ بين التوفيقيين ذوى النوايا الحسنة (أو سذج المسلمين) وبين التوفيقيين المجرمين الذين توسلوا بالاسلام نفسه لاثبات دعواتهم .

لقد قدر لمصر بعد ذلك أن تحكم بمذاهب توفيقية تستجيب شكليا للثقافة السياسية للجماهير (الاسلام) مع بقاء جوهرها العلمانى .

ولذلك ينكر كثير من العلمانيين اليوم أنهم علمانيون كما ينكرون أن تكون العلمانية قد طبقت فى مصر يوما - وبدون الدخول فى دوامة المصطلحات والتعاريف - فاننا نعنى بالعلمانية فى هذا البحث ليس فقط فصل الدين عن الدولة ولا فصل الدين عن الحياة بل نعنى بها (عدم استحضار قضية الآخرة) على مستوى النظام السياسى والى حد كبير على مستوى النظام الاجتماعى .

* * *

المد الشعبى وفشل محاولات احتوائه (١٩٣٦ - ١٩٤٩)

بتوقيع معاهدة ١٩٣٦ وانسحاب الانجليز الى منطقة القناة ومدينتى القاهرة والاسكندرية وبتصفية الامتيازات الاجنبية بمقتضى اتفاقية مونترو (١٩٣٧) أعيد ترتيب الاولويات بحيث أصبحت قضية العدالة الاجتماعية بنفس أهمية قضية التحرر الوطنى - وبما أن الوفد لم يقدم شيئا يذكر لتحقيق العدالة - فقد أدت معاهدة ١٩٣٦ الى افقاد الوفد لشعبيته وتوسع صاروخى لقوى جماهيرية (الاخوان - مصر الفتاة) وكانت مرحلة (٣٦ - ١٩٤٥) مرحلة تحضير للغليان الشعبى الذى انفجر وتبدى فى أروع صوره بنهاية الحرب العالمية (١٩٤٥).

* * *

القوى الجماهيرية (١٩٣٦ - ١٩٤٥)

* لقد كان الاتجاه الاسلامى ممثلا فى حركة سياسية حتى سنة ١٩١٩ ولذلك استطاع قيادة الشعب - ولكن مع انجراف الناس نحو الدنيوية - فلم يعد ممكنا أن يعود الاتجاه الاسلامى بشكلة القديم (أى مجرد التحريض السياسى) وقد اتضح للاسلاميين أن الامر يقتضى بعثا حضاريا شاملا وتغييرا لمفاهيم المجتمع عن الكون والحياة لازالة ما تراكم من تصورات خاطئة عبر قرون طويلة - وكان هذا البعث الحضارى يتطلب بالطبع بعض الوقت - ولذلك غاب الاتجاه الاسلامى الحقيقى عن الساحة حتى سنة ١٩٣٦ وقبل ذلك ظهرت صور هزيلة من التنظيمات[1] نسبت

---

(١) بسبب الهجمة الغربية (وبالذات بعد سقوط الخلافة) فقد تأسس أو اعيد تأسيس ١٣٥ جمعية اسلامية" اختلفت - ظاهريا - فى برامجها ووسائلها الا أنها التقت فى معظم الامور وفى مقدمتها المطالبة بتطبيق الشريعة" ص٦٧ من دكتوراه زكريا سليمان بيومى : الاخوان المسلمون والجماعات الاسلامية فى الحياة السياسية المصرية (١٩٢٨ - ١٩٤٨) دكتوراه فى التاريخ الحديث من جامعة عين شمس (١٩٧٨) نشرتها مكتبة وهبة (١٩٧٩).

الى الاسلام مثل " الرابطة الشرقية" التى تأسست سنة ١٩٢٢ بسبب تضعضع مركز الخلافة وقد خلطت الرابطة بين ما هو اسلامى وما هو شرقى وما هو عربى وكان يرأسها الشيخ البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية وكان نائبه رشيد رضا وكان من أعضاء الرابطة محمد بخيت شيخ الازهر وضمت الرابطة أتراك وايرانيين وبعض النصارى - ويؤثر عن رشيد رضا قوله " ان الجامعتين الشرقية والاسلامية تعزز احداهما الاخرى ولا تنافيها - وان جمال الدين الافغانى دعا اليهما معا" .

وفى سنة ١٩٢٧ انشئت جمعية الشبان المسلمين برئاسة عبد الحميد سعيد عضو الحزب الوطنى - وساهم فى نشاطها اسلاميون حقيقيون مثل حسن البنا والشيخ عبد العزيز جاويش واسلاميون منحرفون مثل رشيد رضا ومحب الدين الخطيب - وبعض الاشخاص المتعاطفين عن غير عقيدة اسلامية حقة - وقد فتحت فروع للجمعية بسرعة فى فلسطين وسوريا والعراق .

وفى سنة ١٩٢٨ تأسست "الاخوان المسلمون" بمبادرة من ستة من العمال (نجار وحلاق ومكوجى وسائق وجناينى وعجلاتى) - وساعد على انتشارها شعور الانسان المصرى بالمهانة فى منطقة قناة السويس وكذلك استفحال ووقاحة التنصير - ومنذ ١٩٣٢ بدأت الحركة تفصح عن بعض آرائها السياسية - وفى مؤتمرها الثالث (١٩٣٥) اتخذت قرارات تنظيمية هامة أوضحت الطابع السياسى للجماعة - وفى يناير ١٩٣٧ عرض الاخوان برنامجا اصلاحيا من ٥٠ نقطة تضمن الغاء الحزبية وتطبيق الشريعة - وعندما بلغ عدد شعبها ثلاثمائة - اتخذت الاخوان اتجاها سياسيا سافرا وأصدرت فى مايو ١٩٣٨ مجلة النذير (سياسية - اسبوعية) (١) وأعلن حسن البنا فى افتتاحيتها أن الاخوان سينتقلون من " دعوة الكلام وحده الى دعوة الكلام المصحوب بالنضال والاعمال" وقال للاخوان" انهم لم يكونوا فى الماضى يخاصمون أى حزب أو هيئة ولا ينضمون اليه أما الان فستخاصمون هؤلاء جميعا

---

(١) شككت المجلة منذ البداية فى شرعية الدستور المصرى ففى اغسطس ١٩٣٨ وصفت الدستور المصرى بأنه" ثوب أجنبى" وهى اشارة الى كلمة أحد واضعى الدستور " ان الدستور ثوب فضفاض"

في الحكم وخارجه خصومة شديدة لديدة ان لم يستجيبوا لكم" وأعلن أيضا أن " الاسلام عبادة وقيادة ودين ودولة وروحانية وعمل وصلاة وجهاد وطاعة وحكم ومصحف وسيف" فحق للجميع أن يتساءلوا فيما سيستعمل السيف والى صدر من سيوجه (١) .

لقد ساعد على انتشار الافكار الاسلامية عدة عوامل :

(١) الاهتمام بقضية العدالة الاجتماعية : حيث كان نموذج الخلافة الراشدة يطرح كثيرا - ليس فقط من جانب الاسلاميين ولكن من جانب غير الاسلاميين كالعقاد في كتاباته : العبقريات و محمد حسين هيكل الذي جعل صحيفته السياسة بوقا للدعوة الفرعونية ثم عاد الى الاسلام وكتب حياة محمد - ١٩٣٥ وفي منزل الوحي - ١٩٣٦ - حتى ان طه حسين نفسه بدأ يكتب في الاسلام .

(٢) فظائع الاستعمار ضد المجاهدين المسلمين في الريف المغربي وفي ليبيا (اعدام عمر المختار سنة ١٩٣١ واستمرار المقاومة السنوسية حتى ١٩٣٧) وفي فلسطين (ثورة البراق سنة ١٩٢٩ والثورات المتكررة بعد ذلك وجهاد الشيخ عزالدين القسام حتى مقتله سنة ١٩٣٥) .

(٣) لكن العامل الجوهري في توسع الفكر الاسلامي هو بلا شك شعور الشعب المصري بضرورة العودة الى الذات - وكان اكثر الذين شعروا بذلك هم البسطاء والطيبون الذين لم تستطع المدينة أن تغربهم .

وساعد على المد الاسلامي في الثلاثينيات أن الوفد لم يحكم طوال ١٤ عاما (٢٨ - ١٩٤٢) الا ٢٦ شهرا فقط - وبالتالي فان دوره التخريبي في احتواء المد الجماهيري لم يكن فعالا طوال هذا العقد - كما أن حسن البنا أفلح في استغلال تناقضات السياسة الحزبية لتوسيع الجماعة .

---

(١) طارق البشرى : الحركة السياسية في مصر (١٩٤٥ - ١٩٥٢) ط دار الشرق ١٩٨٣ ص ٥٢

ومع تضخم حجم تنظيم الاخوان كان لابد من الدخول فى مرحلة التخطيط للاطاحة بالنظام واقامة النظام الاسلامى ـ وهكذا انشئت تشكيلات الجوالة التى كان الانضمام اليها مقدمة ضرورية لتهيئة الاخ المسلم للانضمام الى التنظيم السرى (الذى تأسس حوالى ١٩٤٠ وسمى بالنظام الخاص) .

* وفى محاولة للبحث عن العدالة نشأت جمعية مصر الفتاة (١٩٣٣) وكان معظم أعضائها من الطلبة والموظفين واضطربت أفكارها اضطرابا عجيبا جدا ما بين الاسلام والعروبة والوطنية ولم تستقر على مفهوم واحد طوال تاريخها ـ وان كان هذا يدل على شدة توتر مؤسسها (أحمد حسين) واخلاصه فى السعى لمحاربة الاستعمار ـ لقد تأثر أحمد حسين بالشعور القومى العنيف الذى اجتاح بعض دول أوربا فى الثلاثينيات وكان برنامج مصر الفتاة (١٩٣٣) يشمل فقرات كاملة نقلت حرفيا عن برنامج تنظيم ايطاليا الفتاة الذى ساهم فى تحقيق وحدة ايطاليا فى القرن الماضى ـ واتخذت الجمعية عدة شعارات مثل (الله ـ الوطن ـ الملك) ـ (مصر فوق الجميع) ـ (كلمة مصر هى العليا) وأعلنت الجمعية فى البداية أن هدفها " انشاء امبراطورية عظيمة تتألف من مصر والسودان وتحالف الدول العربية وتتزعم الاسلام " وقد دعت أيضا الى طرد الاجانب من مصر بالقوة والى تمصير الاقتصاد والى اصلاحات اجتماعية (١) ودعت الى تشجيع الاديان : الاسلام والمسيحية واليهودية باعتبارها جزءا متمما للوطنية ـ وقال أحمد حسين (خطتى أن نرتقى بالعقيدة القومية الى مصاف العقيدة الدينية فتصبح مقدسة جليلة) وقال فتحى رضوان سكرتير الحزب (دعوتنا تتخذ أسلحتها من الاديان : من الاسلام والمسيحية) وكتب مقالات امتدح فيها تجربة أتاتورك ـ وفى ١٩٣٧ تحولت الجمعية الى حزب قال فى برنامجه الجديد (يجب أن نشعل القومية المصرية ويجب أن تصبح كلمة المصرية هى العليا) وقال أحمد حسين فى أحد مبادئه العشرة (احتقر كل ما هو أجنبى بكل نفسك وتعصب لقوميتك الى حد الجنون) ـ وبدأ

---

(١) انظر : على شلبى : مصر الفتاة ودورها فى المجتمع المصرى (١٩٣٣ ـ ١٩٤١) ماجستير فى التاريخ من آداب عين شمس ١٩٧٥ .
نشرته دار الكتاب الجامعى ـ ١٩٨٢

الحزب فى عملية تعبئة شاملة لاعضائه وفى تسيير مظاهرات تهتف هتافات صاخبة وتطالب بتطبيق الشريعة ـ وكان ذلك بتأثير الاخوان بلا شك ـ ولكن الحزب كان أكثر ثورية من الاخوان عندما قامت بعض عناصره بتحطيم الخمارات والمواخير ـ وفى سنة ١٩٤٠ أعيد تسمية الحزب باسم الحزب الوطنى الاسلامى وأطلق أعضاؤه على الملك (أمير المؤمنين) وحاول الحزب الوحدة مع الاخوان ففشل ـ فقد اعتبرهم حسن البنا" لم ينضج فى نفوس الاعضاء بعد المعنى الاسلامى الصحيح نضجا يؤهلهم للمناداة بالدعوة الاسلامية خالصة سليمة"(١) ولذلك عاد الحزب الى اسمه القديم (مصر الفتاة) بعد شهرين فقط ـ وكانت أعمال الحزب الثورية وانحيازه للجماهير المستضعفة ودعوته لتطبيق الشريعة سببا فى خروج الاقباط منه (على قلتهم) ـ ولكن الحزب فيما بعد مال الى الافكار الاشتراكية ثم تبنى القومية العربية عندما راجت سوقها .

* * *

القوى المعادية للجماهير (١٩٣٦ - ١٩٤٥)

كان لابد للقوى الشيطانية أن تطور أساليب جديدة لمواجهة الزخم الجماهيرى ـ وفى هذا الاطار تحركت على محورين :

(١) استخدام الوفد : اذا وصل المد الجماهيرى الى نقطة يصعب بعدها السيطرة على زمام الموقف(٢) ـ وهكذا تحركت الدبابات البريطانية وحاصرت قصر

---

(١) أعرب الاخوان عن سخطهم بسبب هتافات الحزب (الله أكبر والمجد لمصر) وبسبب امتداح أتاتورك وهدى شعراوى ـ لكن عندما اتهم أحمد حسين بالعمل لقلب النظام وإقامة" نظام يرتكز على الاسلام" فقد وقف الاخوان بجانبه وأعلنوا أن التهمة يجب أن تشملهم أيضا وكتبت النذير (ديسمبر ١٩٣٨) تحت عنوان " قلب النظام الدستورى هو ما يعمل له الاخوان " .

٢ ـ اثبت الباحث محمد علاء الدين على شوقى أن تدخل الانجليز هو الذى أعاد مصطفى النحاس الى الحكم سنة ١٩٣٠ ، ١٩٣٦ وبالطبع سنة ٤٢ وأنه لو ترك القصر حرا بدون ضغط من الانجليز لما تولى النحاس .
راجع محمد علاء الدين
Mustafa Al Nahas , A case study of Egyptian Political Leadership
معهد الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن (١٩٨٥)

عابدين (حادث ٤ فبراير ١٩٤٢) وأجبرت الملك على تكليف مصطفى النحاس بتشكيل الوزارة والا عزل الملك نفسه (١) ـ وكانت هذه أكبر وصمة في تاريخ الوفد (٢) ـ لكن الوفد لم يكن مؤهلا على المدى الطويل لتنفيذ دوره ـ فقد بدأ يتفسخ من الداخل بسبب الاحقاد والصراعات الشخصية ففي ١٩٣٧ انشق أحمد ماهر وكون الحزب السعدى وفي ١٩٤٢ انسحب مكرم عبيد الرجل الثاني في الوفد وشكل حزبا جديدا (الكتلة الوفدية) كما خسر الوفد كثيرا عندما كشف عن هويته الحقيقية بعد مؤتمر مونترو وتغيير التشريعات في مصر ـ فعندما تصاعدت الدعوة آنذاك لاتخاذ الشريعة نظاما قانونيا لمصر ـ فقد تصدى الوفد لها ـ لان ذلك " لن يرضى الاجانب" ثم أصر الوفد على فصل الدين عن السياسة وعارض أن يعمل شيخ الازهر بالسياسة وفي هذا الصدد اتهمت صحيفة وفدية شيخ الازهر بأنه " لا يفهم شيئا من أمور الدين ولا يراعى وجود

---

(١) كان نص الانذار الانجليزى الذى قدم للملك " اذا لم أعلن قبل السادسة مساء أن النحاس باشا قد دعى لتأليف الوزارة فان الملك فاروق يجب أن يتحمل تبعات ما يحدث" ـ ولما لم يصل رد من فاروق حاصرت الدبابات البريطانية قصر عابدين في التاسعة مساء ودخل السفير والقائد العسكرى البريطاني وثمانية ضباط يحملون المسدسات ـ وبسبب هذا الحادث قام الضابط شبانة من خفر السواحل بالقاء حذائه في وجه مصطفى النحاس عند خروجه من مسجد الرفاعي بعد الصلاة .

(٢) ولكن اذا لم تستح فاصنع ما شئت ـ لقد ظهرت تبريرات وقحة لموقف الوفد فيؤكد فؤاد سراج الدين على أن النحاس كتب للملك في خطاب تشكيل الوزارة " لقد طلبتم منى جلالتكم المرة تلو المرة والكرة تلو الكرة أن أؤلف الوزارة " وقد برر ابراهيم فرج الموقف تبريرا مشابها .

الاقباط ويريد تفرقة الامة"![1]

وبسبب ثورة العمال فى يوليو ١٩٣٦ ومقتل المئات منهم وثورة حامد سليم واحتلاله مصنع سكر الحوامدية ومحاكمته البشعه وسقوط عشرات العمال قتلى فى مايو ١٩٣٨ عندما تجمع جميع عمال مصر فى بنها محتجين على الظلم - بسبب ذلك حاول الوفد احتواء العمال[2] والفلاحين فصدرت عدة تشريعات مثل قانون العمل الفردى وسمح بانشاء نقابات للعمال وخفضت الضريبه على صغار المزارعين وأقرت مجانية التعليم .

(٢) تشجيع الحركة الشيوعية : كانت الشيوعية كفكرة قد ظهرت فى مصر على يد النصارى - ويعتبر شبلى شميل (١٨٦٠ - ١٩١٧) أبو الاشتراكيين العرب - ثم حاول نشر الشيوعية فى مصر لبنانيان نصرانيان هما فرح أنطون (١٨٧٤- ١٩٢٢) ونقولا حداد [3] - ثم تابع جهود هما كل من بندلى جوزى (نصرانى فلسطينى) وسلامة موسى (قبطى) - وبالطبع لم يعرهم أحد اهتماما .

وبعد ثورة ١٩١٩ تأسس حزب شيوعى صغير على يد تاجر ذهب ايطالى يهودى (جوزيف روزنتال) لكن سعد زغلول حل الحزب سنة ١٩٢٣ مستغلا اضرابات وقعت بالاسكندرية (حيث يكثر العمال الاجانب) - ولذلك فان البداية الحقيقية للشيوعية فى مصر ترجع الى أوائل الاربعينيات حين ظهرت حلقات ماركسية فى كل من القاهرة والاسكندرية فى شتاء ٤١ / ٤٢ وصارت بعد ذلك نواة لتنظيمات صغيرة ومتشرذمة تخطىء بعضها بعضا .

---

(١) عند هذا الحد أصبح تطاول الوفد يفوق الاحتمال فهاجمتهم مجلة الاخوان ووصفت زعماءهم بأنهم :

قوم اذا صفع النعال وجوههم شكت النعال لأى ذنب تصفع

لكن البنا استنكر ذلك لانه لم يعتبر ذلك اخلاقيا .

(٢) راجع: محمد السعيد ابراهيم ادريس : حزب الوفد والطبقة العمالية فى مصر (١٩٢٤-١٩٥٢) ماجستير فى السياسة من جامعة القاهرة ٨٠.

(٣) يذكر الدكتور يونان لبيب رزق أن هؤلاء" لم يكونوا يمثلون سوى أنفسهم تقريبا" راجع : د . يونان لبيب رزق : الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى (١٨٨٢-١٩١٤) الانجلو ١٩٧٠ ص ٥٠

لقد كان معظم مؤسسى وقيادات التنظيمات الشيوعية فى مصر من اليهود الذين كانوا يعملون فى نفس الوقت لحساب الحركة الصهيونية [1] - وقد دعمهم الانجليز لانهم معادون للنازية حيث كان موقف الانجليز حرجا فى مطلع الحرب العالمية - ولذلك يصدق التحليل القائل بأن اليسار المصرى كان عميلا للصهيونية أكثر من عمالته لروسيا - فضلا عن ذلك كان الشيوعيون يقسمون القوى السياسية المصرية الى ما سموه فاشية وديمقراطية وطبقا لتعريفاتهم فان القوى الفاشية هى القوى الجماهيرية (الاخوان - مصر الفتاة) أما القوى الديمقراطية فهى الوفد [2] والشيوعيون - وقد دعا الشيوعيون دائما الى تحالف وفدى شيوعى لمواجهة الفاشية - ولذلك كانت أفكارهم فى التحليل الاخير تخدم خطط الاستعمار .

ولكن يجب ألا نعتقد أن الحركة الشيوعية كان لها وزن - بل ان ما حققته من اثارة للضجيج حولها كان على يد أعدائها الذين أعطوها حجما أكبر من حجمها - وقد اعترف أحد مؤسسى التنظيمات الشيوعية لمؤرخ الحركة الشيوعية فى مصر رفعت السعيد [3] بأن المنظمات الشيوعية سطحية لانها تفتقر الى تراث مصرى فكرى حر ولانهم اكتفوا بترجمة الافكار ونقل الآراء الصادرة فى

---

(١) فى الحقيقة ان اليهود قد أسسوا ومولوا كل الاحزاب الشيوعية فى العالم العربى وليس فى مصر وحدها . انظر مثلا : التاريخ السرى للعلاقات الشيوعية الصهيونية : نهاد الغادرى - دار الكاتب العربى - بيروت ١٩٦٩ ص ١٥٨ وما بعدها .

(٢) بسبب تلقين الشيوعيين المصريين لكل ما يصدر عن روسيا دون مناقشة - فقد تبنوا ما قرره مؤتمر الكومنترن الثانى (١٩٢٠) من أن البلاد المستعمرة تمر بثورة من مرحلتين : ١ - ثورة الاستقلال وتهدف الى اقامة ديمقراطية بورجوازية وتقوم بها البورجوازية ، ٢ - الثورة الاجتماعية وتهدف الى اقامة ما يسمى بدكتاتورية البروليتاريا وتقوم بها البروليتاريا - ولم يتسع أفقهم لامكانية انجاز الثورتين فى وقت واحد - وهكذا حالف الشيوعيون أشد القوى تواطؤا مع الغرب (الوفد) .

(٣) رفعت السعيد : تاريخ المنظمات اليسارية فى مصر (١٩٤٠ - ١٩٥٠) دار الثقافة الجديدة ١٩٧٦ ص ٣٠٤

بلاد تختلف وضعيتها عن وضعيتنا - وبسبب افلاسهم حاولوا تأليف تنظيم ماركسى" يلتزم بتعاليم الاسلام " (١)

مرحلة (١٩٤٥ - ١٩٤٩)

انتهت الحرب العالمية بانتصار الحلفاء (بريطانيا - فرنسا - أمريكا - روسيا) - ومثلما حدث بعد الحرب العالمية الاولى - رفض الانجليز المطالب الوطنية بالانسحاب وماطلوا فى المفاوضات التى دارت لعقد معاهدة جديدة بدلا من معاهدة ١٩٣٦ (بعد زوال الخطر الالمانى وانتفاء مبررات الخوف البريطانى) - فاندلعت أروع أعمال العنف (مظاهرات - اضرابات - اغتيالات للانجليز والخونة - أعمال نسف) - وازداد الامر تفاقما بسبب الحاح قضية العدالة الاجتماعية (٢) - ولكن نكبة فلسطين كانت القاصمة فى انهاء مرحلة - ودخول النظام مرحلة قبل السقوط .

لقد كانت السمة الرئيسية لمرحلة ٤٥ - ٤٩ هى تجاوز الجماهير فى ثوريتها لكافة أشكال التنظيمات والحركات الجماهيرية - وصحيحة هى مقولة طارق البشرى(٣) " ولولا الحرص على عدم التعجل فى اصدار الاحكام العامة لأمكن القول بأن احدى سمات الحياة السياسية المصرية خلال هذا القرن هى ضخامة حركة الشعب عند اشتعالها وعلوها عن أن تلحق بهامتها التنظيمات السياسية برغم الاثر الفعال لهذه التنظيمات فى الاشتعال الحاصل" - لقد بلغ المد الشعبى حدا أن أضرب البوليس على امتداد مصر كلها فى اكتوبر ١٩٤٧ وفى مارس ١٩٤٨ .

---

(١) رفعت السعيد : م . س . ذ ص ص ٣٥٧ - ٣٥٩

(٢) لقد انخفضت القيمة الحقيقية لمتوسط دخل الفرد فى مصر من ١٢ جنيها فى ١٩٣٩ الى ٨ جنيهات سنة ١٩٤٩ - عن ظروف تشغيل العمال بلا رحمة راجع طارق البشرى م . س . ذ ص ص ٢٠٨ - ٢١١

(٣) م . س . ذ ص ١١١

كان الاخوان قد بلغوا ذروة قوتهم فى ذلك الوقت وأصبح لهم ٢٠٠٠ شعبة وقد غطت نشاطاتهم جميع قرى مصر وبلغ عدد الاعضاء العاملين فى التنظيم نصف مليون وأضعاف هذا الرقم من المؤازرين والمنتسبين ـ ووصل عدد الجوالة الى ٢٠ ألف والتنظيم السرى الى ٢ ـ ٣ آلاف(١) ـ وكان للاخوان مدارس ومستشفيات وترسانة عسكرية (٢) ومصانع و شركات وكانوا متغلغلين فى الجيش والشرطة وكان التنظيم السرى يملك اذاعة سرية ـ وبطبيعة الحال كانت لحسن البنا أفكار محددة لاقامة نظام اسلامى ـ وفى اغسطس ١٩٤٧ اتحدت الهيئات الاسلامية (الاخوان ـ شباب محمد ـ الجمعية الشرعية ـ أنصار السنة ـ ٦ جمعيات أخرى) وعرضوا برنامجا مفصلا تضمن تطبيق الشريعة واصلاح التعليم والزام النساء بالحجاب وتشغيل العاطلين وتصنيع البلاد والرقابة على وسائل الاعلام ومحاربة العصبيات الحزبية والمذهبية ومحاربة البدع والخرافات .

---

(١) هذا الرقم يمثل حجم التنظيم السرى عند قرار الحل سنة ١٩٤٨ (حيث ضبطت فى وثائقه خطط مفصلة للسيطرة على الحكم) ولكن حجمه عند الصدام مع العسكريين سنة ١٩٥٤ كان يتراوح بين عشرة آلاف (تقدير يوسف طلعت) و ١٣ ألف (تقدير ابراهيم الطيب).

(٢) حسب شهادة اللواء المواوى فى محاكمات الاخوان (١٩٤٨) فقد استعار الجيش المصرى من الاخوان بعض الذخائر والالغام التى كان الجيش يفتقد اليها .

ويرى باحث علمانى أن قوة الاخوان هى التى " أجبرت الحكومة المصرية على دخول حرب فلسطين رسميا بعد أن كانت تريد دخولها مجرد شعارات " . عبد الهادى عبد الحكيم : الدور السياسى لحركة الاخوان المسلمين فى المجتمع المصرى (٣٦ - ٥٢) ماجستير فى السياسة من جامعة القاهرة (١٩٨٠) ص ٢٤٠

لقد كشفت حرب فلسطين [1] للاعداء مبكرا عن الحجم الحقيقى للاخوان (مما يهدد ليس فقط النظام المصرى ولكن أيضا الهدنة مع اسرائيل) - وانهالت التقارير على الدوائر الغربية واليهودية فاجتمع قناصل بريطانيا وفرنسا وأمريكا فى قاعدة فايد فى نوفمبر ١٩٤٨ وقدموا لحكومة النقراشى طلبا يحثونه فيه على حل الجماعة وهددوه باحتلال القاهرة والاسكندرية اذا لم يمتثل - وبالطبع فعندما اتسع حجم العضوية بالجماعة كان محتملا أن تحدث تجاوزات عن السياسة المرسومة والمعلنة - وكانت هذه التجاوزات هى الذريعة

---

(١) كان ٩٥٪ من المتطوعين المصريين فى حرب فلسطين من الاخوان - وقبل ذلك كان محمود لبيب (وكيل الاخوان) قائدا لمنظمة شباب فلسطين (١٩٤٧) حيث شكل جيشا ضخما من الفلسطينيين - ولكن اليهود أفلحوا فى استصدار قرار انجليزى فى اخراجه من فلسطين.
ولما رفضت الحكومة المصرية دخول الحرب قاموا بالتسلل الى فلسطين قبل جلاء الانجليز عنها بعدة شهور وبعد ذلك (وفى ١٢ يوما فقط) سيطر الاخوان على النقب (٦٠٪ من مساحة فلسطين) ثم احتلوا بيت لحم ورامات راحيل من ضواحى القدس - وعندما دخل الجيش المصرى فلسطين وتعرض لعدة ورطات فقد كان الاخوان يقيلونه كل مرة من عثرته بل ان الاخوان "تولوا حماية الجيش المصرى من هجمات اليهود" (زكريا سليمان - دكتوراه س. ذ ص ٢٥١).
لقد استشهد اكثر من مائة من الاخوان فى حرب فلسطين (فى حين كان قتلى الجيش المصرى ٩٧)
وقد أعرب مندوب الصليب الاحمر عن دهشته لانها المرة الاولى فى مدة خدمته الطويلة التى وجد فيها القتلى يتلقون الرصاص فى صدورهم.
راجع أيضا: كامل اسماعيل الشريف: الاخوان المسلمون فى حرب فلسطين. مكتبه وهبة د. ت.

التى اتخذتها حكومة النقراشى (١) لحل الجماعة فى ديسمبر ١٩٤٨ وتلا ذلك عملية ضخمة لتصفية التنظيم السرى (٢) ـ لكن النقراشى أخذ جزاءه فورا (يناير ١٩٤٩) فردت الحكومة باغتيال حسن البنا يوم عيد ميلاد الملك(٣) (فبراير ١٩٤٩) فرد الاسلاميون بمحاولة نسف ابراهيم عبد الهادى رئيس الوزراء (٤) لكن المحاولة فشلت (مايو ١٩٤٩) ـ وكان قرار حل الاخوان هو بداية تحول المنحنى من الذروة الى اتجاه الهبوط فى تاريخ الاخوان كله .

وفى تقييمنا لاداء الاتجاه الاسلامى فى تلك الفترة يقتضينا الانصاف أن نشير الى عدة حقائق :

١) ان ما أسهم به الاخوان لم يتناسب مع حجمهم ـ وان تفضيلهم اسلوب التربية الاخلاقية دون ربطها بالنضال السياسى والصدام قد أعطى الفرصة لاحزاب عميلة (مثل الشيوعيين) لاتهامهم بالتقاعس .

---

١) وان كان انحياز الاخوان الى الفلاحين واستخدامهم القوة فى التصدى للاقطاع فى الريف قد اتخذ أيضا ذريعة للحل .

٢) من المثير للسخرية أنه بينما كان الاخوان يعذبون بعد قرار الحل ـ فقد اشترك بعضهم فى استرداد التبة ٨٦ الشهيرة ـ وأصر قائد الجيش المصرى فى فلسطين على تحدى الحكومة وأعطى متطوعى الاخوان أوسمه عسكرية . فكأن الحكومة قد اعترفت بأنهم أبطال ومجرمون فى نفس الوقت .

٣) وفى ذلك يقول جابر رزق "لا يوجد فى تاريخ مصر السياسى جريمة اغتيال سياسى تحالفت فيها القوى العالمية مع القوى المحلية ـ الملك والحكومة معا ـ الا هذه" راجع بعض الوثائق بخصوص اغتيال حسن البنا فى :

جابر رزق : الاسرار الحقيقية لاغتيال حسن البنا ـ ص ٦٢/٦٣ .

٤) كان ابراهيم عبد الهادى قد منع جنازة لحسن البنا ـ وفى نفس الوقت كان هو المصرى الوحيد الذى اشترك فى الصلاة على روح ملك انجلترا .

٢- رغم أن الاخوان عارضوا دائما مفاوضات الجلاء وعارضوا كل مشروع لا يحقق الجلاء الفورى (١) - الا أنهم لم تكن لديهم (أو بالاحرى لم يكن لدى حسن البنا) رؤية واضحة عن العدو الداخلى - بدليل وقوف الاخوان خلف صدقى والنقراشى - عندما كانا يتفاوضان (٢) (حيث اعتقد الاخوان أن هذا الموقف يدعم موقف المفاوض المصرى) - وقد أعطى هذا انطباعا بأنهم يرتضون المفاوضات كمنهج (٣) - ومن بديهيات التصور الاسلامى أن مايسمى بالمفاوضات فى أى شئ وفى أى زمان ومكان هو أمر مرفوض من أساسه .

٣- وردا على ذلك - وبسبب خلل هيكلى فى تنظيم الاخوان - تبلور من داخل الاخوان اتجاه اسلامى أصولى جذرى (شباب محمد منذ ١٩٤٠) وأخذ على الاخوان افتقاد الشورى فى الجماعة والعمل تحت لواء الحاكمين بغير ما أنزل الله (ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار) وقبولهم اعانات

---

١) مثلا قام الاخوان بتفجير قنابل فى ستة من أقسام الشرطه بالقاهرة فى ١٩٤٦ لاجهاض مشروع صدقى / بيفن حيث استقالت وزارة صدقى على الفور - ثم قاموا بشن حرب عصابات وباحراق المحلات الانجليزية وباقامة مناسبات لاحراق أكوام من الكتب الانجليزية فى الشوارع وكان ذلك - مع المظاهرات الشعبية - سببا فى جلاء الانجليز عن القاهرة والاسكندرية عام ١٩٤٧ .

٢) لطالما استغلت الاحزاب العميلة (الوفد - الشيوعيون) هذه المواقف لتشويه الاخوان - رغم أن أى متابع لاحداث تلك الفترة يتمتع بأقل قدر من احترام نفسه سيدين الوفد بالذات - وقد استخلص زكريا سليمان فى رسالته للدكتوراه (م . س . ذ ص ٣٢١) "اشترك الاخوان فى كافة الاعمال المعادية لحكومتى صدقى والنقراشى وأن صدقى لم يتمكن بما منحه لجماعة الاخوان من مساعدات أن يضرب بها الحركة الوطنيه كما أن رفضها العمل تحت زعامة الوفد أو الشيوعيين كان وراء الحملة التى وجهت اليها فى هذه الفترة - تلك الحملة التى لم تكن تقويما حقيقيا لدورها بقدر ما كانت تعبر عن حرص الوفد على زعامة الحركة الوطنيه"

٣) رغم أن الاخوان فى كل مرة كانوا يؤكدون على أن فشل المفاوضات يجب أن يتبعه تعبئة كل الشعب "للجهاد "وطبعا كان فشل المفاوضات أمرا متوقعا من جميع القوى السياسية .

من وزارة الشئون الاجتماعية ولأن مرونة الجماعة سمحت بعضوية بعض من تشوب أخلاقهم شائبة ولان صحف الاخوان تنشر اعلانات عن السينما والملاهى ولان من أعضائها من يعتقد القومية العربية والوحدة العربية .

ودعت شباب محمد الى " التطرف" (١) واعتبرته " صفة ملازمة للمجاهد الصادق والدعوة الصادقة حيث لا يخشى فى الحق لومة لائم"كما دعت الى " مقاطعة كل ماهو أجنبى والثورة الشاملة على الانجليز" ولكن بسبب اهتمام التنظيم بتربية العقائديين فانه لم ينتشر كثيرا ولم يكن ليقارن بالاخوان فى حجمه ـ وفيما بعد اشترك كثير من اعضائه (ومنهم حافظ سلامة) فى المعارك ضد الانجليز فى منطقة السويس .

* وبالنسبة لمصر الفتاة فقد صرح أحمد حسين (٢) بأنه قرر فى ١٩٤٧ الاندماج فى الاخوان تحت زعامة (كذا) حسن البنا" بعد أن ثبت أنه من أنجح من شهدته هذه البلاد فى تنظيم الجموع وحشدها وليس لنا شرط أو مطالب فنحن نضع أنفسنا تحت تصرفه كجنود " ورغم أن البنا وافق ـ فان جميع أعضاء مكتب الارشاد رفضوا (ولعلهم تخوفوا من أحمد حسين الذى لم يثبت على رأى أبدا) وقد أدى هذا الى سخط بالغ لدى أحمد حسين وقال للبنا" لقد أصبحت مؤمنا الآن أن حركتكم غامضة هدامة " .

لكن أحمد حسين استمر على بلبلته الفكرية ففى ١٩٤٧ سافر الى أمريكا وامتدحها وأعلن عداءه لروسيا الشيوعية وأرسل برقية من ألف كلمة الى رئيس أمريكا أيد فيها مساعداته للنظامين التركى واليونانى ضد الحركات الشيوعية وطالب بأن تساعد أمريكا مصر فى سعيها للاستقلال !! ـ ولكن بعد شهور

---

١) راجع مقال رئيس شباب محمد بمجلة النذير (١٠ / ٤ / ١٩٤٠) بعنوان "الدعوة المتطرفة هو ما يجب أن يعتصم به المسلمون فى كفاحهم "ـ لقد تحولت مجلة النذير للتعبير عن شباب محمد بعد انضمام صاحبها للجماعة ـ وهذه المجلة (من ١٩٤٠ الى ١٩٤٨) تعطينا فكرة جيدة عن نشأة الاصولية الاسلامية فى مصر وممارساتها .

٢) فى مذكراته واحترقت القاهرة ص ص ١٣٥ - ١٤١ .

خذلت أمريكا مصر بينما صوتت روسيا وبولندا لصالحها في مجلس الامن فما كان من أحمد حسين الا أن ذهب الى سفارتي روسيا وبولندا يشكرهما - ولكن الحقيقة الثابته أن كل ماقام به مصر الفتاه تم بجهود ٢٠٠ شخص فقط (حسب تصريح أحمد حسين شخصيا) [1] وان الحزب لم يكن له أى تواجد فى الريف .

* * *

كانت القوى الشيطانية فى تلك الفترة (أى فترة ٤٥-٤٩) تعتقد أن طريق القمع أفضل من طريق الديمقراطية فى التصدى للمد الشعبي - ولذلك حكمت مصر بائتلاف من السعديين - الاحرار - الكتلة الوفدية (وكان القصر من ورائهم) ورغم استخدام أقصى درجات القمع فان المد الشعبى قد تصاعد وقوبلت تصريحات رؤساء الوزارة بالسخرية من الشعب دائما [2] - وفى غضون ذلك عملت القوى المعادية للجماهير على محورين :

١- الضغط على الحكومة باستغلال المظاهرات الشعبية عليها تفسح للوفد ويعود الى الحكم .
٢- مساعدة الحكومة اذا تعلق الامر بالتصدى للثورة الاجتماعية .

وبالنسبة للنقطة الاولى فقد طبعت تلك الفترة بتحالف وفدى شيوعى (خاصة وأنه قد تأسس تنظيم يسارى داخل حزب الوفد : الطليعة الوفدية ١٩٤٧) وتبودلت المقالات الصحفية بين صحف الطليعة الوفدية والشيوعيين - وفى مايو ١٩٤٧ اتهم حسن البنا الوفد بالتستر على الشيوعيين وهددهم" بأن لهم يوما قريبا ان لم يفيئوا الى رشدهم ويرجعوا عن غيهم " - وفى وقت ما تشكلت

---

١) فى لقائه مع طارق البشرى سنة ١٩٦٩ - عن البشرى م.س.ذ . ص ٤١٤

٢) مثلا عند ما قال النقراشى انه ينتظر الوقت المناسب لمفاوضة الانجليز دعاه الناس (رجل الوقت المناسب) وعند ما قال انه حقق خطوة باتجاه حل القضية الوطنية أطلق عليه (أبو خطوة) .

" اللجنة الوطنية للعمال والطلبة " وهى تحالف وفدى شيوعى هدف منه الأولون الى الضغط على الحكومة ـ وهدف الاخيرون الى الخروج من قوقعتهم الى الشارع ولكن اللجنه لم تعمر الا شهورا ولم يكن لها قيمة وكتبت صحيفة الشيوعيين (الفجر الجديد) تقول ان "الجماهير العمالية لاتتبادل الثقة مع اللجنة " وذكرت أيضا أن المظاهرات " لم تكن من تنظيم هيئة ولا خضعت لترتيب دقيق موجه ـ انما كانت انبعاثات أقوى من مجهودات التنظيم التى بذلت" .

ولكن اذا تعلق الامر بالقضية الاجتماعية فقد كان الوفد يقف مع أحزاب الاقلية (الحكومة)ـ وفى ١٩٤٨/٤/١٩ كتبت صحيفة المصرى داعية الى " اسقاط الجنسية المصرية عن كل شخص يكون منضما الى هيئة غرضها نشر دعاية شورية " ـ وكان الوفد فى ذلك الوقت قد صعدت الى قيادته عناصر من غلاة الاقطاعيين المتكبرين (مثل فؤاد سراج الدين) ـ وازداد من ثم ميلا للانجليز ـ ورغم انشاء الطليعة الوفدية داخله لمحاولة انقاذ الوضع المتردى فانها لم تستطع أبدا تخطى الاطار الذى رسمه لها الاقطاعيون .

أما الرديف الشيوعى فقد توحدت أغلب تنظيماته فى تنظيم (حدتو)[1] ١٩٤٧ ـ وكان هو القوة السياسية الوحيدة فى مصر التى أيدت قرار تقسيم فلسطين وعارضت دخول مصر الحرب ـ وقالت صحيفة الجماهير ان " اثارة حرب فلسطين اثارة لحرب دينية لايفيد منها سوى المستعمر " ودعت الصحيفة فى ٤٧/١٢/٢١ الى عدم محاربة اليهود لانه " لا يمكن تحرير فلسطين وظهورنا مكشوفة للعدو" ودعت الصحيفة لمواجهة الانجليز فى القناة والسودان واعتبرت أن حل مشكلة فلسطين يكون بالسعى " لايجاد جو من الالفه والثقة المتبادلة بين الجماهير

---

١) حسب تقدير رفعت السعيد (عضو التنظيم) فقد كان عدد أعضاء حدتو فى ذلك الوقت ١٦٠٠ منهم ٤٠٠ أجنبى .

الكادحة العربية واليهودية " وعندما تأسس الحزب الشيوعى المصرى (١٩٤٩) أيد بدوره قرار تقسيم فلسطين " مع ادانة كل من تسبب فى خلقه " (١)

وبالنسبة لقضية جلاء الانجليز عن مصر عارض الشيوعيون فى البداية فكرة الكفاح المسلح فقد كانت روسيا قددخلت مجلس الامن وهكذا قالت صحيفةالجماهير (١٩٤٧/٧/٢٨) " التشكيك فى مجلس الامن جريمة " .

أيضا كان الشيوعيون أول من دعالحلالاخوان - وتطوعوا - هم و الوفديون - لاعطاء حكومة النقراشى مبررات لحل الاخوان .

* * *

فى تلك الفترة أيضا بدأ انتشار أفكار القومية العربية فى مصر - ولعل قضية فلسطين منذ ١٩٣٦ كانت سببا فى ذلك - وبالطبع لم يقتنع أحد فى مصر بالقومية العربية - ولذلك انتشرت الفكرة العربية لا كعقيدة ولكن كوسيلة فى الصراع الذى اشترك فيه العرب فى فلسطين (٢) تماما مثلما نشأت الوطنية المصرية من خلال الصراع مع الاستعمار ولذلك تعايشت الفكرتان الوطنية والعربية جنبا الى

---

١) لقد أدان الاستاذ طارق البشرى الشيوعيين بما فيه الكفاية (وهو الذى طالما دافع عنهم قبل أن يتبين له الحق) - وقد دمغهم بالعمالة المباشرة للصهيونية ولما كان الاستاذ طارق البشرى كمستشار لا يلقى باحكامه جزافا فاننا الان فى غير حاجة الى تكرار ما أورده .
راجع مقدمة الطبعة الثانية (١٩٨٣) من كتاب الحركة الوطنيه فى مصر .
وقد أصر الشيوعيون على موقفهم من قضية فلسطين حتى الان ففى ١٩٧٤ نشر أحمد حمروش (المسئول السياسى فى حدتو وعضو الضباط الاحرار) الجزء الاول من كتابه "قصة ثورة ٢٣ يوليو" حيث اعتبر حرب فلسطين سببا فى "تراجع المسألة الوطنية والصراع الاجتماعى - وبروز هستيريا الدعاية الحربية" (ص ١٣٤) وتبريرا لرفض الحرب قال (ص ١٢٧) "ان فرصة النضال لتكوين دولة موحدة - أى عربية يهودية - كانت أكبر من فرصة فرضها بالقتال"
٢) عبثا حاولت كتابات كثيرة أن تثبت أنه كان لمصر اهتمام بالقضية العربية - ولكن حجج هذه الكتابات أثبتت العكس بسبب تهافتها - راجع مثلا : أحمد حمروش : قصة ثورة ٢٣ يوليو ج ٣ عبد الناصر والعرب ط بيروت ١٩٧٦ - وقد نشرته بعد ذلك دار الموقف العربى بمصر

جنب فى مصر (حتى سنة ١٩٥٦ على الاقل) أما فى البلاد التى نشأت فيها القومية كعقيدة (الشام والعراق) فقد كانت هناك حساسيات شديدة لكل ما من شأنه اثارة نزعة وطنية محلية - وكان بعض الشوام والعراقيين قد جاءوا الى مصر بسبب تضييق السلطات العسكرية عليهم فى بلادهم زمن الحرب - وكتب هؤلاء فى صحف مصر عن العروبة .

كانت حركة القومية العربية - كما هو معروف - قد نشأت فى مطلع هذا القرن فى عمالة شديدة للانجليز ولذلك عندما قام رشيد عالى الكيلانى بانقلابه فى العراق (١٩٤١) تخوف الانجليز من أن يتجه للالمان بعد أن أحبط الانجليز آمال القوميين العرب - وكان الوقت حرجا والالمان منتصرون فى الحرب - فأحبط الانجليز الانقلاب - وفى نفس اليوم الذى هرب فيه الكيلانى ٢٩/٥/٤١ أعرب ايدن وزير خارجية بريطانيا عن أن انجلترا ترى " وجوب تقوية الروابط الثقافية والاقتصادية بين البلاد العربية وكذلك الروابط السياسية" ثم تعددت التصريحات الانجليزية المشابهة - وكان ذلك بمثابة الضوء الاخضر أمام مصطفى النحاس الذى تحرك على الفور وبدأ المشاورات لتشكيل ما أصبح يسمى : جامعة الدول العربية .

لقد كان موقف الوفد من القومية العربية محددا منذ البداية - فقد رفض سعد زغلول الوحدة العربية واعتبرها " جمع أصفار" كما أن الوفد - رغم معارضته لقرار تقسيم فلسطين - عارض الكفاح المسلح ضد اليهود - وفى هذا الصدد رفض الوفد دخول مصر حرب فلسطين بحجة " احتمالات أن يطعن الانجليز مصر من الخلف " حسب استجواب سراج الدين للنقراشى فى البرلمان - ولكن النقراشى طمأنه بقوله " ان الانجليز هم الذين شجعونى على ذلك " .

كان الانجليز يهدفون من وراء انشاء الجامعة العربية أن يحكموا سيطرتهم على العرب من خلال منظمة واحدة - وأن يخترقوا النفوذ الفرنسى فى سوريا ولبنان وأن يخترقوا كذلك اليمن والسعودية - وفى اليوم التالى لتوقيع بروتوكول الجامعة - أى فى ٨/١٠/١٩٤٥ أقيلت وزارة الوفد كعادتها بعد تأدية دورها كل مرة .

النكبة الاولى وسقوط النظام اللبرالى (١٩٤٩ - ١٩٥٢)

* بسبب حرب فلسطين أساسا - ورغم مقتل حسن البنا ورغم مهادنة القيادة الاخوانية الجديدة - فقد ازداد المد الاسلامي - وطبقا للوثائق البريطانية التى أفرج عنها سنة ١٩٨٢ (١) - فقد " أعاد الانجليز الوفد بسبب قلقهم من انتشار الاتجاه الدينى واتساع نشاطه ضد البريطانيين والاجانب عموما " (٢) وبسبب اعتقادهم بتشجيع الملك لهم - وعجز رئيس الوزراء عن السيطرة عليهم وتأكد الانجليز أن حزب الوفد هو الوحيد الذى يستطيع أن يضع حدا للتعصب الدينى فى مصر " (٣) .

وتلخص هدى جمال عبد الناصر عوامل العداء الذى يكنه الانجليز لما تسميه (بالتيار الدينى) فى الاتى (٤) :

- " خشيتهم - أى الانجليز - من ارتباط اثارة النعره الاسلامية ضد كل ما هو بريطانى بالمعاداة للمسيحية وكل ما هو أوربى .

- " تنبهوا منذ البداية الى ما تضمنته ايديولوجية الاخوان المسلمين من أبعاد عربيه واسلامية تهدف الى نوع من الرابطة أو التكتل بين العالم العربى والاسلامى تكون مصر قاعدته وهو ماكان يحاربه الانجليز بشدة .

---

١) راجع رسالة الدكتوراه الخطيرة والقيمة جدا المبنية على الوثائق الانجليزية التى كشف عنها أخيرا : هدى جمال عبد الناصر : الرؤية البريطانية للحركة الوطنية المصرية (١٩٣٦ - ١٩٥٢) دكتوراه فى السياسة من جامعة القاهرة (١٩٨٥) (وينتظر أن تنشرها دار المستقبل العربى) .

ان النتائج التى توصلت اليها الباحثه (وهى ابنة عبد الناصر) ستؤدى الى نسف نتائج مئات الكتب والابحاث وكافة اشكال الشعوذة التى قامت بها القوى الحاقدة على الاسلام .

٢ - هدى : ص ٢٤٨ ٣ - هدى : ص ٢٤٩ ٤ - هدى : ص ٣٥٢

- " ساعد انتشار التيار الاسلامي بالسرعة التي تمت بها داخل البلاد بالاضافة الى فروعه في الدول العربية والاسلامية وتنظيماته السياسية والاقتصادية والعسكرية والتعليمية والشبابية .... الخ ، وكمية الاسلحة التي كانت في حوزتهم وبروز روح التطوع التي سادت بين شباب الاخوان والتي ظهرت في حرب فلسطين وفي اثناء الحركة الفدائية في منطقة القناة بالاضافة الى لجوء أعضاء الجماعة الى استخدام اساليب العنف والاغتيال ضد البريطانيين - ساعد كل ذلك في التأكيد على خطورة هذا التيار بالنسبة للتواجد البريطاني في مصر .

- " ومن هذا المنطلق كان من أهداف السياسة البريطانية دائما العمل على تقليص نشاط التيار الديني في مصر وقلق السياسيون البريطانيون من اتصال الملك بالاخوان بعد الحرب واهتموا بمتابعة أوجه نشاطهم بالتفصيل كما كان من الواضح ارتياحهم لمقتل حسن البنا خاصه وأنهم قدروا سنة ١٩٤٤ أن نقطة الضعف في الجماعة هي قيادتها فلايوجد شخص من اعضائها على نفس مستوى حسن البنا وله تأثيرة على أعضائها ".

وقبيل انقلاب ١٩٥٢ بشهور كان التقدير السياسي البريطاني أن "كتائب التحرير والتنظيم شبه العسكري للاخوان المسلمين تمثل أعلى مصادر الخطر على أمن القوات البريطانية وأمن النظام" (١).

* اما التيار الشعبي الثاني (مصر الفتاة) فقد ازداد ثورية بتشكيكه في شرعية الملك نفسه وفي ١٩٤٩ تغير شعار الحزب من (الله - الوطن - الملك) الى (الله - الشعب) ثم أعيد تسميته (حزب مصر الاشتراكي) " لأ ن

---

١) هدى : م.س . ذ - ص ٣١٠

الاشتراكية هى صميم الاسلام ولب دعوته " حسبما أعرب أحمد حسين عن فهمه (١)
وتضمن برنامج الحزب فى انتخابات ١٩٥٠ تحديد ملكية الارض الزراعية بما لا يزيد
عن ٥٠ فدانا - وتأميم القناة وشركات البترول والمواصلات والغاء الرتب والالقاب
والقضاء على مظاهر الترف والوحدة بين الدول العربية وهاجم الحزب أمريكا
ودعا لأطلاق الحريات - وفى تهديد صريح للنظام قال الحزب " نحارب أخطاءكم
بالقلم والا حوربتم بالسيف " .

وكان أحمد حسين يرى أن الاشتراكية أساسها الاسلام و"ان عبادة الله
لا تتجلى فى شئ قدر تجليها فى خدمة الشعب بتحريره من الخوف والجهل
والمرض والعوز " وكان يرى أن " الحركة الاسلامية حركة تقدمية تعبر عن الثورية
ضد الاستعمار والطغيان والفساد وان الاسلام دين ودولة وهو بهذا يتعارض
مع الاستعمار " لكن أحمد حسين رحب بالصحف الشيوعية فى نفس الوقت معتبرا
اياها معادية للغرب .

- ان نقط الضعف فى الحزب الاشتراكى كانت عديدة :

- الشخصية المهيمنة لأحمد حسين وقلة الانصار المخلصين وفشل الحزب فى تكوين كوادر بسبب تخبطه الفكرى العجيب .
- ركز الحزب على الاثارة السياسية ولم يسع بخطط محدده للاطاحة بالنظام .
- لم يستسغ أحمد حسين العنف - ولذلك عندما فرض العنف نفسه على الساحة المصرية فقد تجاوزت الاحداث الحزب - وقبل سته أشهر بالضبط من انقلاب ١٩٥٢ عقد أحمد حسين مؤتمرا صحفيا أعلن فيه أنه قرر الانسحاب من

---

١) من الجدير بالذكر أن اسلاميين كثيرين - فى غمرة عدائهم للرأسمالية والاقطاع قارنوا بين الاسلام والاشتراكية واستخرجوا أوجه للشبه بينهما - بل ان مرشد الاخوان فى سوريا (مصطفى السباعى) أصدر كتابا بعنوان (اشتراكية الاسلام) .
ومن الجدير بالذكر أن أحمد حسين عاد الى الاسلام الصحيح عام ١٩٧٦ .

الحياة العامة متوقعا تردى البلاد فى مزيد من الكوارث وأعلن أنه لن يمارس أى نشاط بل انه لن يقرأ الصحف!! " لقد نفضت يدى من هذه الامور ولا شأن لى بما حدث أو سوف يحدث " .

* * *

لقد اتخذ المد الجماهيرى بعد ١٩٤٩ شكل الانفجارات المتتابعة ولذلك أعاد الانجليز الوفد الى الحكم (يناير ١٩٥٠) من خلال المناورات السياسية هذه المرة وليس من خلال القوة السافرة كما حدث عام ١٩٤٢ (١) — وكان الوفد بتركيبته يريد المحافظة على النظام (الدستورى) مع ارضاء الجماهير فى نفس الوقت ـ ولكن الجمع بين هذين المطلبين أصبح متعذرا بسبب رفض الجماهير لعجل النظام ـ وهكذا حاول الوفد ـ حفاظا على استقرار النظام ـ أن يعيد قانون الصحافة وقانون المشبوهين لكنه تراجع بسبب المعارضة العاصفة جدا ـ ولم يلبث الوفد أن واجهة أهم تحد ـ فقد كانت فكرة العمل

١ـ انظر تفاصيل تلك المناورات فى : هدى :م.س.ذ ص ص ٢٤٦ -٢٥١ ان اسباب نجاح الوفد فى انتخابات ١٩٥٠ كانت متحققة :

ـ فهو يستند على الولاءات القبلية (راجع دكتوراه عزة فهمى عن آخر برلمان مصرى م.س.ذ .)

ـ لم يتحمل وزر النكبة فى فلسطين لانه لم يكن فى الحكم وقتها .

ـ التعذيب الرهيب الذى مارسته أحزاب الاقلية بحق الاسلاميين والذى استغله الوفد اعلاميا .

ـ فضائح الفساد والسرقات والاسلحة الفاسده أساءت الى كل أحزاب الائتلاف الذى حكم مصر من ١٩٤٥ حتى ١٩٤٩.

ـ قام الوفد بارضاء الملك لكيلا يلجأ الى تحدى النظام الدستورى ويهدم المعبد على الجميع وبالتالى شجع الملك اجراء الانتخابات ولم يتحد الوفد .

المسلح قد طرحت باعتبارها الاسلوب الوحيد لاجلاء الانجليز (١) بعد أن خذل مجلس الامن مصر (١٩٤٧) وتأكدت جدوى الكفاح المسلح بسبب حرب فلسطين - ولكن منذ ١٩٥٠ أصبح العنف مقبولا على نطاق واسع كطريق وحيد للتعبير - فقد اثبتت انتخابات يناير ١٩٥٠ عزوف الشعب عن المشاركة - مما شكك فى شرعية النظام برمته (٢) وكانت فئات عريضة من الشعب قد تم تثويرها دون أن تمتلك أدوات للتغيير السياسى - فلم يكن الاخوان ممثلين فى برلمان ١٩٥٠ وكان الحزب الاشتراكى ممثلا بمقعد واحد (ابراهيم شكرى) - وهكذا

١ - لم تخل الحقبة الليبرالية من ممارسات للعنف الثورى قبل هذا التاريخ ففى ١٩٣٧ حاول عز الدين عبد القادر (من مصر الفتاة) اغتيال النحاس ردا على توقيعه معاهدة ١٩٣٦ - وفى ١٩٤٥ اغتيل أحمد ماهر على يد أحد الاسلاميين وفى ١٩٤٦ اغتيل أمين عثمان على يد حسين توفيق - ولكن العنف تصاعد منذ ١٩٤٨ حيث كان للاسلاميين الدور الرئيسى فيه ففى مارس ١٩٤٨ اغتيل المستشار أحمد الخازندار على يد الاخوان المسلمين لانه بلغ بانعدام الضمير الى أن حكم بالسجن المؤبد على من اشتركوا فى قتل الجنود الانجليز ثم قام الاخوان بتفجير محال لليهود ردا على اعتداءاتهم على مسلمى فلسطين وعلى القاء الطائرات اليهودية القنابل على الاحياء السكنية بالقاهرة - وهكذا تعرضت محلات شيكوريل - أوريكو - بنزايون - جاتينيو - شركة الاعلانات الشرقية وغيرها لاعتداءات بالقنابل - ثم اغتيل سليم زكى حكمدار القاهرة (ديسمبر ٤٨ ١٩) ورغم قرار حل الاخوان فقد اغتيل رئيس الوزراء بعد أيام وفى يناير ١٩٤٩ حاول الاخوان نسف محكمة الاستئناف .

٢) كانت نسبة المشاركة ٥٦٪ لكنها لا تعكس سوى النفوذ الاقطاعى - لان النسبة فى مدينة القاهرة لم تتجاوز ١٥٪ .

اكتسب التغيير بالعنف شرعية متزايدة لدرجة أن الفلاح المصرى تحرك أخيرا - وقاد الاسلاميون فى الارياف [١] أعمال عنف واسعة النطاق - لقد بدأت هذه الانتفاضات قبل حل الاخوان (انتفاضات محلة موسى - كفر بدواى - كفر البرامون) لكنها تصاعدت واشتدت فى سنتى ٥٠/١٩٥١ (انتفاضات ميت فضالة - بهوت [٢] - أبو الغيط - كفور نجم [٣] - سخا - الغراقة - السرو) كما شهدت المصانع الرئيسية سلسلة من الاضرابات (حوالى ٢٠٠ اضراب - كبير فى سنتى ٥٠/١٩٥١)فردت حكومة الوفد بقتل ثمانية من عمال مصانع سباعى (أغسطس ١٩٥٠) وألقت بجثثهم فى ترعة المحمودية - ولكن حملة اغتيالات زعماء العمال على يد الشرطة اتسعت سنة ١٩٥١ وحدثت مجازر فى مصانع الشوربجى باعبابه وسباهى وكرموز وشبرا الخيمة والمحلة .

١) كان حسن البنا أول من طالب فى مصر بتحديد الملكية (زكريا سليمان م.س.ذ ص ٣٠٨) وكان أول من ارتفع صوته فى أحد دروس الثلاثاء "كم تملك الاسرة المالكة فى مصر" (م.س.ذ ص ٢٩٠) - ولم تكن هناك أية قوة سياسية فى الريف سوى الاسلاميين - وبدلا من أن يدعم الشيوعيون انتفاضات الريف فقد رفضت صحيفتهم (الملايين) التصدى للاقطاع (يوليو ١٩٥١) بحجة ضرورة التفرغ لمحاربة الاستعمار .

٢) كانت ابنة فؤاد سراج الدين من ضمن من حاصرتهم الجماهير فى بهوت - ولكن أمكن تهريبها فيما بعد أما مأمور طلخا الذى أشرف على مجزرة بهوت فقد كان يختبئ فى البداية فى دورة المياه .

٣) لقد قتلت السلطة عنانى عواد وكيل شعبة الاخوان فى كفور نجم بسبب تصديه للاقطاع . راجع أيضا : محمد مورو : دور الحركة الاسلامية فى تصفية الاقطاع دار البحوث العلمية ١٩٨٠ . وانظر أيضا قرار حل الاخوان والمذكرة الملحقة به والتى أشارت الى اشعال الاخوان النار فى غابة أحد الاقطاعيين فى كفر بدواى وتحريض أهالى كفر البرامون ليثوروا طلبا لزيادة أجورهم واشتباك الاخوان مع الشرطة التى تصدت للاهالى وتحريضهم على الاضراب فى تفتيش محلة موسى .

ومع فشل جميع المفاوضات لاخراج الانجليز من القناة (بسبب اصرار الانجليز على ادخال مصر فى حلف عسكرى) ومع صدور البيان الثلاثى(١٩٥٠) الذى تعهدت فيه بريطانيا وفرنسا وأمريكا بمنع تسليح الدول العربية للحفاظ على دولة اسرائيل الوليدة - بل وتعقبت انجلترا خطوات الوفود المصرية التى سعت لشراء السلاح من أوربا - وبسبب تصاعد المد الجماهيرى - وفى محاولة يائسة لانقاذ مايمكن انقاذه أعلن النحاس الغاء معاهدة ١٩٣٦ (التى سبق أن سماها معاهدة الشرف والاستقلال) - وعلى الفور ترك ٦٠ ألف عامل مصرى فى قاعدة القناة وظائفهم ونظمت المظاهرات من أكتوبر ١٩٥١ الى يناير ١٩٥٢ - وفى واحدة منها اشترك مليون شخص ورفعت ١٠ آلاف لافتة تهاجم بريطانيا وأمريكا وتؤيد ايران (مصدق) - وأصدر شيخ الازهر فتوى أحل فيها دم الجنود الانجليز (رغم أن الامر بديهى لا يحتاج الى فتاوى من الاصل) .

وكانت أعمال العنف ضد الانجليز قد بدأت فى القناة فور الغاء المعاهدة - وفى خلال ٥٠ يوما كان ١١٧ قد قتلوا و ٤٣٨ قد جرحوا فقام الانجليز بمحاولة ارهاب نفسى فضربوا مبنى محافظة الاسماعيلية بالمدافع (١٧ / ١٢ / ١٩٥١) فما كان من القوى الوطنية (١) الا أن صعدت عمليات الاشتباك ونسفا لقطارات والمعسكرات الانجليزية - وحاول الوفد احتواء الموقف الذى بدا أنه سيخرج عن السيطرة وأعلن فؤاد سراج الدين ضم الكتائب للحكومة وطلب من الاحزاب

---

١) كان تنظيم الضباط الاحرار هو المدرب الرئيسى للفدائيين فى القناه - أما الفدائيون أنفسهم فكانوا أشخاصا من البسطاء - كما اشترك كثير من الاخوان (وفى يناير ١٩٥٢ استشهد المنيسى - عمر شاهين - عبد المجيد عبد الله حسن) ورصد الانجليز مكافأة ١٠ الاف جنيه لمن يأتى بالشيخ فرغلى حيا أو ميتا واشترك أيضا بعض أعضاء شباب محمد ومصر الفتاة .

والهيئات " مشكورة " أن تتخلى عن الاشراف على الكتائب - وبرر سراج الدين ذلك بأن الكتائب " بعدت عن أغراضها وانصرفت لتحقيق أغراض حزبية فصارت تحض العمال والموظفين على ترك أعمالهم والتطوع فيها - وفى هذا تهديد لاقتصاد البلاد " !! - ولكن أحدا لم يعر هذا الكلام اهتماما - وازداد التصعيد وفى ١٢/٨ حشد الانجليز ٦٠٠٠ جندى و ٢٥٠ دبابة و ٥٠٠ مدرعة لاحتلال قرية كفر أحمد عبده ودمروها عن آخرها وكانت تتمركز بها قوات شباب محمد ومصر الفتاة وبعض الوطنيين - ولكن لم يؤد كل ذلك الا الى مزيد من التصعيد وامتدت أعمال العنف الى شرق الدلتا - فرد الانجليز باحتلال التل الكبير وأبو حماد (١٦ يناير ١٩٥٢) ورغم قيام فؤاد سراج الدين بالقبض على الفدائيين وترحيلهم الى بلادهم بعد تجريدهم من السلاح - فقد ازداد التصعيد وفى ٢٥ يناير حدث الاشتباك بين الشرطة المصرية والجحافل الانجليزية حيث اطلقت الشرطة المصرية كل ما فى جعبتها (مليون طلقة) على الانجليز فى معركة رائعة قتل فيها ٧٠ مصرى و ٤٠ انجليزى - وفى اليوم التالى قامت الجماهير بالرد - ليس على الانجليز فقط - بل على كل صور التغريب والفساد - فقد أشعلت النيران فى أكثر من ٥٠٠ مكان بالقاهرة ضد المصالح الانجليزية (واحرق بنك وناد على من كان فيهما) وضد الملاهى والخمارات والسينمات والفنادق - وعندما انضمت الشرطة للجماهير وأسهمت فى اشعال الحرائق طلب وزير الداخلية فؤاد سراج الدين تدخل الجيش فأبلغه وزير الحربية خشيته من انضمام الجيش للمتظاهرين - وفى اليوم التالى لحريق القاهرة أقيلت وزارة الوفد - ليس بعد تأدية دورها كعادتها فى كل مرة - ولكن بعد فشلها فى تأدية دورها هذه المرة - ولذلك كانت آخر وزارة وفدية .

* * *

أسباب سقوط النظام اللبرالى

في بحثنا عن سبب سقوط نظام ما - يجب أن ندرس (الفكر) الذى قام بتوجيه (ممارسات) هذا النظام وهل كان هذا الفكر ملتزما ويشكل ردا على تحديات المرحلة أم لا .

لقد نقد بعض الاسلاميين الفكر اللبرالى باعتباره خلط دون داع بين ضرورة أن تأخذ بما حققه الغرب من تقدم مادى - وبين الاخذ بثقافة وفنون وأخلاق الغرب.[1]

لقد كان ممكنا أن نناقش المقولة السابقة لو كان دعاة الفكر اللبرالى مخلصون فعلا لمشروع نهضوى - ان النهضة تتضمن أولا وبلا شك القضاء على الاستعمار وعلى الظلم الداخلى - ولم نسمع من مفكر لبرالى شيئا عن هاتين القضيتين - لقد صدعونا بقضايا وهمية وأنفقوا أوقاتهم فى البحث عن كل ما يمكن أن يخدم قضية التشكيك فى الاسلام - وبالتالى فلا مناص أمامنا من ادانة المفكرين اللبراليين بالعمالة حتى النخاع .

لقد نشأ الفكر اللبرالى بحجة الاستقلال عن الاتراك فأوقع العالم العربى كله تحت سيطرة الانجليز والفرنسيين بل لقد كانت هرولة قيادات النظام اللبرالى فى مصر لمقابلة السكرتير الشرقى فى السفارة البريطانية مبعثا للفخر !

ان جميع الانظمة اللبرالية (ومن بعدها الاشتراكية) التى قامت فى المنطقة كلها لم تكن الا امتدادا للادارة الاستعمارية بشكل أو بآخر وبالتالى فان أسباب سقوطها هى نفسها أسباب زوال الاستعمار - ولن يزول الاستعمار الا بأن نتخلص من القابلية للاستعمار وبمعنى آخر أن نصبح مسلمين بحق - وبالتالى فان تساؤلنا عن أسباب سقوط النظام اللبرالى (أو غيره) يجب أن يعدل ليصبح : لماذا لم يسقط هذا النظام بمجرد نشأته ؟ بل كيف نشأ فى بلادنا أصلا ؟

---

١) راجع مثلا : أحمد صادق - مقالات : القرن الخامس عشر الهجرى - مجلة المختار الاسلامى خاصة عدد ٢٢ ص ٣٧ .

لقد ذكرنا أن النظام اللبرالى نشأ عند ما غاب الاسلاميون عن الساحة (وكان تقاعس الاسلاميين هو أيضا السبب المباشر لنشأة نظام يوليو) ـ ولذلك استكانت الجماهير مؤقتا أمام الواقع .

ولكن بخيانة القضية الوطنية أو بالفشل فى معالجتها ـ انفجر المد الجماهيرى بعد ١٩٤٥ ـ ورغم أن النظام اضطر لدخول حرب ١٩٤٨ تحت الضغط الجماهيرى لكى يحتفظ بخيط رفيع مع الناس يمنع سقوطه فان انتهاء الحرب بالكيفية المعروفة كان السبب المباشر لسقوط النظام .

أيضا كان كبت الحريات والبلطجة السياسية هو طابع تلك الفترة ـ لن نتحدث عن حكومات الاقلية فقد كال لها العلمانيون بما فيه الكفاية ـ وانما يهمنا ابراز الدجل والشعوذة التى سموها ديمقراطية والتى ادعوا أن الوفد يمثلها .

لقد تعامل الوفد مع المعارضة بمصطلحات (الضالون ـ المنحرفون ـ الخوارج) ورغم أن الوفد كانت له الاغلبية فى أول برلمان مصرى (١٩٢٤) فقد أبى الا أن يطرد منه زعيم المعارضة (محمد محمود) بالتشكيك فى صحة انتخابه وكان هذا أول انجازات الديمقراطية فى مصر .

وقبل ذلك كان سعد زغلول قد فصل عشرة من أعضاء الوفد لانهم خالفوه فى الرأى ولم يبق معه سوى أربعة .

وبعد ذلك ـ فى ١٩٣٣ ـ فصل النحاس تسعة من الوفد ولم يبق معه الا ثلاثة لمجرد الخلاف فى الرأى أيضا .

وفى يناير ١٩٣٦ أنشأ الوفد فرق القمصان الزرق وهى تنظيمات عسكرية الطابع وفى نفس الوقت انكرها على غيره . وعند ما أحس النظام اللبرالى بنهايته فقد ارتكبت جرائم التعذيب بما يضاهى جرائم عبد الناصر نفسه (العسكرى الاسود فى عهد حكومة ابراهيم عبد الهادى) .

لقد بلغ الظلم الاجتماعى بدوره أقصى درجاته فى تاريخ مصر فى القرون الاخيرة ـ فقد ارتفع عدد الاسر المعدمة من ٢٠٪ (من سكان الريف)فى بداية الحقبة اللبرالية الى ٤٥٪ فى نهايتها ـ وعند ما وقع انقلاب ١٩٥٢ كان ٤ر٠٪

من ملاك الاراضى الزراعية يملكون ٣٥٪ من مساحتها وكان ٥٪ اخرون يملكون ٣٠٪ أخرى - وقد خضع مستأجرو الاراضى الزراعية لابتزاز الوسطاء الذين استأجروا الارض من الباشاوات الاقطاعيين ثم أجروها من الباطن للفلاحين بما يزيد عن ايجارها الاصلى بـ ٥٠ - ٧٠ ٪ واقتصرت أعمال بنك التسليف الزراعى على اقراض كبار الملاك فقط فوقع الفلاح ضحية للمرابين الذين وصلت أسعار الربا على قروضهم الى ١٠٠٪ أحيانا وفضلا عن ذلك فقد أوردت الاحصائيات أن ايجار الارض فى الفترة (٤٨ - ١٩٥٢) كان يبتلع ٧٥٪ من صافى ايرادها .

ان مقتل ١٢ فلاحا فى انتفاضه قرية أبو الغيط هو فى حد ذاته سبب كاف جدا لسقوط النظام كله .

* * *

٣- العلمانية فى طورها الثانى الفاشل (١٩٥٢ - ١٩٨١)

حقبة يوليو

حقبة يوليو

لقد دار جدل عنيف موضوعه ما سمى بثورة يوليو ١٩٥٢ [1] - وبصرف النظر عن مقولات كل ما ساهموا فى هذا الجدل (ومعظمها تعكس مواقف شخصية ومتشنجة) - واذا اخذنا بتعريف الثورة - حسب علم الاجتماع - باعتبارها " التغيير الجذرى فى زمن قصير نسبيا" فاننا سنكتشف ان تاريخ مصر فى الحقبة العلمانية لم يكن الا ثورة واحدة متصلة الحلقات يتمم بعضها بعضا - بحيث يصح أن نطلق تعبير (الثورة العلمانية) على تاريخ مصر فى القرنين الماضيين :

لقد ارتكزت الثورة العلمانية على :

- فئة قيادية (الذين تربوا على طريقة التفكير الغربية + الاقطاعيون والفاسدون) .

- شعب مستضعف عانى كثيرا من الظلم وفى غضون ذلك تشكل مركب اقتصادى / اجتماعى أدى الى شلل تام فى الفكر وتوقف للابداع - وبالتالى سهل على العلمانيين استدراج الشعب وراءهم ومفاقمة الاوضاع السيئة أصلا .

- عدم ادراك الاسلاميين (حتى وقت قريب نسبيا) لطبيعة التحدى العلمانى ومن ثم أساليب مواجهته .

* * *

---

(١) انظر على سبيل المثال الجدل السخيف جدا فى الاجابة على سؤال (ماذا تبقى من ثورة يوليو فى الواقع المصرى المعاصر) وقد نشر بمجلة الطليعة (اكتوبر ١٩٨٤) واشترك فى الجدل محمد عصفور - عمر التلمسانى - محمود امين العالم - فريد عبدالكريم - اسماعيل صبرى عبدالله .

لقد جاءت الثورة العلمانية ـ بوعى او بدون وعى ـ لتكريس :

١- القهر السياسي : بممارسة لعبة (استبداد / ديمقراطية) بمعنى الضغط على الشعب بحكومات استبدادية وعندما يوشك الموقف أن ينفجر يتم استحضار الديمقراطية لتفريغ الشحنة ريثما يعود الاستبداد ـ من جديد ـ وبالطبع كانت زراعة الديمقراطية الغربية فى غير بيئتها تعنى أن الشعب لن يتقبلها ـ وبالتالى فان الديمقراطيين (حزب الوفد) كانوا اكثر اجراما من الاستبداديين لانهم على الاقل لم يحاولوا تلقين الشعب معنى الديمقراطية (اذا كانوا قد آمنوا بها حقا) ثم بعد ذلك تهاونوا أمام ما اعتبروه حكومات استبدادية ولم يقودوا الشعب لاسقاطها .

٢- الظلم الاقتصادى : ومن مظاهره ان كل نظام علمانى كان له دائما طبقة مؤازرة ـ فقبل ١٩٥٢ ارتكز النظام على الرأسمالية المستغلة والاقطاع وفى عهد عبد الناصر والسادات ارتكز النظام على رشوة الطبقة الوسطى من اهل المدن ـ ووجهت معظم مشروعات التنمية والجانب الاكبر من ميزانيات الخدمات والمحليات للتخفيف من معاناة اهل المدن وحدهم لان المدن كما هو معروف هى الارضية الخصبة للثورة .

٣- الفساد الاخلاقي والاجتماعي : والذى تحقق بانشاء مركب اقتصادى تربوى تشريعى يساعد على الانحراف فقد استهلك الجيل الشاب فى الدراسة الجامعية بدون طائل ـ ثم (تكفلت) الدولة بتشغيله بمواصفات لن تيسر له الزواج والاستقرار ومن هنا بدأ ادخاله فى الدوامة ـ فى نفس الوقت الذى تفاقمت فيه ازمة الاسكان (فى حين انشئت كبارى علوية قدرت اعمال الخرسانة فيها بما يكفى لبناء مليون وحدة سكنية فى حين ترك ٩٤٪ من الاستثمارات فى الاسكان للمبادرات الفردية) ـ وتوافق مع كل هذا تشجيع الفساد علنا خاصة فى الاعلام ـ مع تقنين بعض مظاهر الفساد (قانون الاحوال الشخصية وعدم وجود رادع حاسم للرذيلة) .

ونظرا لتزايد دور الجماهير فى صنع السياسة ـ وهى ظاهرة عالمية تعــود الى عشرينيات هذا القرن ـ فقد كانت الثورة العلمانية تقدم بعض التنازلات بما لا يتعارض مع اهداف الاستعمار الجوهرية ـ وهكذا جاءت (معاهــدة الشرف والاستقلال) سنة ١٩٣٦ كخطوة نحو التحرر من الاحتلال وجـــاءت الاصلاحات الداخلية بعد ١٩٥٢ كخطوة نحو تحقيق العدل .

هكذا كانت طبيعة الثورة العلمانية ـ فعلى فرض انها حققت ايجابيــة ما ـ فقد كانت تحقق انجازاتها خطوة بخطوة مما يجعل الرأى الذى يدمغها بالعمالة للغرب له وجاهته ـ لانه لولا التنازلات (المحسوبة) لكان الموقف قد انفجر ولقام نظام ثورى جذرى جماهيرى حقيقى .

ان تردد الاسلاميين فى فترات حرجة من تاريخ مصر يعنى انهم مسئولون جزئيا عن الجريمة التى تمت .

ان عوامل استمرار الثورة العلمانية قد انعكست الآن وارتدت فى نحــــر العلمانيين :

- فالفئة التى طالما تغربت فى فكرها تعود الان الى الاسلام (الا العملاء بالطبع) .
- والشعب الذى طالما ظلم لم يعد يرهبه النظام ـ بل ان الاستخفاف برموز السلطة اصبح مادة يومية لدى المصريين ـ وكرد على ذلك طورت السلطة جهازا قمعيا (٣٠٠ الف من قوات الامن المركزى) وعملت على شغل الشعب بالقضايا الاقتصادية باعتبارها القضية الاولى لصرف النظر عن القضية الحقيقية (اسرائيل وامريكا) .
- والاسلاميون الذين طالما ترددوا ـ حسموا ترددهم اخيرا (محاولــة اسقاط الحكم سنة ١٩٨١) كما انهم وعوا المرحلة ولم يعد الالتفاف حولهم ممكنـــا .

وباعتبار مرحلة (١٩٥٢ - ١٩٨١) هى احدى حلقات الثورة العلمانية - فان تفسير احداثها يمكن ان يتم - الى درجة ما - فى اطار الفروض الامبريقية والخبرة المكتسبة من تاريخ الثورات ومراحل تحولها الى نظام سياسى .

عادة تمر أية ثورة بالمراحل الآتية :(١)

١- فى البداية تظهر سلطتان (حيث يحكم الثوريون فعليا فى وجود حكومة شكلية من المعتدلين) وبسبب ازدياد حماسة الجماهير يحدث صراع على السلطة ينتهى بفوز الثوريين ومن ثم اتخاذ اجراءات عنيفة (واقتران ذلك بزعيم عادة) لتلبية تطلعات الجماهير - ويضار فى هذه المرحلة الفئات المترفة التى ارتكز عليها النظام السابق والفلاسفةالذين برروا لهذا النظام - وتهرب رءوس الاموال وتتدخل الدولة وتخطط الاقتصاد وتدخل فى صراعات خارجية لتصدير الثورة .

" ولئن سلمنا جدلا بضرورة الكبت للقضاء على رذائل العهد الماضى الا اننا لن نسلم اذا فشل الثوريون فى القضاء على تلك الرذائل فيحاسبون على الفشل وعلى الكبت" (٢) .

---

(١) السطور القادمة تعتبر تلخيصا مركزا لكتاب الدكتور فاروق يوسف :استخدام نموذج الثورة فى التفسير والتنبوء مع التطبيق على الثورة المصرية مكتبة عين شمس ١٩٨٣ . راجع ايضا لنفس المؤلف ونفس الناشر : الثورةوالتغيير السياسى فى مصر . ويجب مراعاة ان حقيقة سيادة المذاهب التوفيقية فى مصر لا تتيح لنا مقارنة ثورة مصرية بثورة فرنسا او روسيا - اما الثورة الاسلامية فهى تشبه الثورة العلمانية فى بعض الخصائص وتختلف عنها فى اكثرها .

(٢) استخدام نموذج - م.س.ذ ص ٢٢

٢- يقل اندفاع الجماهير وراء الثوريين بسبب ممارستهم للارهاب فيحدث عفو عام عن السياسيين القدماء ويبدأ الحديث عن التعذيب والتنديد بـه وطبعا يغير مرتزقة الاعلام جلودهم (وقد يحدث التعجيل بالتحول اذا ازيحت شخصية الحاكم - مثل انقلاب السادات سنة ١٩٧١) - بعد ذلك يبدأ اعداء الثورة فى الانتشار داخل الجهاز الادارى للدولة ويدخلون الانتخابات والمحصلة هى تنوع الصفوة وبالتالى تتوزع القوة السياسية فى المجتمع وتصبح الشعارات والمواثيق الثورية فى ذمة التاريخ ويميل النظام للديمقراطية وتكف الدولة عن محاربة جيرانها - وبسبب عدم اشراف الدولة اشرافا كاملا على الاقتصاد تظهر طبقة مترفة فاسدة مكونة من :

أ- اغنياء ما قبل الثورة الذين يعودون بأموالهم من الخارج ويستفيدون من شبكة اتصالاتهم خارج الوطن فى تأسيس مشروعات اقتصادية مع الاجانب .

ب- أغنياء السلطة الذين استغلوا مناصبهم فى العهد الثورى فى تحصيل الرشاوى وفى السرقات وفى اقامة شبكة من العلاقات العامة (يتحولون الى رجال اعمال بعد ترك مناصبهم) .

ج- اغنياء المخاطرة الذين يستغلون الفوضى وعدم حزم النظام فى ضبط الامور فيعملون بالتهريب وتجارة العملة والسمسرة وتجارة المخدرات .

وينتشر سلوك استهلاكى بسبب تبعية الاغنياء (أ) و (ب) لأسيادهم الغربيين - وبسبب جهل وتخلف الاغنياء (ج) الذين يتجهون الى نمط استهلاك استفزازى للفت الانظار - وتكون المحصلة انتشار الانحلال الخلقى والفضائح والفساد والاغانى الهابطة .

يبادر اعداء الثورة باستغلال الاوضاع المتدهورة وينظمون انفسهم فـــى تنظيمات قديمة فى اشخاصها جديدة فى اسمائها ويهاجمون الاوضاع الفاسدة ولكن فى نفس الوقت يلصقونها بالثورة فى محاولة لسحب ما يكون قد بقى لها من شرعيـــة .

وبسبب احلال الديمقراطية فى غير بيئتها تحدث فوضى وتسيب (يحاول النظام علاجها بالانضباط) وعند ما تحس السلطة بخطورة الديمقراطية علـــى استمرار النظام تغير سلوكها الى الاعتقالات وبالتالى لا يستطيع احـــد أن يدافع عن النظام احتراما لنفســـه .

٣- اذ نجح النظام فى تخطى كل المآزق ونجح فى تحقيق التوازن بيـــن الاستهلاك والانتاج وبين الفقير والغنى و بين التسيب والحرية وبيـــن الانحلال الخلقى والمثالية فقد تتحول الثورة الى نظام سياسى ـ والاتحدث ثورة جديدة تمر بنفس المراحل السابقة (نظريا) .

الظروف الدولية التى واكبت حقبة يوليو

لا خلاف بين الباحثين حول صحة الفرضية القائلة بأن التحولات الاجتماعية فيما يسمى بالعالم الثالث تتأثر بالظروف والتوازنات الدولية - انما الخلاف فقط فى مقدار هذا التأثير .

ان قراءة الصفحات القادمة ستوصلنا الى استنتاج مؤداه أن تحولات السياسة الدولية قد توافقت تماما مع ما افترضته الدراسات الامبريقية بشأن التحولات الاجتماعية الداخلية بعد الثورات وحتى تحولها الى نظام سياسى :

١ - أن دور أمريكا العالمى بعد ١٩٤٥ لم يكن عائقا أمام انقلاب ١٩٥٢ (بشرط أن يكون هذا الانقلاب فى اطار محدد) :

عندما وضعت الحرب العالمية أوزارها (١٩٤٥) كانت الاتجاهات الاشتراكية قد أسفرت عن نفسها فى أماكن كثيرة من العالم خاصة فى بلاد آسيا الفقيرة - وفى نفس الوقت أنهى الروس عزلتهم التى فرضوها على أنفسهم بعد الثورة الشيوعية - وتوافق هذا أيضا مع تضعضع البنيان الاقتصادى للدولتين الاستعماريتين فرنسا وبريطانيا اللتين تعرضتا للتخريب على يد الألمان .

فى هذا الجو دارت الحرب الاهلية بين الشيوعيين والوطنيين فى الصين (حتى انتصر الشيوعيون سنة ١٩٤٩) كما بدأت المجازر فى دول أوربا الشرقية ضد معارضى الاتجاهات الشيوعية التى تسلطت على الحكم وانتعشت الحركة الشيوعية أيضا فى كوريا والهند الصينية .

وبالنسبة للشرق الاوسط - كانت الحرب الاهلية اليونانية (١٩٤٧) حاسمة فى آثارها على المنطقة - فمن أجل اليونان صدر مبدأ ترومان - ذلك أن انتصار الشيوعيين فى البداية وتهديدهم لأثينا نفسها وعدم قدرة بريطانيا على حماية مصالح الغرب فى وقت بدأت فيه نذر الحرب الباردة بين أمريكا وروسيا - كل ذلك اضطر بريطانيا الى اتخاذ خطوتها المشهورة باسم (التنازل الاستراتيجى)

حيث طلبت من أمريكا أن تتولى حماية مصالح الغرب .

لقد كانت مصالح أمريكا (متواضعة) حتى ذلك التاريخ واقتصرت على النفوذ الثقافي (جامعات في القاهرة وبيروت واسطنبول) ونهب النفط السعودي ولذلك كانت خبرة أمريكا بالشرق الاوسط محدودة (بخلاف بريطانيا ذات التراث الاستعماري العتيد) وبدأت العمليات الاستطلاعية لرجال المخابرات الامريكية في المنطقة توصلوا بعدها الى أن المصالح الغربية تواجه مأزقا ليس من السهولة حله :

- فمن جهة - كان سقوط النظام اللبرالي في مصر بالذات مسألة وقت ولم يكن ممكنا احداث ترقيعات فيه (وكانت أمريكا أيضا تريد التخلص منه لأنه مرتبط بالانجليز ولأنه - وهذا هو الأهم - لن يستطيع الاستمرار في الهدنة مع اليهود من فرط ضعفه) .

- ومن جهة أخرى كان الاخوان يشكلون تهديدا للمصالح الغربية - وكان سفير أمريكا أحد السفراء الثلاثة الذين اجتمعوا في فايد (١٩٤٨) وطلبوا من حكومة النقراشي حل جماعة الاخوان .

- كما أنه لم يكن متصورا أن تسمح أمريكا بقيام نظام اشتراكي في جو الحرب الباردة السائد وقتها (لان هذا النظام سينحاز لروسيا) .

- ولم يكن هناك من مخرج سوى ايجاد نظام يحاول حل قضيتي العدالة والتحرر الوطني (في الحدود التي لا تضر بمصالح الغرب) وهكذا يمكن تصفية الثورة

الحقيقية ـ أما مصير هذا النظام نفسه ـ فسيتحدد طبقا للاحداث[1] .

ولم تكن هناك من فئة منظمة قادرة على احداث التغيير المطلوب والتهادن مع اليهود سوى الجيش ـ فقد كانت جميع الاحزاب والتنظيمات الاخرى اما مرفوضة جماهيريا (الاحزاب اللبرالية) أو مرفوضة أمريكيا (الاخوان ـ الحزب الاشتراكى) وبدأت أمريكا فى تنفيذ فكرتها الجديدة لحفظ المصالح الغربية فى عالم سريع التطور فكانت اتصالاتها التى طمأنت فيها بعض الضباط الوطنيين المتحمسين والطامحين فى نفس الوقت بأنها لن تعترض على أفكارهم فى اسقاط النظام والاصلاح الداخلى وهكذا بدأت سلسلة الانقلابات فى المنطقة بدءا بانقلاب حسنى الزعيم (١٩٤٩) فى سوريا ـ وفى نفس الوقت كانت أمريكا تركز جهودها على مصر وبعد أن تأكدت من خطر المراهنة على فاروق ـ وبسبب تنبؤات وزارة الخارجية الامريكية بامكانية أن يقود الاخوان ثورة شعبية بعد معارك القناة و حريق القاهرة ـ فقد جاء كيم روزفلت الى مصر فى مطلع ١٩٥٢ ـ

---

(١) تختلف أمريكا عن روسيا فى قدرة كل منهما على بسط النفوذ وفى تخطيطهما للسياسة ـ فبالنسبة للنفوذ ورثت أمريكا الاستعمار القديم والذى وضع ترتيبات محددة لنهب ثروات العالم ـ وكلما حدث تطور فى العالم المنهوب يضاد خطط الاستعمار ـ لم يعدم الاستعماريون الوسيلة لاحباطه ـ حيث يتمتع الاستعمار بقدرات اخطبوطية متعددة ـ وواضح أن هذه الاجراءات تتم كامتداد لترتيبات سبق وضعها عبر قرون وهو ما لم تحققه روسيا من قبل .

وبالنسبة لتخطيط السياسة تأخذ روسيا فى اعتبارها فكرة (الحركة التاريخية العامة) أى قوانين التاريخ أما أمريكا فمزاجها متقلب طبقا للعقلية اللبرالية التى تغير من فكرها اذا واجهت فشلا فى تجربة معينة .

ويبدو أنه توصل الى تفاهم مع عبد الناصر [١] لأنه اعتبارا من مارس ١٩٥٢ اقتصرت منشورات الضباط الاحرار على مهاجمة (الاستعمار الانجليزى) بعد أن كانت تهاجم (الاستعمار الانجلوأمريكى) وربما كان صحيحا أيضا قول السادات (كانت صورة أمريكا فى أذهاننا مقترنة بحماية الحرية ومناصرة حركات التحرير) [٢]

وفى ذلك الوقت أيضا (١٩٥١) قامت مجموعة مصدق بالدخول فى معركة تأميم شركة البترول الانجليزية الايرانية [٣] وتطورت الاحداث بالكيفية المعروفة مما اضطر الشاه للهرب ـ وفى البداية لم تكن أمريكا لتمانع من التفاهم مع مصدق (لأنها كانت تريد طرد الانجليز) ـ ولكن مصدق لم تسانده مؤسسة أو تنظيم ـ فلم يكن اسلاميا فيسانده الاسلاميون ولم يكن يساريا فيسانده حزب تودة ـ ولذلك استغل حزب تودة الفراغ السياسى وحاول السيطرة على الحكم (فقد كان أكبر قوة منظمة فى ايران وقتها) وقد دفع هذا كلا من أمريكا وبريطانيا مجتمعتين الى التدخل بسرعة وتدبير عملية الانقلاب ضد مصدق وأعيد الشاه (١٩٥٣) .

---

(١) سنضرب صفحا عن مناقشة كم هائل من الكتابات تحاول اثبات أن عبد الناصر كان ضالعا فى مؤامرة امريكية لان هذه الكتابات وان كانت تحتوى على بعض الحقائق فان طابعها العام هو الاستخفاف بالعقل (انظر مثلا كتاب كلمتى للمغفلين لمحمد جلال كشك ـ ١٩٨٥) ـ وان كان كاتب هذه السطور يعتقد فى نفسه أن كشف الوثائق الامريكية التى بدأت تترى بالفعل سيثير مفاجآت مذهلة ـ اما كشف الوثائق من جانب النظام المصرى فلا يعتقد أنه يمكن أن يتم من خلال الاطر الحالية .

(٢) البحث عن الذات ـ المكتب المصرى الحديث ١٩٧٨ ص ١٤٣

(٣) كانت الشركة تعطى حكومة ايران ٦٪ من عائدات النفط وتستأثر هى بالباقى وكانت تسرق النفط عبر خطوط أنابيب سرية .

وما حدث فى ايران لم يحدث فى مصر ـ فقد كانت تساند الانقلابيين فى مصر مؤسسة عسكرية استطاع قادتها بسهولة تصفية كل صور التنظيمات المناوئة : الاحزاب صفيت بسهولة لان قياداتها جبانة وللسخط الشعبى عليها ـ أما الاخوان (اكبر قوة منظمة فى مصروفتها) فقد سهل تصفيتها بسبب تصدعها الداخلى نتيجة الفراغ الذى تركه موت حسن البنا ـ وأيضا (وهذا هو الأهم) بسبب تصورهم الخاطئ لطبيعة المرحلة بعد ١٩٥٢ وهو أمر طبيعى اذا رجعنا الى منطق الفكر الاسلامى الاصلاحى .

* * *

٢ ـ البيئة الدولية (١٩٥٥ ـ ١٩٦٥) جعلت حركات التحرر الوطنى ممكنه(١)

ـ بينما كان الصراخ يعلو بشأن حلف بغداد ـ كانت الاحلاف قد فقدت قيمتها فعلا بسبب اختراع الصواريخ البعيدة المدى .

ـ قلت الاهمية النسبية للنفط العربى بسبب اتمام أوربا لمرحلة اعادة التعمير كما وثقت أوربا باستمرار تدفق النفط وتلاشى خطر سيطرة الروس عليه .

ـ لم يكن رأس المال الامريكى بحاجة الى فتح العالم الثالث أمامه ـ لان أمريكا بعد أن شجعت انشاء السوق الاوربية المشتركة (١٩٥٨) وجدت أمامها فجأة مجالات واسعة جدا للاستثمار فى أوربا .

اذن كانت المحصلة أن أمريكا لم تعتبر أن هناك خطورة عاجلة على المصالح الغربية فى الشرق الاوسط بل والعالم الثالث كله ـ وهكذا شهدت هذه الفترة: نهرو ـ بن بيلا ـ سوكارنو ـ نكروما ، ولم يكن عبد الناصر بدعا من هؤلاء .

ولكن أمريكا كانت تخشى على المدى البعيد أن يتغير النظام الاجتماعى بما

---

(١) تكاد هذه الفقرة تكون تلخيصا مركزا لبعض ما جاء فى كتاب د . جلال أمين : النظام الاقتصادى العربى الجديد ـ دور العوامل الخارجية فى تطور السياسات الاقتصادية العربية ـ وقد عرضه نبيل عبد الفتاح فى مجلة السياسة الدولية عدد اكتوبر ١٩٨٠ .

يهدد أى مشروع مستقبلى للتغلغل الاقتصادى الغربى - وهكذا فقد اعتبروا عبد الناصر منذ ١٩٦٣ قد خرج عن إطاره بتوسيعه من دور القطاع العام وتوسيعه للجيش وبدئه برنامجا ذريا وبرنامجا لصناعة الصواريخ .

لقد أخذت مصر من أمريكا فى ذروة (المد الثورى) ٥٠٠ مليون دولار (بأسعار ذلك الوقت طبعا) فى الفترة (٥٨ - ١٩٦٦) على أمل ألا يخرج عبد الناصر عن إطاره .

ومنذ ١٩٦٥ بدأت بوادر الانفراج بين الشرق والغرب وتساقط نكروما (١٩٦٥) وسوكارنو (١٩٦٦) وأيقن عبد الناصر أن دوره آت عما قريب .

* * *

٣ - الصراع الانجليزى الامريكى مكن عبد الناصر من الظهور كبطل :

عندما تنازل الانجليز لأمريكا عن دورهم فى الشرق الاوسط (١٩٤٧) لم يكونوا يقصدون أن تستولى أمريكا على كل شئ - انما كانوا يريدون تدخل أمريكا بما يضمن وقف أى توسع شيوعى محتمل - ولكن أمريكا كانت تهدف الى طرد الانجليز نهائيا (وقد ظهر الصراع بينهما واضحا فى انقلابات سوريا المتكررة فكان انقلاب الحناوى انجليزيا ردا على انقلاب حسنى الزعيم الذى اعتبر انقلابا امريكيا)

وفى ١٩٥٦ كانت أوربا الغربية قد أعيد بناؤها داخليا وأراد الانجليز والفرنسيون تحدى مركز امريكا (مثلما تحدت الصين روسيا فى نفس الوقت) ولكن انهزمت القوتان الاستعماريتان القديمتان امام اصرار أمريكا على انسحابهما من الشرق الاوسط وأصبح عبد الناصر بطلا رغم أن الهزيمة العسكرية كانت كفيلة بمحاكمات واقالات فى أى نظام يحترم نفسه - ورغم أن أعضاء مجلس قيادة الثورة فكروا فى الانتحار (وهى رواية أصبحت متواترة)

ان السبب الجوهرى فى هزيمة بريطانيا ليس هو قيام أمريكا بما أسماه ايدن (خنق الاقتصاد الانجليزى) ولكن السبب هو بلوغ كل من بريطانيا وفرنسا سن

الشيخوخة كامبراطوريات ـ ومن ثم فان تحديهما لحركة التاريخ كان لا بد أن ينتهي بالهزيمة .

* * *

٤ ـ ان التوجية العقائدى القومى والاشتراكى كان يخدم مصالح الغرب:

لقد أثبتت خبرة حرب فلسطين (١٩٤٨) أن خطة عزل الشعب عن الاسلام ليست كافية لاخماد الروح فيه ـ وهكذا طورت القوى الشيطانية أفكارا جديدة تتضمن ضرورة تغيير عقيدة الشعب وتخريبه نهائيا ـ ولكن هذه الخطة رغم وجاهتها من الناحية النظرية فانها مستحيلة التطبيق عمليا لأن محاولة تحدى الاسلام ـ فضلا عن أنها ستفشل لا محالة ـ فانها ستتطلب مقدارا هائلا من ممارسة القهر البوليسى والكبت الفكرى وهو وان كان كفيلا بتخريب الانسان (ومن ثم هزيمة ٦٧) الا أنه لا يضمن ازالة الاسلام .

لقد اعترف بعض الناصريين بهذه الحقيقة مؤخرا ـ ولكنهم اعترفوا على استحياء " ان انساننا فقد ما زودته به الثورات الدينية الروحية فى الماضى ولم تعوضه الثورة الاجتماعية الحديثة ما فقد ـ بالغت ثورتنا بالتوجه الى ناحية واحدة من نواحى الانسان وأهملت غيرها اهمالا كليا فلم تدعم ثورة الاقتصاد بثورة الفكر والثقافة وكان مقدرا للثورة العربية لو خاطبت روح الفرد مخاطبة عميقة أصيلة أن تنفحه بقدرة على الفداء جديدة تضاف الى ما يلهمه به تراثه"(١)

* * *

٥ ـ الجغرافيا السياسية لمصر تضفى على النظام الحاكم وزنا كبيرا :

من المعروف تاريخيا أن جميع التجارب العلمانية قد بدأت فى مصر ثم (صدرت) الى المنطقة وكانت الافكار القومية والاشتراكية شيئا مخيفا بالنسبة الى الانظمة المفلسة المحيطة بمصر واعتقدت هذه الانظمة أن النظام المصرى قادر

---

(١) ندوة ناصر الفكرية : ملامح المشروع الحضارى العربى المعاصر بيروت ٨٢ مقالة منح الصلح : ملاحظات حول المشروع الحضارى العربى المعاصر ص١٩

على اختراقها ـ ولما كانت هذه الانظمة مرتبطة بالغرب فقد ولد عداؤها لعبد ناصر انطباعا زائفا بأن عبد الناصر معاد للغرب ـ ان استقرار وزيادة شرعية أى نظام حاكم فى المنطقة لا بد بالضرورة من أن يمر عبر العداء للغرب .

* * *

٦ـ الانفراج فى العلاقات الدولية جعل نظام يوليو يعرف امكانياته الحقيقية اذا أراد التصدى للغرب :

قلنا ان عبد الناصر أحس منذ سنة ١٩٦٥ أن الدور سيأتى عليه ـ ولقد أورد فى تصريحاته وخطبه كلاما بهذا المعنى ـ وبالفعل لم يتأخر دوره وكانت حرب ١٩٦٧ ـ واذ تأكد لعبد الناصر أن أساليبه السابقة فى استغلال التناقضات الدولية لاظهار نفسه بمظهر البطل الخارق للعادة ـ لم تعد ممكنة الآن ـ فقد قبل بقرار ٢٤٢ الذى نص على (انسحاب اسرائيل من أرض احتلتها) و (احترام السيادة والحدود الاقليمية والاستقلال السياسى لكل دول المنطقة وحقها فى أن تعيش بسلام فى نطاق حدود آمنة ومعترف بها محمية من التهديد) وعاد أيضا وقبل مبادرة روجرز التى نصت على (الاقرار من جانب الاطراف[1] بسيادة وسلامة الاراضى والاستقلال السياسى) ـ وعندما جاء السادات استكمل مسيرة سلفه فى التفاوض ـ ولكن ازاء تعنت اسرائيل والاصرار الشعبى المصرى على الحرب فقد اضطر السادات لخوض حرب ١٩٧٣ التى أعلن فيما بعد رسميا أن هدفها كان العبور واتخاذ أوضاع دفاعية مسافة ١٠ ـ ١٢ كم[2] شرق القناة يتم خلالها تحريك الموقف الدولى .

---

(١) الاطراف هى مصر واسرائيل والاردن .

(٢) من المعروف أن هذه المسافة هى أقل مسافة ممكنة لاقامة رؤس جسور ـ وقد كشف النقاب بعد ذلك أن الانهيار السريع لم يقابله تقدم على الجانب المصرى بسبب عدم وجود خطط للتقدم أصلا ـ وقد أعرب ديان فى مذكراته عن دهشته من عدم استغلال المصريين للفرصة .

٧ـ التوافق بين تصاعد عائدات النفط العربى والتحولات الاجتماعية الجديدة فى مصر :

كما سنرى باذن الله ـ كان على نظام يوليو أن ينفس شيئا من الكبت الذى فرضه عبد الناصر فكان بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ الذى دعا الى المجتمع المفتوح واعترف بفقدان النظام للسيطرة العقائدية ولكن البيان لم ينفذ بحجة أنه (لا صوت يعلو فوق صوت المعركة) ولذلك عندما جاء السادات وسط ظروف بائسة فقد سعى لاقامة شرعية خاصة به بأن هدم النموذج الناصرى القمعى[1] مما أدى الى رد فعل جماهيرى جارف تبدى فى تأييد السادات فى خطواته لتصفية خصومه (مايو ١٩٧١) ـ وشيئا فشيئا تم التخلى عن كل الضوابط القديمة وأصبح ممكنا أن يعمل النفط عمله جنبا الى جنب مع التخطيط الامريكى لتخريب المجتمع المصرى .

* * *

---

(١) كان لابد من ذلك قبل الدخول فى معركة ١٩٧٣ لان الانسان الذى يعيش فى كبت لم يكن لينتصر أبدا .

الضباط الاحرار

التنظيم :

عند ما كان الاخوان ينشئون تنظيمهم السرى (١٩٤٠) - كان حسن البنا يكلف نائبه محمود لبيب بتكوين وادارة تنظيمين سريين فى كل من الجيش والشرطة - وبالطبع كان لابد من اختيار اسم للتنظيم يبعد به عن الارتباط بالاخوان - فاختار محمود لبيب لتنظيم الجيش اسم " الجنود الاحرار بالجيش " وأحيانا " الضباط الاحرار "

وفى ديسمبر ١٩٤١ أرسلت " لجنة الجنود الاحرار بالجيش " عريضة الى الملك طالبت بما يلى (١) :

١ - بث الروح فى أفراد الجيش المصرى ضد الجيش البريطانى .

٢ - مقابلة الاعتداء بالاعتداء (ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) .

٣ - القبض على أى فتاه مصرية تسير مع أى جندى بريطانى .

٤ - الافراج عن عزيز المصرى وعن عدد من الطيارين .

٥ - الغاء معاهدة ١٩٣٦ .

٦ - منح الجندى حق محاربة ما يخل بالقانون .

كان أول من انضم للتنظيم اثنان : عبد المنعم عبد الرؤف وحسين حمودة - قاما بدورهما بضم خمسة من زملائهم (عبد الناصر - كمال الدين حسين - سعد حسن توفيق - خالد محى الدين - صلاح الدين خليفة)

---

(١) عن زكريا سليمان بيومى م.س.ذ ص ٢٤٨ نقلا عن تقارير البوليس المخصوص لعام ١٩٤١ المحفوظة بالقلعة - وقد أورد صلاح شادى معلومات مشابهة فى كتابه صفحات من التاريخ - نشر دار الشعاع بالكويت (كان صلاح شادى هو المسئول عن التنظيم السرى للشرطة) .

وكون هؤلاء الخلية الرئيسية التى تفرعت عنها فيما بعد سلسلة من الخلايا (١).

ويذكر السادات أن الضباط عرضوا على حسن البنا خطة لابادة الجيش الانجليزى عند عودته من العلمين ولكن البنا أجهش بالبكاء " فلم تكن هناك قوة كافية لتنفيذ الخطة" (٢)

كان محمود لبيب هو المشرف على اجتماعات كل الخلايا (٣) وكان هو الوحيد الذى يعرف أفراد التنظيم كله ـ وفى البداية دار جدل بين حسن البنا ومحمود لبيب (وربما اشترك فى النقاش آخرون) حول ما اذا كان ينبغى الاهتمام بغرس القيم الاسلامية فى نفوس الاعضاء أم يكتفى بتجميع العناصر الوطنية المتحمسة ثم يأتى تحويلهم الى الاسلام فى مرحلة لاحقة ـ وفى النهاية انتصرت وجهة النظر الاخيرة ـ وهكذا كان كثير من أعضاء التنظيم لا يحملون الفكر الاسلامى ـ وكانت كل أفكارهم لا تعدو بعض التصورات السطحية الهلامية .

---

(١) كان من أعضائها : عبد اللطيف بغدادى ـ عبد الحكيم عامر ـ السادات ـ ثروت عكاشة ـ توفيق عبده اسماعيل ـ ابراهيم الطحاوى صلاح سالم ـ حسين الشافعى ـ حسن ابراهيم .

(٢) أنور السادات . أسرار الثورة المصرية ط ١٩٥٧ ص ٩١ - ٩٢

(٣) فى مذكراته التى نشرها بمجلة المصور (١٩٥٢/١٠/٣١) قال عبد الناصر انه انضم للتنظيم الذى كان يقوده الصاغ م.ل. ومع ذلك قال عبد الناصر فى مرحلة لاحقة انه هو مؤسس التنظيم ـ ثم قام السادات بدوره بادعاء تأسيسه للتنظيم وأنه " سلمه لعبد الناصر" واشترك حمروش بدوره فى حملة التزييف تلك .

ولكن بسبب النضال ضد الانجليز وشن الاخوان لحرب عصابات في عام ١٩٤٦ - فقد قام أفراد التنظيم بمبايعة الاخوان وقام بعض أعضائه بتدريب التنظيم السرى للاخوان (الذى كان يقوده السندى) بهدف مواصلة النضال ضد الانجليز.(١)

ويبدو أن عبد الناصر كان أكثر العناصر تحمسا - بدليل أن محمود لبيب عند ما اعتلت صحته أفضى بأسرار التنظيم لعبد الناصر - وفي الحقيقة ان محمود لبيب رغم مركزه الهام داخل الاخوان - كان (متساهلا) في بعض أفكاره ولم يكن يرى تعارضا بين الوطنية المصرية والاسلام(٢) وهكذا لم يكن هناك حرج من تفضيل عبد الناصر على غيره من قدامى الاخوان(٣)

---

(١) راجع مثلا : شهادة ابراهيم بغدادى في : حمروش : قصة ثورة ٢٣ يوليو جـ ٤ طبعة بيروت ١٩٧٧ .

(٢) راجع بعض أفكار محمود لبيب في ثنايا روايته لاحداث فترة من حياته التى صدرت تحت عنوان (حماة السلوم) عن دار الانصار ١٩٨٠ (وان كانت المخطوطة قد كتبت قبل وفاته سنة ١٩٤٨) ومن الكتاب يتضح أن محمود لبيب - اضافة لقبوله بالفكرة الوطنية كان يحترم أشياء غريبة مثل ما يسمى بالانضباط العسكرى والشرف العسكرى . . الخ .

(٣) خاصة وأن هؤلاء لم يختلفوا كثيرا في طريقة تفكيرهم عن محمود لبيب - راجع مثلا مذكرات حسين حمودة بعنوان : اسرار حركة الضباط الاحرار والاخوان المسلمون - الزهراء للاعلام العربى ١٩٨٥ .

فى ذلك الوقت أيضا كان بعض الوطنيين بالجيش يعملون على محاربة الانجليز والوفد[1] من خلال تنظيمات صغيرة هى أقرب ما تكون الى الشلل ، ولكنها ـ فى مرحلة لاحقة ـ تحولت الى أداة فى يد الملك لتصفية خصومه (الحرس الحديدى) ـ فقد اقتنع معظم الاعضاء بجدوى الاستناد الى الملك فى غمرة عدائهم للانجليز والوفد ـ وكان السادات أحد الذين عملوا فى الحرس الحديدى .

وفى ذلك الوقت أيضا كان بعض ضباط الصف والجنود يأخذون طريقهم الى تنظيمات شيوعية (ولكن بقى عددهم محدودا جدا) .

ومع تجمد النضال ضد الانجليز جزئيا ـ بسبب انسحابهم من مدينتى القاهرة والاسكندرية ـ اعتبارا من سنة ١٩٤٧ ، وبسبب اشتداد الصراع الداخلى فى مصر بين القوى السياسية ، شعر بعض الضباط بالاحباط وبخطورة الارتباط بتنظيمات قائمة ـ وطبعا كان ذلك بسبب قلة وعيهم ـ ذلك أن نظام التنشئة العسكرية يجعل الانسان ينفر من الفوضى ويشكل عقله بطريقة لا يستطيع معها أن يتفهم مغزى التحولات الاجتماعية فى مرحلة مخاض خطيرة كمرحلة ٤٥ / ١٩٥٢ ـ وبسبب اهمال الاخوان فى تقديم برنامج تثقيفى محدد للضباط ـ فقد اتجه بعضهم للاتصال بالتنظيمات الشيوعية التى كانت تمتلك نظريات ومناهج كفيلة بشغل وقت العضو واثارة الجدل ـ وهكذا انضم خالد محى الدين الى منظمة ايسكرا الشيوعية ومنها الى حدتو ـ ولكن بسبب خيانات حدتو

---

(١) مثلا عندما كان النقراشى يقول للانجليز" أيها القراصنة أخرجوا من بلادنا" كان النحاس ـ وهو غير ذى صفة رسمية ـ يرسل برقية الى مجلس الامن يقول فيها ان النقراشى لا يمثل الشعب المصرى ولذلك قرر أحد تنظيمات الضباط اعدام النحاس ـ وبعد فشل محاولتهم اقترحوا نسف منزله على من فيه ولكن عارض بعضهم بحجة أن فى ذلك قتل الابرياء ـ انظر تفاصيل كثيرة عن أحداث مشابهة فى : حمروش ـ الجزء الاول (مصر والعسكريون) ص ص ١١٢ - ١١٦

عند ما اند لعت حرب فلسطين فقد انفض من حولها معظم من انضموا اليها ـ وفى الحقيقة لم يكن هؤلاء الضباط ملحدين (وان كان اعتناقهم النظرية الاقتصادية الشيوعية قد أخرجهم عن الاسلام بالطبع) .

وبسبب حرب فلسطين فقد تفكك الهيكل التنظيمى للضباط (الذى كانت عوامل تفككه موجودة فى الاصل) ـ وبعد انتهاء الحرب ـ وفى مطلع ١٩٥٠ تشكل تنظيم " الضباط الاحرار " من جديد ـ وكانت لجنته التأسيسية هذه المرة مكونة من خمسة أشخاص : عبد الناصر ـ كمال الدين حسين ـ عبد المنعم عبد الرءوف ـ حسن ابراهيم ـ خالد محى الدين [(١)] ولم يكن على صلة تنظيمية بالاخوان سوى عبد المنعم وان بقيت لكمال الدين حسين صلات بالاخوان (ولكن بصورة غير تنظيمية) ـ وبعد عدة شهور ضم خمسة آخرون للجنة التأسيسية : صلاح وجمال سالم ـ عبد اللطيف بغدادى ـ عبد الحكيم عامر ـ السادات . وهكذا أصبح التنظيم على صلة بالاخوان (عبد المنعم عبد الرءوف) وبالشيوعيين (خالد محى الدين) وبالملك (السادات)

وبعد ذلك بدأ التنظيم (الذى انتخب عبد الناصر رئيسا لـه) حملة أرسل فيها الآلاف من المنشورات على عناوين ضباط الجيش وبدأت حملة واسعة لتجنيد أعضاء جدد (وصل عدد الضباط غداة الانقلاب الى ٢٦٧) .

ورغم أن بعض قيادات التنظيم كانت معروفة للنظام (مثلا على اثر تصفية التنظيم السرى للاخوان سنة ١٩٤٨ اكتشف النظام علاقة عبد الناصر بهم واستدعاه رئيس الورزراء ابراهيم عبد الهادى وحذره من

---

(١) حمروش جـ١ ص ١٤٦

أى ارتباط بالاخوان[1] ـ ورغم ذلك فقد كان تحرك التنظيم سهلا بسبب قوة العدد الشعبى وتفكك أوصال النظام وضعف أجهزة الامن [2]

اتصل عبد الناصر بكل من الاخوان ومصر الفتاة والوفد والشيوعيين وعرض عليهم مساعدة التنظيم فى الانقلاب ـ فتشكك الجميع فى أهدافه ومشروعه ـ فاتجه بعدها لجمع عدد كبير من الضباط (من الغرز والبارات على حد تعبير كمال الدين حسين فى رسالته الشهيرة لعبد الناصر بعد ذلك) ـ وقد أطلق على هؤلاء الضباط من باب السخرية "كمالة العدد" وكان عبد الناصر يجمعهم فى جلسات لتحضير الارواح (لكى يختبرهم على حد تعبيره) [3] .

ونظرا لان عبد الناصر كان برتبة مقدم فقد سعى التنظيم للاتيان بواجهة له يكون برتبة كبيرة ـ وهكذا وقع اختيارهم على أحد الضباط الوطنيين (محمد نجيب) بعد أن أبلى بلاء حسنا فى حرب فلسطين .

الاصول الاجتماعية والفكر :

لم يكن عدد أفراد الجيش المصرى يزيدون على ۰۰۰ر۱٥ غداة توقيع معاهدة ۱۹۳٦ ـ وكان جل هؤلاء من أبناء الاقطاعيين والمترفين ولكن بسبب احساس الانجليز بتفاقم الخطر النازى ـ فقد فتحت أبواب الكلية الحربية على مصاريعها لتخريج أكبر عدد من الضباط وفى أسرع وقت ـ ومن الدفعات الاولى من خريجى الكلية بعد ۱۹۳٦ كانت قيادات تنظيم الضباط.

---

(۱) فى هذا اللقاء قال عبد الناصر لرئيس الوزراء انه معجب بالاخوان ولكنه ليس عضوا فى تنظيمهم أما علاقته بمحمود لبيب فقد بررها بأنهما عملا معا لتنظيم الدفاع عن فلسطين.
(مذكرات عبد الناصر فى عدد ٥ ديسمبر ۱۹٥۲ من مجلة المصور)

(۲) يذكر حمروش أن عدد ضباط المخابرات الحربية وقتها لم يزد على ۱٥ جند بعضهم فى التنظيم وأن عدد ضباط القسم المخصوص (مباحث أمن الدولة حاليا) لم يزد على ۲٤ .

(۳) راجع وصفا لجلسة تحضير أرواح فى بيت عبد الحكيم عامر حسب رواية عبد الناصر لها فى عدد ۷ نوفمبر ۱۹٥۲ من مجلة المصور .

لقد كان معظم الضباط من الطبقات المتوسطة ـ لان المصاريف المرتفعة للكلية لم تسمح للفقراء بدخولها ـ ولكن لم يكن فيهم أبدا ابن لا قطاعى أو رأسمالى ـ وان كان بعضهم (عبد الحكيم عامر ـ بغدادى) من أبناء العمد ـ ومن بين ٢٦٧ ضابطا لم يكن هناك سوى قبطى واحد .

وبسبب انتقال الضباط من المدارس الثانوية الى الكلية الحربية مباشرة ـ وبسبب طبيعة الحياة العسكرية ـ فلم تتح لهم فرصة لبلورة أفكار وتكوين مدركات عن العالم من حولهم ـ وفى ذلك يقول حمروش (جـ١ ص ٢١١) " يصعب القول بأن الضباط فى مجموعهم أو فى الاغلبية من قياداتهم كانوا من المثقفين لان طبيعة الضباط وتعليمهم وعزلتهم عن المجتمع تجعل منهم فئة خاصة تتعامل مع الحياة بالاسلوب الذى اعتادته فى الجيش والذى يغلق دائرة التفكير غالبا فى حدود اعطاء الاوامر وتنفيذها" ـ ولم يكن من بين الهيئة التأسيسية للضباط من حصل على شهادة جامعية سوى خالد محيى الدين (بكالوريوس تجارة) .

ولذلك فمن الاجحاف أن نقول انه كان لحركة الضباط فكر (باستثناء بعض الاخوان والشيوعيين) ـ بل ان السادات نفسه عزا نجاح الحركة الى " عدم وجود نظرية خاصة بها " لان النظرية " قد تتعرض للجدل فتتعرض الجماعة للانقسام ولذلك أرجع الفضل فى نجاح هذه الثورة الى شىء أهم من المبادىء ـ الى الصداقة العزيزة الوثيقة التى ربطت بين كل من شارك فيها " ! !

وقد برر عبد الناصر فى وقت لاحق (سنة ١٩٦١) هذا الموقف فقال " ماكانش مطلوب منى أبدا فى يوم ٢٣ يوليو انى أطلع معايا كتاب مطبوع وأقول ان هذا الكتاب هو النظرية ـ مستحيل ـ لو كنا قعدنا نعمل الكتاب ده قبل ٢٣ يوليو ماكناش عملنا ٢٣ يوليو لان ماكناش نقدر نعمل العمليتين مع بعض "

ان الافتقاد الى فكر قد جعل عبد الناصر (حسب روايته فى فلسفة الثورة) ينظر الى القضية الفلسطينية باعتبارها مجرد عامل تهديد لأمن مصر

ـ أما السادات فقد ذكر أكثر من مرة أنه « وعى » تاريخ مصر من كتب الرافعى (فهل هذا يكون قد وعى شيئا) ـ ان أكثر النماذج الصارخة فى خطورة الافتقاد الى فكر هو اعلان الانقلابيين بأن الثورة « غير دموية » ـ فكيف تكون ثورة وفى نفس الوقت غير دموية .

وبسبب الافتقاد الى فكر فقد كان طبيعيا ألا يتم تحديد العدو بدقة ـ ورغم أن مقر الحركة الصهيونية كان قد انتقل الى أمريكا بعد ١٩٤٥ ورغم دور أمريكا الواضح فى حرب ١٩٤٨ فلم يكن الضباط (باستثناء الاسلاميين) يكرهون أمريكا ـ ولذلك لم يجد الضباط حرجا فى الاتصال برجال المخابرات الامريكية ـ وان كان حمروش يحاول تبرير ذلك (جـ ١ ص ص ١٨٢ - ١٨٨) بقوله " والمقطوع به أن الامريكيين قد وجدوا فى التنظيم السرى لحركة الضباط الاحرار بعض ما يحقق لهم أهدافهم فى المنطقة ولكنهم لم يستطيعوا أبدا أن يكونوا مسيطرين عليه" (١)

(ولماذا يرهقون أنفسهم بالسيطرة عليه مادام يحقق أهدافهم؟)

وبسبب الافتقاد الى فكر فلم يكن للتنظيم برنامج محدد (٢) ـ بل ولم يكن للتنظيم لائحة (لانه لم يتسع الوقت لكتابتها (٣)) ـ وعندما علم الضباط

---

(١) طبعة بيروت جـ ١ ص ص ١٨٢ - ١٨٨ ، ط الموقف العربى جـ ٢ ص ١٥

(٢) تزعم بعض الدراسات أن برنامج الضباط كان الاهداف الستة التى كتبها عضوان فى حدتو (أحمد فؤاد وخالد محى الدين) وعلى الرغم من أن هذه الاهداف لا تشكل الا صياغة نثرية انشائية حول بعض مطالب القوى الجماهيرية ـ فقد صرح صلاح سالم أحد قادة التنظيم بأنه لم يسمع عن هذه الاهداف ولم يعرفها الا بعد نجاح الانقلاب (حمروش ص ١٨٠)
أما أول بيان أذيع عن حركة الجيش فقد ذكر" قمنا بتطهير أنفسنا وتولى أمرنا فى الجيش رجال نثق فى قدرتهم وفى خلقهم وفى وطنيتهم" و " اننى أطمئن اخواننا الاجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم "

(٣) حمروش جـ ١ ص ١٧٨

بانكشاف أمر التنظيم ـ لم يدروا ما يفعلون ـ وفى ١٩ يوليو ١٩٥٢ قرروا اغتيال ٣٠ شخصية من المفسدين (منهم فؤاد سراج الدين ـ حافظ عفيفى حسين سرى عامر) ولكن بسبب افتقادهم الى سيارات فقد تطور تفكيرهم الى التخطيط للسيطرة على الاذاعة لاعلان بعض مطالبهم ، ولكن ـ وبنفس السرعة والارتجالية ـ تقرر عمل انقلاب كانت نسبة نجاحه فى تقديرهم ٢٠٪ ـ وكان انقلاب ٢٣ يوليو !!!

ورغم ذلك ـ فيجب ألا نسخر من الطريقة التى حدث بها الانقلاب ـ لانه طبقا لسنن الله كان لابد من سقوط النظام اللبرالى بوصول الظلم نقطة معينة ـ وطالما أن الاسلاميين تقاعسوا فى ذلك الوقت ـ فقد أراد الله أن يعلمنا أن عددا من الضباط الذين لا يحملون فكرا ، قد تمكنوا وبطريقة ارتجالية ـ من اسقاط الحكم عندما توفر لديهم التصميم على ذلك .

البحث عن البديل (١٩٥٢ - ١٩٦١)

تميزت فترة ١٩٥٢ - ١٩٦١ من تاريخ مصر بكثير من التطورات الجسيمة والوقائع المتناقضة والتى حار بعض المؤرخين فى تفسيرها - فلم يجدوا بدا من القول بمذهب " الثورة لها سلبيات وايجابيات " - أو بالقول بأن نظام يوليو " حقق انتصارات مدوية ومنى بهزائم مدوية أيضا " ؟ (١)

ان فرضيتنا التى نقدمها فى هذا البحث لتفسير ما اعتبره كثير من المؤرخين وقائع متناقضة ، هى :

" كان نظام يوليو يحاول تحقيق العدالة الاجتماعية ولكنه غير مستعد على الاطلاق لمواجهة القوى الكبرى وكان فى ذلك متوافقا مع أهداف بعض هذه القوى - أمريكا بالذات - كما سبق أن ذكرنا ، وفى سبيل تحقيق العدالة كان لا بد من تصفية القضايا الاصلية للجماهير (القضايا الوطنية) وهذه بدورها لم يكن ممكنا تصفيتها الا بالقضاء على الاسلاميين - الذين سيصرون بلا شك على اعطاء كل قضية حجمها الحقيقى " .

وبهذا فنحن بازاء سيناريو من ٤ مراحل :

١ - تصفية الاسلاميين ١٩٥٢ - ١٩٥٤ .
٢ - تصفية القضايا الوطنية ١٩٥٤ - ١٩٥٧
٣ - كبت جميع الاراء المعارضة
٤ - محاولة تحقيق العدالة .

* * *

(تصفية الاسلاميين ١٩٥٢ - ١٩٥٤)

الثابت أن الاخوان كانوا هم الجماعة السياسية الوحيدة التى قبلت بالتعاون مع العسكريين غداة الانقلاب - فعندما ارتبك الضباط فى الفترة ١٧-٢٢ يوليو وقرروا الانقلاب على عجل - اتصلوا بالهضيبى (٢) وطلبوا مساعدة

---

(١) عبد العظيم رمضان : تحطيم الالهة - مدبولى ١٩٨٥ ص ١٠
(٢) كان عبد المنعم عبد الرؤوف قد فصل من عضوية الهيئة التأسيسية للضباط قبل الانقلاب بعدة شهور بسبب اصراره على الارتباط بالاخوان - لكنه بقى جنديا بالتنظيم .

الاخوان فى الانقلاب فوافق بشرط أن يكون التزام الضباط الوحيد للاسلام - وكان دور الاخوان يتلخص فى صد أى تحرك محتمل يقوم به الجيش الانجليزى انطلاقا من قاعدة القناة نحو القاهرة - كما قام جوالة الاخوان بحراسة السفارات والمنشآت الحيوية بالقاهرة - كما قاموا ليلة الانقلاب " بحراسة الكنائس ومعابد اليهود "(١) - ولقد قال فاروق عند طرده من مصر " ان الذى قام بهذه الحركة شرذمة من الاخوان المسلمين "

كان نجاح حركة الضباط يعنى بداية الصدام بين قوتين :

١ - الاتجاه الاسلامى بانتمائه العالمى والذى يهتم بكل قضايا المسلمين بنفس القدر - بل وربما بأكثر من اهتمامه بالقضية الاجتماعية .

٢ - الضباط الذين لا يحملون فكرا ولا تتعدى أهدافهم تحقيق اصلاحات داخلية فى مصر مع الاستعداد لمهادنة الاستعمار وتصفية القضايا الوطنية (فلسطين - السودان - الجلاء)

وبينما كان الاتجاه الاول هو القوة الشعبية الوحيدة فى مصر وقتها فان الاتجاه الاخير كان هو صاحب السلطة وكان أيضا قد حصل على تعاطف شعبى اذ كان الناس وقتها يتطلعون الى " المخلص " حتى لقد كثرت الكتابات فى الصحافة عن " المستبد العادل "

وربما ثار تساؤل : لماذا لم يتبن العسكريون مطالب الاسلاميين الوطنية فهى لا تتنافى مع مشروعهم للاصلاح الاجتماعى . ان الاجابة بسيطة - أن تركيبة هؤلاء الاشخاص وحدود تفكيرهم لا تسمح لهم بأكثر مما قاموا به - كما أنهم ليسوا على استعداد لتحدى القوى العالمية - بل ولم يكونوا يتصورون ذلك (مثلا غداة العدوان الثلاثى اقترح صلاح سالم التسليم للسفارة البريطانية واقترح عبد الناصر أن ينتحر الجميع حسبما روى بغدادى فى مذكراته) .

* * *

كان لابد أن يتصاعد التناقض بين القوتين لدرجة أن تسعى احداهما

---

(١) حمروش - الجزء الرابع - شهادة عبد اللطيف بغدادى ص ٣٠٩

لتصفية الاخرى ، ورغم سعى الاخوان لذلك ، فان ترددهم فى بعض اللحظات جعلهم يضيعون فرصا كثيرة - أما العسكريون (١) فقد كانوا يخططون لتصفية الاسلاميين منذ البداية (٢) .

ان تصفية الاسلاميين كانت تتطلب :

١ - محاولة تلويثهم باد خالهم فى ممارسات متناقضة لكى يفقدوا حجتهم ومصداقيتهم (دائما يكون الجو العام بعد الثورات مثيرا للتناقضات)

٢ - تبنى برامجهم .

٣ - استغلال التناقضات فيما بينهم واستغلال ما يمكن أن يقعوا فيه من أخطاء بسبب فهمهم الخاطىء لطبيعة المرحلة الجديدة .

٤ - عزلهم عن جماهيرهم .

ولا شك أن العسكريين استرشدوا فى ذلك بنصائح المخابرات الامريكية - وحتى تظهر وثائق يقينية - فاننا سنكتفى فى هذا المجال بشهادة ابراهيم بغدادى (٣) وهو أحد الضباط الذين تدربوا على يد فريق من رجال المخابرات الامريكية بعد الانقلاب مباشرة .

وتحقيقا للنقطة الاولى (تلويث الاسلاميين) فقد عرض مجلس القيادة اشراك الاخوان فى الحكم (٤) وكان موقف الاخوان متسما بالتردد والتحفظ لما لاحظوه من عدم اسلامية الحركة (فى لقاء عبد الناصر بالهضيبى فى ٣٠ يوليو بدأ عبد الناصر يتنصل من وعوده بتطبيق الاسلام) - لكن الاخوان لم يريدوا

---

١) المقصود بالعسكريين من الان فصاعدا : عبد الناصر باعتباره الحاكم الفعلى وقتها .

٢) كان العسكريون كلهم يعرفون نوايا الاخوان جيدا - ويذكر بغدادى فى شهادته (حمروش جـ ٤ ص ٢١٨) أن حسن البنا قال له " نحن لسنا رجال دين (بريالة) ولكننا اصحاب هدف سياسى والدين طريقنا لزيادة الايمان وعندنا الجنود وينقصنا القادة "

٣) راجع : حمروش جـ ٤ ص ١٢

٤) راجع تفاصيل كثيرة فى : حسن عشماوى : الاخوان والثورة روز اليوسف ١٩٧٨

قطع الخيط مع رجال الحركة ـ فكانت اللقاءات الدورية بين الهضيبى وعبد الناصر ـ وبسبب ادخال الباقورى الى الوزارة بالكيفية المعروفة تعمقت أزمة الثقة بين الاخوان والحركة ـ وتشكلت وزارة محمد نجيب (١) من أعضاء معظمهم من الحزب الوطنى الجديد (الذى كان وطنيا بحق لكن ليس له أى نفوذ شعبى) .

وبالنسبة للنقطة الثانية : فقد طلب العسكريون من الاحزاب وضع برامج وتصورات للاصلاح ـ وبينما دعا الوفد والسعديون والدستوريون والحزب الوطنى الى فرض ضرائب تصاعدية على الدخل مع عدم المساس بالاقطاع ـ فان الاخوان والحزب الاشتراكى والحزب الوطنى الجديد وحزب الفلاح (والاحزاب الاخيرة كانت هزيلة جدا) قد طالبوا بتحديد الملكية .

لقد خلص أحد الباحثين الى " بعكس ما هو شائع فان السياسة الداخلية والخارجية قد أخذها عبد الناصر عن منشورات الاخوان " (٢) ـ ومنذ البداية ـ اعتبر الاخوان من أول يوم أن ما حدث كان ثورة ستسعى لتغيير الهياكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية ـ وهو " فهم أدق من فهم أصحابها لها " كما لاحظ بحق عبد العظيم رمضان (٣) ـ فقد أصر العسكريون منذ البداية على أن ما قاموا به هو (انقلاب) أو (حركة الجيش) .

وطبقا لفهم الاخوان ـ وبعد اسبوع واحد من الحركة ـ قدم الاخوان برنامجهم بعنوان " الاصلاح المنشود فى العهد الجديد " حيث طالبوا بألا يقتصر التطهير على عزل الملك بل يجب أن يمتد الى كل رجال الحكم الذين " جاوزوا كل حد فى التفريط وتضييع الامانة والى كل من أساء استخدام السلطة بمصادرة الحريات وترويع الآمنين " وطالبوا بالغاء الاحكام العرفية والقوانين

---

١) بعد الانقلاب تولى على ماهر رئاسة الوزارة لمدة ٤٧ يوما ـ ثم رُفض ترشيح السنهورى لانه غير مرضى عنه من أمريكا ـ فتولى نجيب الوزارة .

٢) بكر مصباح تنيرة : تطور النظام السياسى فى مصر (١٩٥٢ - ١٩٧٦) دكتوراه فى السياسة من جامعة القاهرة ١٩٧٩ ـ ص ٢٢٤

٣) راجع عبد الناصر وأزمة مارس ص ١١٠

المقيدة للحريات وتحريم ما حرم الله ـ كما طالبوا " بتذويب الفوارق بين الطبقات " وبأنه " لا سبيل الى اصلاح جدى الا بتقرير حد أعلى للملكية وبيع الزائد منها الى المعدمين وصغار الملاك بأسعار معقولة تؤدى على آجال طويلة " وطالبوا باباحة تكوين الاتحادات النقابية وبأن يكون الانتساب اليها اجباريا وطالبوا بتمصير البنك الاهلى والغاء البورصة ـ كما طالبوا بتغيير مناهج التعليم وبنشر الفضيلة والاخلاق وبتوسيع التجنيد ليشمل كل القادرين على حمل السلاح وبالمبادرة بانشاء مصانع للاسلحة والغاء البوليس السياسى ـ ولخص البيان خطوط الاصلاح فى ثلاثة أمور :

" ـ ظالم يقتص منه ـ مظلوم ترد له حقوقه ـ أوضاع مكنت الظالم من الظلم يجب أن تغير تغييرا شاملا " .

وفى برنامجهم هذا (والذى نشرته جريدة الاهرام فى ١٢ أغسطس ١٩٥٢) طالب الاخوان بالغاء دستور ١٩٢٣ لانه لا يعبر عن ارادة الشعب وواقعه الاجتماعى والاقتصادى ـ وطالبوا بالتصدى للاحتلال الانجليزى .

وبناء على ذلك أعلن محمد نجيب فى ١٩٥٢/١٢/١٠ " باسم الشعب أعلن سقوط الدستور دستور ١٩٢٣ " (١) .

كان الوفد يريد الالتفاف حول وعى الناس من جديد ـ وفى هذا الاطار أصدر (فى ١٩٥٢/٩/٢١) أول برنامج مكتوب فى تاريخه والذى نص على : " الوفد هيئة سياسية ديمقراطية اشتراكية ! ! ! ـ التمسك بعروبة فلسطين ـ جعل التعليم الدينى اجباريا ـ تحريم الخمر والميسر ـ اصلاحات عمالية وفلاحية تشمل تحديد الملكية "

لقد كان الوفد مغرقا فى الوهم عندما تصور أنه يمكن أن يعود لحكم مصر ـ لكنه ما لبث أن عرف حجمه عندما لم ينتفض أحد من أجله بعد أن أعلن نجيب فى ١٩٥٣/١/١٧ " حل جميع الاحزاب السياسية ومصادرة جميع أموالها لصالح الشعب بدلا من أن تنفق فى بذر بذور الفتنة والشقاق "

---

١) كان بيان الانقلاب (الذى وقعه نجيب وقرأه السادات) ينص على أن " الجيش كله يعمل لصالح الوطن فى ظل الدستور "

وأعلن نجيب " منذ اليوم لن أسمح بأى عبث أو اضرار بمصالح الوطن وسأضرب بمنتهى الشدة على كل من يقف فى طريق أهدافنا التى صنعتها آلامكم الطويلة "

كان الغاء الاحزاب خطوة فى الطريق الصحيح وكان البديل الذى اقترحه الاخوان قيام حكم نيابى سليم - ولما لم تظهر أية بادرة على ذلك - فقد تخوف الناس من بوادر اتجاه للدكتاتورية - وقام الوفد والشيوعيون [1] بالتحالف من أجل البقاء - وأصدروا منشورات تدين الدكتاتورية - أما الاتجاه الاسلامى فقد كان رده مباشرا : قام رشاد مهنا [2] بتوجيه ضباط المدفعية الى انقلاب لاسقاط النظام (يناير ١٩٥٣) - لكن الانقلاب فشل وزج بـ ٣٥ ضابطا (معظمهم من الاحرار) فى سجن الاجانب حيث بدأ التعذيب فى العهد الجديد - وبعد أيام صدر الحكم باعدام الضابط حسنى الدمنهورى (خفف بعد ذلك) وبالمؤبد على رشاد مهنا - وكانت تهمة الاخير " السعى لاعادة الخلافة " أما الضباط فقد برروا الانقلاب بالاتى :

---

١) فى اكتوبر ١٩٥٢ صدر قرار بالافراج عن جميع المحكوم عليهم فى قضايا سياسية بين عامى ٣٦ - ٥٢ وخرج من السجون ٩٤٣ شخصا ولم يستثن سوى الشيوعيين بسبب عمالتهم وربما ايضا ارضاء لامريكا - وفى يناير ١٩٥٣ بدأت حملة اعتقال للشيوعيين مما أدى الى استقالة يوسف صديق ونفيه الى سويسرا (ابريل ١٩٥٣)

كان يوسف صديق شيوعيا ومع ذلك فقد كان رجلا ووطنيا - وكان له دور هام ليلة ٢٢/٢٣ يوليو ولذلك قرر أعضاء مجلس القيادة ضمه اليهم رغم أنه لم يكن عضوا فى الهيئة التأسيسية للضباط .

٢) كان رشاد مهنا ضابطا وأسس تنظيما فى الجيش فى الاربعينيات لمحاربة الانجليز والوفد - وبعد الانقلاب أصبح رئيسا لمجلس الوصاية على العرش - ورغم اسلاميته فلم يكن ثوريا فى موقفه من القضية الاجتماعية .

ـ الاتجاه لالغاء عبارة الاسلام دين الدولة من مشروع الدستور (وقد صدر الدستور المؤقت بعد شهر وأبقيت فيه هذه المادة) .
ـ الفساد الاخلاقى لضباط القيادة (هناك ممارسات لكثير من الضباط يخجل المرء من ذكرها) .
ـ اتجاه النظام الى الدكتاتورية .

كان الاجراء الثالث الذى اتخذ لتصفية الاسلاميين هو استغلال التناقضات الداخلية فى تنظيم الاخوان ـ لقد انقسم الاخوان بعد الانقلاب مباشرة الى اتجاهين :
ـ اتجاه يحبذ التعاون مع النظام الجديد : حسن عشماوى ـ منير الدلة (لم يكن الهضيبى متحمسا لهم ولكن لم يعارضهم فى نفس الوقت) .
ـ اتجاه ثورى ورافض لكافة أشكال الزيف (سعد الوليلى ـ يوسف طلعت ـ عبد القادر عودة ـ الشيخ فرغلى ـ ابراهيم الطيب)

وكانت تطورات الاحداث ترجح كفة الجناح الاخير ـ لكن الانصاف يقتضينا أن نذكر أن الهضيبى لم يكن عنده الحزم الكافى ولا القدرة على المبادأة .

وبالنسبة للتنظيم السرى كان أحد أجنحته (بقيادة السندى) قد انشق وحبذ التعاون مع العسكريين ـ ورغم استطاعة السندى اثارة البلبلة ودفع بعض الاخوان للتمرد على الهضيبى ـ فلم تلبث الازمة أن طوقت ولم يستمر التمرد سوى يوما واحدا .

كان العسكريون يسعون لتعميق الانشقاق ـ وفى هذا الاطار قام عبد الناصر والسادات وبغدادى ومحمد نجيب بزيارة قبر حسن البنا (فبراير ١٩٥٣) ـ ولكن كان تطور الاحداث لا ينبىء بجدوى المراهنة على انشقاق الاخوان ـ وحسب ما رواه بغدادى فى مذكراته (جـ ١ ص ٨٨) فان مجلس القيادة بحث فى اجتماع ١٨ / ١٢ / ١٩٥٣ " هل نحل الاخوان أو نستفيد من الانشقاق الذى كان قد تواجد بينهم " ومن جديد أقرت فكرة الاستفادة من

الانشقاق لكيلا ينالوا عطفا شعبيا ـ واذ فشل عبد الناصر فى خطته لتقريب السندى ـ فقد قرر اتباع استراتيجية النفس الطويل لتصفية الاخوان، واذ تأكد للاخوان بدورهم من حقيقة عبد الناصر وعداوته للاسلام (مثلا رفض طلبات الهضيبى بازالة ما يتعارض مع الاخلاق الاسلامية) فقد بدأ توسيع التنظيم السرى وتجنيد أفراد من الجيش والشرطة استعدادا ليوم الصدام .

لجأ عبد الناصر بعد ذلك الى الاجراء الرابع وهو عزل الاخوان جماهيريا ـ وهو ما أفلح فيه جزئيا ـ وقد استند فى ذلك على :

(١) الشعبية التى حققتها الحركة وصدور بعض القوانين مثل الاصلاح الزراعى (سبتمبر ١٩٥٢) واستثارة مشاعر الناس بعد الاذلال الذى لاقوه (اعلان محمد نجيب " انتهى عهد تقبيل الايادى " واعلان عبد الناصر " ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد ") وقد لا يستطيع أحدنا تصور مقدار ما لهذه الكلمات من تأثير على مشاعر شعب طالما سحق وظلم .

(٢) أنشأ عبد الناصر " هيئة التحرير "(١) كتنظيم سياسى معاد للاخوان (٢٣ يناير ١٩٥٣) ـ وكانت كل انجازات هذا التنظيم : احراق مقر الاخوان والتصفيق لعبد الناصر أينما حل ـ ولما لم يعرهم أحد اهتماما فقد اتصل الطحاوى بنحو ٨٠ سياسيا قديما ـ سايروا الهيئة فى الظاهر ثم مالبثوا أن صارحوا الطحاوى بأنهم سيرشحون أنفسهم مع أحزابهم الاصلية لو أجريت الانتخابات .

---

١) يقول حمروش (جـ١ ص ٣٠١) كان "الله أكبر ولله الحمد " يثير العسكريين ـ الجماهير لم تتحول تماما (كذا) الى جانب الثورة ولذلك اعدوا شعارا آخر بهيئة التحرير يهتفون به أثناء مظاهرات الاستقبال " الله أكبر والعزة لمصر " .

أما ابراهيم الطحاوى الذى ترأس الهيئة فقد ذكر فى شهادته (حمروش جـ ٤ ص ١٦) " كانت الجماهير تستقبل عبد الناصر بالهتاف الله أكبر ولله الحمد فى المحطات وكان هذا دليلا على نفوذ الاخوان الذين كان التناقض قد بدأ يظهر بينهم وبين أعضاء الحركة ولذا فقد حرصنا على أن نختار شعارا آخر هو " الله أكبر والعزة لمصر "

لم تحقق هيئة التحرير النجاح السريع الذى توقعه عبد الناصر - ويبدو أن عبد الناصر وجد نفسه أمام طريق مسدود - وفى يونيو ١٩٥٣ أعلنت الجمهورية - وفى نفس الوقت بدأت مناوشات مع الانجليز فى القناة لم تسفر عن أى شىء (فقد منع الشعب من اداء دوره وكان جهاز المخابرات هو المشرف على أعمال الفدائيين هذه المرة) - وفى أوائل ١٩٥٤ توصل عبد الناصر الى اتفاق مع الانجليز يحقق لهم ما رفضه الوفد قبل ذلك فأعلن الاخوان رفضهم للاتفاق وبدءوا حرب منشورات ضده فقام عبد الناصر باعلان حل الاخوان (١٤ يناير ١٩٥٤) واعتقل الهضيبى و ٥٠٠ آخرين واتهمهم بما يلى :

- تقاعس المرشد العام فى تأييده للحركة الا بعد خروج الملك !
- عدم تأييد قانون الاصلاح الزراعى والمطالبة برفع الحد الاقصى للملكية الى ٥٠٠ فدان.
- محاولة فرض الوصاية على الحركة .
- معارضة هيئة التحرير !
- تشكيل تنظيمات سرية بالجيش والشرطة اضافة الى التنظيم السرى الاصلى .
- الاتصال بالسفارة الانجليزية .

وبالطبع كانت كل هذه التهم تثير السخرية ماعدا الاتهام الاخير - فقد أجاد عبد الناصر استخدام أخطاء الاخوان - فرغم أن الاخوان أبلغوا عبد الناصر بهذه الاتصالات مقدما وقاموا بالضغط على الانجليز (وكان هذا سببا فى تعديل بعض مواقفهم) الا أن هذا لا يعفيهم من الاتهام - ليس بسبب ما فعلوه ولكن لجهلهم بأخلاق السياسيين الجاهليين الذين لا يتورعون عن

الكذب وتلفيق التهم وقلب الحقائق (١)

وفى هذا الوقت قام عبد الناصر بزيارة قبر البنا مرة ثانية فى محاولة لاحداث شرخ وسط الاخوان المعتقلين - وقد بكى عبد الناصر عند القبر وادعى أنه يعمل لتنفيذ المبادىء التى دعا اليها البنا .

فى ذلك الوقت كان محمد نجيب يأخذ الاضواء من عبد الناصر وأراد نجيب الخروج عن اطاره وأن يمارس سلطاته كاملة وكان يستغل شعبيته ويهدد بالاستقالة من آن لاخر وفى احدى المرات (فبراير ١٩٥٤) اقال العسكريون نجيب وأصدروا بيانا تهجموا فيه عليه - فأدرك الاخوان أن ميول العسكريين الدكتاتورية هى أشد مما تصوروا فقاموا بعد يومين فقط بترتيب مظاهرات هادرة أعادت نجيب وهتف المتظاهرون (الى السجن يا جمال الى السجن ياصلاح) ولكن نجيب لم يستطع صرف المظاهرات أمام قصر عابدين - ولم يصرفها الا عبد القادر عودة باشارة من يده (فكان جزاؤه أن اعتقل فى نفس الليلة ثم اعدم فيما بعد) .

أصبح واضحا أن ساعة الصدام قد اقتربت وبادر عبد الناصر (أوائل مارس) باعتقال كبار العسكريين الاخوان الذين كانوا يخططون فى ذلك الوقت لاسقاط النظام - وفى ١٦ مارس أرسل الهضيبى من السجن خطابا الى نجيب يطالبه باطلاق الحريات - وفى ذلك الوقت كان نجيب يزايد على قضية الحريات لاحراج العسكريين .

---

١) فى اجتماع الهضيبى بدبلوماسى بريطانى طالبه بجلاء الانجليز عن الوطن الاسلامى كله - وقال ان البلاد الاسلامية ستعلن الحياد بين الشرق والغرب ورفض ادعاءات الانجليز بوجود خطر روسى - وبعد ذلك بثلاثة أيام - أى فى ١٩٥٣/٢/٢٥ اجتمع عبد الناصر وزملاؤه مع الهضيبى وبعض الاخوان لتباحث مادار فى الاجتماع المشار اليه - وقد أصر عبد الناصر فى هذا اللقاء على ربط مصر بالمعسكر الغربى وقال ان خلافه معالانجليز انهم يطالبون ببقاء عشرة آلاف جندى وهو يريد هم خمسة آلاف فقط !!

كان عبد الناصر قد عرض على زملائه فى مجلس القيادة خطة لاغتيال محمد نجيب أثناء أزمة فبراير (مذكرات بغدادى جـ١ ص ٩٨) لكن صلاح سالم رفضها "لأن الامر لا بد وأنه سينكشف وأن المجلس هو المدبر له". ولذلك قام عبد الناصر بتدبير خطة بالغة الاحكام (أشبه بما يرد فى القصص البوليسية) . وتضمنت الخطة تفجير ٤ عبوات ناسفة (وفى رواية ستة) فى الجامعة ومحطة السكة الحديد ومحل جروبي بهدف ارهاب الناس واشعارهم بالخوف لكي يكفوا عن المطالبة بالحريات والحكم النيابى وفى ٥ مارس أعلن صلاح سالم قرارات رفع الرقابة على الصحف ثم أعلن - فى ٢٥ مارس - القرارات الشهيرة بعودة الاحزاب واطلاق الحريات وعودة العسكريين الى ثكناتهم - وأفرج عن الهضيبى والاخوان فى ٢٦ مارس - وهكذا أحرج نجيب الذى طالما زايد على قضية الحريات - وفى نفس الوقت كان يتم الترتيب لاغرب مظاهرات فى تاريخ مصر - وتولى ذلك ابراهيم الطحاوى رئيس هيئة التحرير (الذى صرح بأن المظاهرات لم تزد تكاليفها على ٢٠٠٠ جنيه)(١) وكذلك صاوى أحمد صاوى (٢) رئيس نقابة عمال النقل وفى ٣/٢٨ توقفت السكك الحديدية لاول مرة فى مصر منذ ثورة ١٩١٩ وأضرب بعض الغوغاء من عمال النقل هاتفين (تسقط الحرية) كما قام بعض الغوغاء الاخرين باقتحام مجلس الدولة وأوسعوا رئيسه (السنهورى) ضربا بالاحذية هاتفين (يسقط الجاهل) وهكذا فى ذروة الدراما - أعلن مجلس القيادة نزوله على ارادة الشعب!! وألغيت قرارات ٢٥ مارس فى ٢٩ مارس ومنذ هذا اليوم أصبح نجيب رئيسا شكليا (حتى أقصى

---

١) راجع شهادة الطحاوى فى : حمروش جـ ٤ ص ١٨ - وبعد نجاحه بجدارة قال عنه عبد الناصر " أنا كفاية علىّ ابراهيم الطحاوى أحكم به مصر"! - لكن الطحاوى استطرد فى شهادته" ولما كانت الثورات تأكل ابناءها حسب الاهمية فقد انتظرت دورى بعد نجاح العملية "

٢) كان جزاؤه بعد ذلك أن ضرب فى مطار القاهرة أمام المودعين عند سفر عبد الناصر الى باندونج . ويذكر خالد محى الدين فى شهادته (جـ ٤ ص ١٥٩) أن المظاهرات تكلفت ٥٠٠٠ جنيه أخذ معظمها صاوى أحمد صاوى .

بعد حادث المنشية) .

لم يعن ذلك استتباب الجو لعبد الناصر - فقد كان معظم الاخوان خارج السجون - وفى ٢٨/٤/١٩٥٤ احبطت خطة انقلاب كان مقررا أن يقوم بها سلاح الفرسان (المدرعات) مطالبين بالديمقراطية . وبعد ذلك استقال عضو مجلس القيادة خالد محيى الدين الذى تعاطف مع الانقلاب.

لم يكن عبد الناصر محبوبا حتى ذلك الوقت - ولذلك شن حملة اعلامية شعواء على الطريقة النازية (ادخل الاعلام النازى الى مصر على يد فتحى رضوان وزير الثقافة) - وأظهر عبد الناصر نفسه كزعيم خارق للعادة كما شنت اذاعة صوت العرب برئاسة مديرها الديماجوجى (أحمد سعيد) حملةً دعائية لشخص عبد الناصر وكان أحمد سعيد (يتلقى توجيها يوميا من وزير الداخلية ومدير المخابرات) (1) - وقد استمرت حملة التزييف هذه لدرجة أن عبد الناصر تجرأ أثناء حادث المنشية وقال مخاطبا الشعب ليقتلونى فقد أودعت فيكم العزة - ليقتلونى فقد أنبتُّ فى هذا الوطن الحرية والكرامة - وقيل للنشء فى المدارس بعد ذلك ان عبد الناصر هو أول رئيس لجمهورية مصر .

وبعد ذلك عمل عبد الناصر على التخطيط لتصفية الاخوان نهائيا - مستغلا سهولة التأثير النفسى على الشعب المصرى وتعاطفه مع من يعتدى عليه حتى ولو كان يستحق هذا الجزاء - وقبل أن توجه الضربة للاخوان - قبض فى يونيو ١٩٥٤ على تنظيم سرى من ١٧ من الاخوان فى سلاح الطيران وكشف التحقيق معهم عن وجود أكثر من خطة لاغتيال كل أعضاء مجلس قيادة الثورة (2) وفى سبتمبر ١٩٥٤ وجه الهضيبى خطابا مشهورا لعبد الناصر بدأه بقوله " أيها السيد ان الامة قد ضاقت بحرمانها من حريتها فأعيدوا لها حقها من الحياة . . الخ " وفى ذلك الوقت كانت مصر تغلى بسبب اتفاقية الجلاء التى وقعها عبد الناصر بالاحرف الاولى - وفى ٢/٨/١٩٥٤ نسف

---

١) شهادة أحمد سعيد (حمروش جـ ٤ ص ٤٩)

٢) انظر اعترافات حسين عرفة (رئيس المخابرات الحربية) فى : حمروش جـ ٤ ص ص ١٢٩ - ١٤٣ وهو اكثر مسؤل فى عهد عبد الناصر يعترف بصفاقة منقطعة النظير عن دوره فى " خدمة الثورة ".

الاخوان كوبرى أبو سلطان الذى يخدم القاعدة الانجليزية فى القناة فرد عبد الناصر باتهام الاخوان بالاتصال بالانجليز! وفى ١٠/١٩ وقع عبد الناصر التوقيع النهائى على اتفاقية الجلاء وفى ١٠/٢٦ ذهب ليخطب أمام الشعب فى المنشية فقابله الناس بالسخط - وعلى الفور تم اخراجهم بالقوة وجيئ بمجموعة من الغوغاء لكى يصفقوا لعبد الناصر - وفى أثناء الخطاب انطلقت رصاصات محمود عبد اللطيف لتشكل الرد الاسلامى على اتفاقية الجلاء بعد أقل من أسبوع واحد من توقيعها - وهو ما عرف تاريخيا باسم (حادث المنشية)[1] وعلى الفور صدر قرار حل الاخوان وتشكلت ما يسمى بمحكمة الشعب برئاسة جمال سالم وعضوية السادات وحسين الشافعى وأصدرت أحكاما ضد ٨٦٧ من الاخوان (اضافة الى ٢٥٤ حوكموا أمام محاكم عسكرية) وفى ١١/١٤ أقيل محمد نجيب وحددت اقامته (لم يفرج عنه الا عام ١٩٨٢) .

---

١) فى عام ١٩٨٥ حكمت محكمة جنوب القاهرة بعدم مسئولية الاخوان عن حادث المنشية وقالت " ان المتهم الحقيقى بالارهاب هو نظام الحكم فى الخمسينيات والستينيات على أساس ما تعرض له المعتقلون من تعذيب واهدار للادمية بطريقة لا يمكن وصفها "

ان تفاصيل حادث المنشية لا يسعها بحث صغير كهذا - وعموما هناك دراسة جيدة بقلم فؤاد زكريا (شيوعى) منشورة فى آخر كتاب عبد العظيم رمضان عن الاخوان والتنظيم السرى .

ورغم عدم مسئولية الاخوان كتنظيم ورغم اختراق التنظيم الذى كان محمود عبد اللطيف عضوا فيه - فلا يعنى هذا التقليل من قيمة الحدث بحد ذاته - حتى ولو كان عبد الناصر قد استفاد منه - يقول أحمد أنور قائد البوليس الحربى فى شهادته (حمروش جـ ٤ ص ٣٣) ان محمود عبد اللطيف " كان يعترف بجرأة وشجاعة وكان مثالا للمصرى الذى لا يخشى فى الحق شيئا وقد قال صراحة انه اعتدى على عبد الناصر مقتنعا أن اتفاقية الجلاء لم تكن لصالح البلد وأن معاهدة ١٩٣٦ أحسن منها "

وأثناء المحاكمة كشف النظام الجديد عن هويته عند ما اتهم جمـــال سالم الاخوان بأنهم " من طبقة الخرد واتية والسمكرية وموظفى الدرجات الصغيرة وليس منهم مهندس ولا مدير ادارة " ـ مما دعا كاتبا لا يخفى عداءه للاســلام [1] الى وصف المحكمة " لا يوجد فى تاريخ القضاء العسكرى فى مصر رئيس محكمــة هبط بمستوى المحاكمات الى مثل هذا الدرك الاسفل " وانتهت المحكمة أيضـا باعدام ستة كان منهم خمسة من الاسلاميين الذين رفضوا الزيف الناصرى .

* * *

---

١) عبد العظيم رمضان : الاخوان المسلمون والتنظيم السرى ـ روزاليوسـف ١٩٨٤ .

تصفية القضايا الوطنية (١٩٥٤ - ١٩٥٧)

لكى يمكن أن نحكم حكما صحيحا على موقف العسكريين من القضايا الوطنية يجب أن ننظر الى :

١ - تركيبتهم الفكرية والنفسية ومفهومهم للانتماء وأثر ذلك على موقفهم من القضايا الوطنية .

٢ - تناقضات القوى العظمى فى ذلك الوقت ومدى تعويل العسكريين عليها .

بالنسبة للنقطة الاولى - يمكننا أن نقسم العسكريين اجمالا الى :

* اسلاميون (سياسيون وليسوا أصوليين) : كمال الدين حسين - حسين الشافعى (رغم جرائمه فى حق الاخوان) - وهؤلاء كان عداؤهم للغرب ولليهود من منطلق عقائدى - فمثلا بمجرد أن نشبت حرب فلسطين - سارع كمال الدين حسين بالتطوع أما عبد الناصر فقد "أجل موضوع التطوع حتى يدرس الامر على مستوى الدولة كلها" حسبما يذكر حمروش .

* يساريون ، وهؤلاء - على قلتهم - لم يعادوا الصهيونية من الاصل - وبالطبع لم يكونوا معادين لامريكا - بل ان الذى حذف كلمة " الامريكى " من عبارة "الاستعمار الانجلو أمريكى" فى منشورات الضباط الاحرار لم يكن سوى خالد محيى الدين (حسبما شهد لحمروش)

* وطنيون (ومنهم كثير من المتطرفين فى وطنيتهم) مثل عبد الناصر - صلاح سالم وجمال سالم - بغدادى - السادات وعموما كان هذا الجناح يشكل أغلبية الضباط الاحرار - وهؤلاء لم يكونوا يحملون أية عقيدة - ويمثل أفكارهم أصدق تمثيل ما أورده عبد الناصر فى " فلسفة الثورة " حيث أوضح أن فهمه لقضية فلسطين مر بمرحلتين :

١ - كان يشترك فى الاضرابات احتجاجا على وعد بلفور - ولكن كان ذلك مجرد " صدى للعاطفة "

٢ - ثم بدأ " الفهم يتضح عندما بدأ يدرس وهو طالب بكلية أركان الحرب حملة

فلسطين ومشاكل البحر المتوسط بالتفصيل" ! " ولما بدأت أزمة فلسطين كنت مقتنعا فى أعماقى بأن القتال فى فلسطين ليس قتالا فى أرض غريبة (وكأن هذه البديهية محل شك) وهو ليس انسياقا وراء عاطفة وانما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس " ! ! !

(قارن هذا " الفهم" بمدركات فلاح مصرى بسيط مثلا) .

ويحرص عبد الناصر على التأكيد فى فلسفة الثورة " وليس صحيحا أن ثورة ٢٣ يوليو قامت بسبب النتائج التى أسفرت عنها حرب فلسطين " وهو لا يحس بالانتماء لفلسطين " كان رصاصنا يتجه الى العدو الرابض أمامنا فى خنادقه - ولكن قلوبنا كانت تحوم حول وطننا البعيد الذى تركناه للذئاب" - " كنا نحارب فى فلسطين ولكن أحلامنا كلها كانت فى مصر" - بل ان عبد الناصر قد وصل به الامر الى أنه أعلن صراحة رفضه لحرب فلسطين (مذكراته بمجلة المصور أواخر ١٩٥٢ التى تساءل فيها " لحساب من تدور تلك الحرب " !) - ومن المثير للسخرية أن عبد الناصر أورد فى فلسفة الثورة قصة لقائه بضابط اسرائيلى وطلبه الاستفادة بخبرات اليهود فى محاربة الانجليز ! !

واذا كان هذا هو موقف معظم العسكريين من اسرائيل - فلن نستغرب بعد ذلك من موقفهم من أمريكا - يقول السادات (البحث عن الذات) "كانت صورة أمريكا فى أذهاننا مقترنة بمناصرة حركات التحرر " ويقول هيكل (فى كتابه عبد الناصر والعالم) " كانت الولايات المتحدة تحيط بها كل معانى النجاح والفتنة - براقة متسامية على الفشل الذريع الذى منى به الاستعماريون القدامى وكان الناس متجاوبين مع فكرة قيام الامريكيين بدور رئيسى فى الشرق الاوسط ومستعدين لقبولها "[1]

بل ان المرء ليشك فى أن العسكريين كانوا يعادون بريطانيا بحق - فقد كان تمثال أحمد ماهر قائما أمام مجلس قيادة الثورة فى الجزيرة ولم يستثر هذا مشاعرهم وما زال التمثال قائما الى اليوم .

(١) قارن ذلك بسلسلة المقالات التى كتبها سيد قطب بمجلة الرسالة ١٩٥١ بعنوان " أمريكا التى رأيت وفيها وصف أمريكا بأنها " لا تساوى شيئا فى ميزان القيم الانسانية"

نخلص من ذلك الى أن العسكريين

- لم يكن لهم انتماء أوسع من الانتماء لمصر (حيث تم تقنين هذا الانتماء فى دستور ١٩٥٣) .
- لم يحملوا عقيدة معادية للاعداء التاريخيين والحضاريين للامة .

ولذلك ـ فعندما سعوا لتحقيق العدالة الاجتماعية ـ لم يكن تعنيهم تصفية القضايا الوطنية التى لم يجرؤ حزب الوفد نفسه على المخاطرة بتصفيتها محافظة على ما قد يكون قد تبقى له من رصيد ـ وقد كان شعور العسكريين بعدم الانتماء للعرب أو للاسلام مما سهل فى تصفية القضايا الوطنية .

ولكن الامور لم تسر كما خططوا لها ـ فيقول عبد الناصر" فوجئنا بغارة اسرائيلية على مدينة غزة" (١) (١٩٥٥) وتوالت الغارات اليهودية على غزة وسيناء بعد ذلك (خاصة غارة مايو ١٩٥٥ ـ والغارة على خان يونس فى أغسطس ١٩٥٥ واحتلال اليهود للعوجة فى سبتمبر وغارتهم على الكونتلا فى اكتوبر وعلى الصبحة فى نوفمبر ١٩٥٥) ـ وقد أدى ذلك الى التماس التأييد من خلال انتماء أوسع ـ وكان الانتماء العربى الذى قننه دستور ١٩٥٦ .

وبسبب تركيبتهم النفسية المستهترة (التى تبدو بوضوح فى وثائق تلك الفترة) ـ اضافة الى عدم معاداتهم للغرب ـ بسبب ذلك لم يتصور العسكريون أن يعادوا الغرب ـ وحسب مذكرات البغدادى (جـ١ ص ٣٤٥) فقد انقسم أعضاء مجلس القيادة ازاء العدوان الثلاثى الى :

- صلاح سالم : اقترح التسليم للسفارة البريطانية (٢)

---

١) فى خطاب أول مايو الشهير (١٩٧٠) قال عبد الناصر" بعد قيام الثورة كنا قد جمدنا اعتمادات القوات المسلحة وكان همنا بعد قيام الثورة أن نبنى بلدنا وأن نحولها الى دولة متقدمة فى الصناعة وفى الزراعة ـ كنا نريد أن نكرس كل شىء من أجل البناء ـ ولكن فجأة فى سنة ١٩٥٥ فوجئنا بغارة اسرائيلية على مدينة غزة " . لقد قتل فى غارة غزة وحدها ٣٩ شخصا وجرح العشرات .

٢) راجع أيضا شهادة مماثلة لمدير مكتب عبد الناصر (الجيار) فى روزاليوسف عددى ١٢ يناير ، ١٥ مارس ١٩٧٦ .

- علي صبري [1] (مدير مكتب عبد الناصر) اقترح قبول الانذار الانجليزى والتسليم للسفارة البريطانية .
- عبد الحكيم عامر (قائد الجيش) اقترح طلب وقف اطلاق النار " تفاديا لتدمير البلاد وقتل المدنيين ولان الشعب سيكره النظام والقائمين عليه "
- عبد الناصر : قرر الانتحار وطلب من زكريا محيي الدين احضار سيانور بوتاسيوم بما يكفى لانتحار كل مجلس القيادة .
- بعض الضباط أرادوا الاستمرار فى القتال لان " دواعي الشرف تستدعى منا الاستمرار فى القتال "

كل هذا بينما الشعب " يستهتر بالغارات الجوية وكانت معنوياته مرتفعة" حسب بغدادى . وياله من موقف مثير للسخرية عندما كانت أولى مهام بغدادى بعد خروج قوات العدوان من بورسعيد أن يسحب السلاح الذى استولت عليه الجماهير لتحارب - بل الاكثر اثارة للسخرية أن واحدا من جماهير بورسعيد قال له " خلى السلاح معانا يا بيه يمكن ييجوا الانجليز تانى نبقى ندافع بيه عنكم " !!

* * *

كانت الصراعات بين القوى العظمى فى ذلك الوقت مرتبطة بما أسفرت عنه الحرب العالمية الثانية ، أى صعود أمريكا وروسيا وأفول نجم فرنسا وبريطانيا وكانت الاخيرتان مازالتا متشبثتين بنفوذهما فى الشرق الاوسط وكانت أمريكا تريد طردهما نهائيا - وقد راهن العسكريون دائما على الدور الامريكى باعتبار أمريكا هى الجواد الرابح ولذلك كانت سلوكياتهم لا تتعارض فى أية جزئية مع أهداف أمريكا حسبما سيتضح باذن الله - ولما كانت الناس مفعمة بالكراهية لقوى الاستعمار القديمة فقد استغل العسكريون تلك الفرصة لتصعيد الحملة الاعلامية ضد بريطانيا وفرنسا .

---

١) راجع شهادة الجيار فى نفس العددين السابقين من روزاليوسف.
لم يكن علي صبري من الضباط الاحرار لكنهم احتاجوه ليلة الانقلاب ليتصل بالسفارة الامريكية وبعد ذلك عينه عبد الناصر مديرا لمكتبه ثم صار وزير شئون رئاسة الجمهورية ثم صار رئيسا للوزارة !!

لقد سعت أمريكا الى تحقيق (الاستقرار) للنظام الجديد فى مصر ـ وفى هذا الاطار :

١ ـ ضغطت على بريطانيا فى موضوع الجلاء (لدرجة أن مفاوضات الجلاء لم تستغرق الا أسبوعين)

" وهذا دليل على أن نقاط الخلاف قد سويت قبل الجلسات وكان ذلك بوساطة أمريكا" كما يقول حمروش (جـ ٢ ص ٣٤) .

٢ ـ فى اليوم التالى لعدوان اسرائيل ـ أى فى ٣٠ اكتوبر ١٩٥٦ ـ قدمت أمريكا الى مجلس الامن مشروع قرار يدين اسرائيل ويدعو الى انسحابها!!

ودعا كميل شمعون (أكبر عميل أمريكى فى المنطقة) فى ٣١ / ١٠ الى مؤتمر قمة عربى لانقاذ عبد الناصر وعقد المؤتمر فى بيروت فى ١٣ / ١١ .

٣ ـ فى هذا الاطار أيضا يمكننا أن نفهم مدى قيمة المخاطرة فى عمل مثل تأميم القناة ودعم ثورة الجزائر[1]

وبسبب الرهان على أمريكا ـ لم يكن العسكريون يتصورون معنى الحياد ـ وعندما طرح الهضيبى الفكرة استنكرها العسكريون واستغربوا [2] ـ وفى خطب عبد الناصر عن صفقة الاسلحة التشيكية أورد الشىء الكثير عن الحاحاته على أمريكا واخطاره للسفير الامريكى بأن روسيا مستعدة لمد مصر بالسلاح ـ حتى ألجئوه أخيرا الى روسيا .

ان أهداف أمريكا فى مصر (منذ ١٩٥٠) كانت قد تحددت فى :

ـ تصفية القضية الفلسطينية .

ـ فصل السودان عن مصر .

ـ اخراج الانجليز من القناة .

ـ مقاومة الشيوعية (طالما أن هناك من يستطيع تأدية دورها دون أن يكون شيوعيا) .

---

١) لا يعنى ذلك التقليل من قيمة هذا العمل ـ وفى الحقيقة ـ فان عبد الناصر بما ارتكبه من جبال من الجرائم كانت له حسنتان : دعم ثورة الجزائر ـ التأميمات .

٢) راجع تفاصيل ذلك فى : عبد العظيم رمضان : عبد الناصر وأزمة مارس ـ مدبولى ١٩٧٥ .

وبصرف النظر عن وجود تواطؤ بين العسكريين وأمريكا أم كان مجرد توافق ـ فان الاهداف الامريكية الاربعة هذه قد تم تنفيذها فى زمن قياسى جدا (١٩٥٤ - ١٩٥٧)

* * *

فصل السودان عن مصر :

كانت مصر فى ذلك الوقت تتعايش فيها ٣ دعوات للانتماء (بصرف النظر عن حجم كل دعوة من الانصار) :

١ ـ الانتماء الاسلامى (الاخوان) والاسلامى الهلامى (مصر الفتاة) .

٢ ـ الانتماء العربى (قلة ضئيلة)

٣ ـ الانتماء الوطنى الضيق الافق (الوفد) ـ ومع ذلك فقد كان (وادى النيل) وليس (مصر) هو الوطن لدى هذا الاتجاه ـ وفى ذلك يقول فؤاد سراج الدين عن السودان " ان فكرة الاستفتاء كانت مستبعدة ومرفوضة لانه لا يمكن اقرار استفتاء لاسيوط مثلا " وعندما طرح وزير خارجية الوفد فكرة استفتاء السودانيين (من باب احراج الانجليز) اتهمته وزارة الوفد بالخيانة العظمى واستدعته من الامم المتحدة لولا أنها اسقطت قبل عودته .

٤ ـ أما الشيوعيين فقد كانوا دائما النغمة النشاز فى القضايا الوطنية ـ فقد رفضوا وحدة وادى النيل ودعوا الى أن يقرر شعب السودان مصيره بنفسه .

ومن المثير أن نعرف أن موقف العسكريين من قضية السودان لم يكن الا نفس الموقف الشيوعى النشاز (وأيضا نفس موقف أمريكا) ـ وبعد انقلاب ٥٢ سمح فى الجرائد المصرية بالدفاع عن فكرة استقلال السودان ـ وهكذا مدح حمروش حركة الجيش فقال " كانت حركة الجيش فى مضمونها الحقيقى حركة تحرير وطنى لا تستطيع رفض مبدأ تقرير المصير لشعب شقيق " !!

أما بغدادى فقد برر ذلك بأن العسكريين " قبل حل مشكلة الجلاء رأوا حل مشكلة السودان لكيلا نكون غير منطقيين مع أنفسنا" ويفهم من هذا أنه كان يستوى عندهم وجود قوات انجليزية بمصر مع وجود قوات مصرية بالسودان .

كانت خطوات العسكريين لتصفية قضية السودان كالاتى :

ـ تعيين صلاح سالم لمعالجة القضية ـ رغم أن صلاح سالم صرح بأنه لم يقرأ سوى كتابين عن السودان أحدهما عن الصيد و المغامرات فى جنوب السودان والاخر لتشرشل بعنوان (حرب النهر) . أما عبد الناصر الذى أمضى جزءا من خدمته العسكرية فى السودان فلم يرد أن يقحم نفسه مباشرة فى الموضوع

وفى الحقيقة هذا ما صرح به بعد ذلك وزير الخارجية أمام مجلس الامة (١٩٥٧) " كان هناك مأزق خرجت منه مصر فاعترفت للسودان بما طالبت به لفلسطين ومراكش والجزائر وتونس واندونيسيا وكل بلاد الارض وكان ذلك اعترافا استقام به المنطق واعتدل الميزان " !!

ـ تم التوصل الى اتفاق مع الانجليز على أن يحكم السودان فترة انتقالية (لا تزيد مدتها عن ٣ سنوات) حاكم عام انجليزى تعاونه لجنة خماسية (سودانيان ومصرى وأمريكى وباكستانى) ـ وخلال تلك الفترة تجرى انتخابات برلمانية ويقرر السودانيون مصيرهم باستفتاء شعبى .

ـ أجريت الانتخابات ، ورغم أن حزب الامة العميل الموالى للانجليز كانت له الاغلبية فى البرلمان السابق ـ فلم يحصل هذه المرة الا على ٢٣٪ من مقاعد مجلس النواب و ١٤٪ فى مجلس الشيوخ بسبب رفضه الوحدة مع مصر بينما اكتسح الحزب الاتحادى كلا من المجلسين .

ـ عند افتتاح البرلمان السودانى قام حزب الامة العميل بتحدى ارادة شعب السودان وسير مظاهرة مسلحة اشترك فيها ٣٫٠٠٠ من الغوغاء هاتفين فى وجه محمد نجيب " لا مصرى ولا بريطانى ـ السودان للسودانى" وقتلت الغوغاء ٢٧ وأصابوا ٢٧٠ .

ـ ورغم اعلان الطوارئ وتوتر الاوضاع ـ فقد طلب رئيس وزراء السودان (اسماعيل الازهرى رئيس الحزب الاتحادى) من حكومة مصر مشروعا

للوحدة (يوليو ١٩٥٤) فعرض العسكريون مشروعا[1] نص على الاستقلال الكامل والسيادة الكاملة لكل من الدولتين و" أن يكون للاتحاد رئيس أعلى مرة مصرى ومرة سودانى تكون سلطاته رمزية" وحرص المشروع على تأكيد "لكل من الجمهوريتين حق فصم هذا الرباط الدستورى باستفتاء شعبى" ـ وقد سخر صلاح سالم من المشروع وسماه " الاستقلال الاتحادى " .

ـ وما زال الغموض الشديد يكتنف ما دار فى الكواليس فى تلك الفترة ـ لكن كل ما يمكن أن يقال الان ان الدول الاستعمارية لم تعدم الوسيلة لتنفيذ ما تريد طالما أن الشعب غير حاضر ـ وهكذا حدث انشقاق بين الاتحاديين وانقلب الازهرى نفسه على فكرة الوحدة كما كثف الشيوعيون والوفديون معارضتهم للوحدة بحجة اعتقال زملائهم فى مصر ـ وقد استغل الاتحاديون عدة عوامل لتبرير تراجعهم عن الوحدة :

أ ـ الاعتقالات والخلافات داخل مجلس القيادة فى مصر ـ وفى ذلك يقول الازهرى " ان لحم أكتافى من مصر ـ وقد دخلتها منتعلا حذاء كاوتش ـ ولكن هل يرضيكم أن يحكمنا صلاح سالم والعسكريون فى مصر" فتصرخ الناس لا لا .

ب ـ السياسات الخرقاء التى اتبعها صلاح سالم حيث ألب القوى السودانية بعضها على بعض ودفع نصف مليون جنيه كرشاوى (حسبما شهد مدير مكتبه) ورقص عاريا مع قبائل الدنكا الجنوبية حسب عاداتهم .

---

(١) النص الكامل للمشروع فى :
سعد سيد امام : العلاقات الدولية بين مصر والسودان (١٩٥٢ - ١٩٦٤)
دكتوراه فى السياسة من جامعة القاهرة ١٩٦٨ جـ ١ ص ٢٣٥

- لكن الذى لا شك فيه أن كلا من الاتحاديين فى السودان والعسكريين فى مصر قد تواطئوا على فصل السودان عن مصر بدليل رفض الطرفين اجراء استفتاء شعبى حسبما اتفق مع الانجليز[1].ان تواطؤا كهذا يجد تفسيره فى فرضيتنا أن نظام يوليو غير مستعد على الاطلاق لمجابهة أمريكا (وهذا هو المفسر أيضا لطرح مشروع الاستقلال الاتحادى السابق ذكره).

- وفى ديسمبر ١٩٥٥ وافق برلمان السودان على الاستقلال وكانت مصر أول من اعترف باستقلال السودان .

* * *

الجلاء :

كانت لاتفاقية الجلاء ملابسات سبق ذكرها ـ لكن المثير فى الاتفاق أن عبد الناصر قبل ما سبق أن رفضه الوفد .

لقد نص الاتفاق على جلاء الانجليز خلال عشرين شهرا وانهاء معاهدة ١٩٣٦ وأن قناة السويس جزء من مصر و أن تبقى القاعدة الانجليزية صالحة ومعدة للاستخدام وتعود بريطانيا اليها اذا هوجمت أية دولة عربية أو تركيا ـ وأن يبقى فى القاعدة مخازن للانجليز و ١٢٠٠ خبير (من المدنيين) !! ينسحبون بعد ٧ سنوات .

(١) برر الازهرى رفض الاستفتاء الشعبى بأن " الظروف كانت غير ملائمة" ولم يوضح ما هية هذه الظروف غير الملائمة . راجع شهادة الازهرى فى : م . س . ذ ص ص ٢٨٠ - ٢٨١ أما العسكريون فقد برروا فصل السودان عن مصر بأنه " يجب أن تكون الوحدة العربية شاملة لا جزئية " .

وبعد شهر واحد من توقيع الاتفاق واثناء حملات اعتقال الاخوان قدمت أمريكا مساعدة للنظام الجديد مقدارها ٤٠ مليون دولار وتسهيلات لشراء أسلحة بمقدار ٢٠ مليون دولار .

برر عبد الناصر ما وقع عليه (بأنه حبر على ورق وأن موضوع تركيا غير ذى معنى) أما السادات فقد بررها أمام زملائه فى مجلس القيادة (حسبما روى فى البحث عن الذات) " ١٢٠٠ خبير ليسوا عسكريين وتحت حراستنا نحن المصريين ؟ هل هذا يخيفنا ؟ فليكونوا عشرة آلاف خبير - وليبقوا بدلا من السبع سنوات عشرا - ما قيمتهم وقد حصلنا على استقلالنا وأصبحت ارادتنا حرة ؟ - أى سياسى أبله يرفض هذا الحل لمشكلة عمرها فوق الخمسة و سبعين سنة ؟ "

وكان هذا هو فهم العسكريين للقضايا الوطنية .

فلسطين :

فى نفس الاطار السابق كان العسكريون مستعدين لتصفية قضية فلسطين - وفى الحقيقة - فان أشد الدراسات المؤيدة لعبد الناصر قد اتفقت على أن رؤية عبد الناصر لهذه المشكلة هى " تجميد الخطر الصهيونى ومواجهته ببناء القوة الذاتية العربية الى حين توفر عوامل ازالة اسرائيل من الوجود " ان هذه المقولة هى أخطر ادانة لعبد الناصر وللفكر الناصرى .

١ - فما اعتبره عبد الناصر تجميدا للخطر الصهيونى كان فى الحقيقة استفحالا لهذا الخطر .

٢ - وبناء القوة الذاتية لم يتضمن أخطر عناصر القوة الضرورية لمواجهة اليهود (وهو عنصر العقيدة) بل ان ما حدث كان العكس - كما سنوضح بعد قليل باذن الله .

٣ - وأخذ الاعتبارات الدولية فى الحسبان يعطى فكرة على مقدار عجز - ليس الناصرية فقط - ولكن كل حركة القومية العربية - طالما أن الناصرية تعتبر طليعتها .

حتى المقولة السابقة (تجميد القضية لحين بناء القوة الذاتية) قد تبلورت لدى عبد الناصر رغما عنه بسبب اصرار اسرائيل على التوسع - وفي الحقيقة فان مراجعة موقف عبد الناصر من اسرائيل من خلال خطبه تعطي انطباعا بمدى ما كان يشعر به من هزيمة أمام هذا الكيان لدرجة أن الميثاق وصف اسرائيل (بأنها سوط في يد الاستعمار - يلهب به ظهور الحركات التحررية) كما أن عبد الناصر حرص دائما على اظهار العرب بمظهر من يقاوم اعتداءات اليهود - ولم يتخذ أي من خطبه طابعا هجوميا .

وفي اطار تسوية القضية الفلسطينية قام عبد الناصر بما يلي :

- في ١٩٥٣ تقاضت حكومة مصر ٧٠ مليون دولار أمريكي لتنفيذ مشروع اسكان اللاجئين في قطاع غزة في أرض جديدة تقع الى الشمال الغربي من سيناء - وبعد غارة غزة قامت المظاهرات الجماهيرية تهتف " لا توطين ولا اسكان يا عملاء الامريكان " فاضطرت حكومة مصر الى ابلاغ أمريكا (اغسطس ١٩٥٥) أعتذارها عن مشروع سيناء لنقص مياه النيل التي يمكن توفيرها لو أنشئ السد العالي [1] .

- اتصل عبد الناصر باسرائيل " وطمأنها بأنه بعد جلاء الانجليز يمكن حل المشكلة " (شهادة خالد محيي الدين لحمروش جـ ٤ ص ١٦٠) وعقدت اجتماعات سرية بين مصريين واسرائيليين (اعترف ببعضها خالد محيي الدين وكذلك ثروت عكاشة وزير الثقافة فيما بعد / حمروش جـ ٥ ط مدبولي ص ١٨ / ١٩ .

- تجاهل عبد الناصر تماما أنه توجد قضية فلسطينية (وان كان قد أبدى عطفه على قضية اللاجئين) - وفي هذا الاطار - عندما أنشأ هيئة التحرير بهدف محاربة الاخوان - نشرت الهيئة برنامجا تفصيليا لاهدافها في السياسة الداخلية والخارجية ولم تذكر قضية فلسطين ولو بكلمة واحدة .

- صرح عبد الناصر في ٣ / ٨ / ١٩٥٤ بأن مصر تريد السلام لكي تحل مشاكلها الداخلية واقترح بأن تقوم أمريكا بدور الوسيط بين مصر واسرائيل بهدف " انهاء التوتر القائم مع اسرائيل " وقد روى هيكل (في كتابه عبد الناصر والعالم)

---

١) عبد القادر ياسين : عبد الناصر والقضية الفلسطينية - مجلة الوحدة الرباط . عدد يناير ١٩٨٦ ص ٩٦

تفاصيل كثيرة عن خطط التسوية فى هذا الوقت المبكر ـ ورغم غارة غزة فقد استمرت المفاوضات حتى فشلت نهائيا فى مارس ١٩٥٦ بسبب تصلب بن جوريون (١)

ـ كان الاخوان قد شكلوا مجموعات من البدو للاغارة على مواصلات اليهود (استمر ذلك من أوائل ١٩٥٣ الى اكتوبر ١٩٥٤) فاعتقل بعضهم وحوكم بتهمة" تكوين مجموعات لمهاجمة اسرائيل حتى ترد اسرائيل على الجيش المصرى لتيسير الظروف الملائمة لانقلاب اخوانى فى مصر" (٢)

ـ بعد غارة غزة بشهر" نجح " عبد الناصر (على حد تعبير حمروش) فى استصدار قرار من مؤتمر باندونج " يؤيد حقوق شعب فلسطين ويدعو الى تطبيق قرارات الامم المتحدة وتحقيق التسوية السلمية لمشكلة فلسطين "

ـ بل ان ما اثير حول صفقة الاسلحة التشيكية من ضجيج سيفقد معناه بقراءتنا فى مذكرات بغدادى (جـ١ ص ١٩٧) " كان الهجوم الاسرائيلى مؤشرا لنا وعلامة هامة بضرورة اعادة النظر فى موقفنا والعمل على تسليح جيشنا واعداده بالقدر الكافى للتصدى لمثل هذه الهجمات والا اهتز موقف الثورة امام الجيش والشعب معا ـ والثورة كانت معتمدة أساسا فى خلال تلك الفترة على مساندة الجيش لها وحمايتها من أعدائها" !!

ـ وعندما عرض ايدن مشروعه (أواخر ١٩٥٥) الذى اقترح فيه الاعتراف باسرائيل وتعديل حدودها بحيث تصبح حلا وسطا بين مطالبات العرب بتنفيذ قرار التقسيم لسنة ١٩٤٧ والحدود التى أسفرت عنها حرب ١٩٤٨ ـ وعلى حد

---

١) فسر بن جوريون فشل المفاوضات (فى مذكراته التى نشرتها معاريف فى يوليو ١٩٧١) بأن عبد الناصر" كان يريد كسب الوقت ليتيح لجيشه استيعاب السلاح السوفيتى الجديد " ـ أما يعقوب هيرتزوج (مدير المخابرات العسكرية وأحد الذين اشتركوا فى التفاوض) فقد فسر ذلك (معاريف فى أغسطس ١٩٧١) بأن عبد الناصر " لم يكن ليستطيع عقد الصلح حتى لو أراد ذلك بسبب المعارضة الداخلية والعربية لهذه الخطوة "

٢) شهادة محمود الشريف (أخى كامل الشريف) لحمروش جـ ٤ ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤

تعبير ايدن" ان فجوة الخلاف ليست على درجة كبيرة من الاتساع وان مفاوضات جديدة يمكن أن تسدها " وان الحكومة البريطانية مستعدة لتقديم كل الخدمات الممكنة لتحقيق التسوية"وقد وافق عبد الناصر على المشروع" وانني لا أقول ان كل عربي سيوافقني على هذا ـ فهذه وجهة نظري الشخصية" (١)

- في ١٩٥٧ نشر الصحفي اليساري ابراهيم عزت كتابا بعنوان "أنا عائد من اسرائيل " وأعيد طبعه بشكل موسع في ١٩٥٨ ـ وقد دون فيه قصة رحلته الى اسرائيل لمدة ١١ يوما في مايو ١٩٥٦ وقصة اجتماعه مع بن جوريون وموشي شاريت وجولدا مائير وقال انه وجد لديهم " رغبة في تحقيق السلام مع مصر" وحمل رسالة من بن جوريون الى عبد الناصر .

- ولعل ادراك بن جوريون لمدى استخذاء العسكريين ـ كان أحد أسباب قبوله الزج ببلاده في حرب ١٩٥٦ رغم معارضة أمريكا في ذلك ورغم ضعف اسرائيل وطلبها الحماية الجوية من فرنسا ـ وقد أسفر عدوان ١٩٥٦ عن تحقيق اليهود لبعض أهدافهم المرحلية :

× سحب الجيش المصري والفدائيين من غزة .

× نشر قوات الطوارئ الدولية على أرض مصر فقط .

× الاعتراف بحق اليهود في المرور في المياه الاقليمية المصرية (مضيق تيران) (٢)

وبعد ذلك خيم سكون رهيب على جبهة سيناء .

- أثناء العدوان طالب بعض الاسلاميين في سجن طرة (بقيادة أحمد حامد قرقر) بالسماح لهم بقتال اليهود ـ وما لبثت هذه المجموعة أن نالت (جزاءها) فورا فيما عرف تاريخيا بمذبحة طرة والتي قتل فيها ٢١ مسلما وأصيب ٧٠

---

١) مهدي عبد الهادي : المسألة الفلسطينية ومشاريع الحلول السلمية (١٩٣٤ - ١٩٧٤) ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ١٩٧٥ ص٢٠٧ وهو كتاب خطير وجدير بالقراءة من أوله الى آخره .

٢) رغم الهزيمة الفادحة ـ فقد قامت أجهزة الاعلام الناصري بحملة شعوذة صورت ما حدث بانه انتصار ـ ولكن عبد الناصر تذكر فجأة ١٩٦٧ موضوع مضيق تيران ـ وفيما بعد ذكر في خطاب التنحي " مضايق تيران كان العدو يستعملها كأثر من آثار العدوان الثلاثي " .

ومن المثير للسخرية أن يكتب أحد الناصريين[١] " يدهش المرء حين يلاحظ العدد الضئيل من المراكز البحثية التى نشأت فى عهد عبد الناصر - لم تكن هناك مراكز متخصصة عن اسرائيل أو الاقطار العربية ! " (علامة التعجب من عنده) - ان الاولى أن يقال " لا يدهش المرء . . . . . الخ " .

قضية الوحدة :

لم تكن تصفية القضايا الوطنية تقتضى فقط تصفية الاسلاميين - بل كانت تقتضى أيضا القيام بحملة تضليل ضخمة لايهام الشعب بأن النظام يحقق انتصارات - وتضمن ذلك رفع النظام لعقيرته ضد الاستعمار والامبريالية والصهيونية والرجعية . . الخ والمزايدة على قضية فلسطين والوحدة العربية (علما بأن الوحدة العربية لم ترد بكلمة واحدة فى برنامج هيئة التحرير وكان عبد الناصر يستخدم تعبير الامة المصرية حتى سنة ١٩٥٦)[٢] - وبسبب ظروف سوريا سنة ١٩٥٧[٣] فقد التمس البعث السورى مخرجا من أزمته بالوحدة مع مصر

١) عادل حسين : نحو فكرى عربى جديد - المستقبل العربى ١٩٨٥ ص ٢٠٥

٢) راجع : حمدين عبد العاطى صباحى : تطور مفهوم الوحدة العربية فى الصحافة اليومية المصرية (٥٢-١٩٦١) ماجستير فى الصحافة من جامعة القاهرة ١٩٨٦ أيضا نبيه بيومى عبد الله : تطور فكرة القومية العربية فى مصر - رسالة من معهد البحوث والدراسات العربية نشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥

٣) ان ظروف سوريا فى ذلك الوقت تحتاج الى مجلدات لشرحها ، لكن يمكن تلخيصها فى :

× الظروف الدولية : كان هناك صراع تقوده أمريكا ضد كل من بريطانيا (التى تتبعها العراق والتى تسعى لتنفيذ مشروع الهلال الخصيب الذى يتضمن السيطرة على سوريا) وروسيا (التى عقدت صفقة أسلحة ضخمة وقرض روسى كبير بجهود وزير الدفاع السورى خالد العظم المتعاطف مع الشيوعيين) وفى ١٩٥٧ أحبطت مؤامرة عراقية واسعة النطاق لقلب الحكم السورى وبعدها بشهور احبطت محاولة أمريكية أخرى لقلب النظام وانفجر الموقف عندما طردت سوريا ثلاثة دبلوماسيين أمريكيين بتهمة التخطيط لاسقاط النظام السورى

× الظروف الداخلية : كان برلمان سوريا (١٩٥٤) مكونا من قوى كثيرة جدا ومتشرذمة وخشيت أمريكا من مساعى حزب الشعب الذى ضغط لجر سوريا الى وحدة =

(بدأ ذلك فى الحقيقة منذ ١٩٥٦ حيث استغل البعث الضغط الجماهيرى فى دفع الوزارة الائتلافية الى تبنى الوحدة رسميا) - وفى ١٩٥٧ عند ما اشتدت أزمة سوريا - دعا البرلمان السورى برلمان مصر الى الوحدة فلم يعرهم برلمان مصر أى اهتمام - وبسبب مبادرة اليمين السورى وضغطه للوحدة مع نورى السعيد فقد هددهم ضباط الجيش السورى وخيروهم بين " المزة أو القاهرة " فقبلوا الوحدة مع مصر للافلات من الضغط الجماهيرى وريثما يعدلون خططهم .

جاء قادة الجيش السورى وطلبوا من عبد الناصر الوحدة فرفض بشدة وقال لهم انه " يريد بناء مصر لتكون قاعدة قوية لنضال باقى الشعوب العربية" وبعد ضغوط شديدة وافق عبد الناصر على الوحدة بشرط أن يسبقها تمهيد على مدى خمس سنوات كما طلب منهم تحقيق اتحاد لا وحدة .

ان وحدة حقيقية ستؤدى الى استثارة كل القوى الكبرى أما الاتحاد فهو يعطى عبد الناصر مجدا شخصيا (١) مع تفريغ الوحدة من مضمونها - وفى

= مع العراق - كما خشيت من الشيوعيين الذين أرادوا تعزيز العلاقات مع روسيا - فتوافقت أمريكا مع حزب البعث (لم يحقق الا ٦ر١٥٪ من مقاعد البرلمان) الذى أراد الخروج من عزلته وكذلك أراد استغلال نفوذه الكبير فى الجيش - ونظرا لان فكرة الانقلاب العسكرى لم تكن واردة أمام البعث (بعد أن أساء عبد الناصر لفكرة الانقلابات العسكرية بما ارتكبه من قمع - وبسبب حيوية القوى السياسية السورية وقدرتها على تنفيذ انقلابات مضادة) - نظرا لذلك طرح البعث مشروع الوحدة .

(١) من مظاهر تمجيد عبد الناصر للقوة أنه نقل تمثالا لرمسيس الى أهم ميادين القاهرة وسمى أهم شوارع القاهرة شارع رمسيس وسمى أول سيارة مصرية باسم رمسيس وأنفق ٢٠٠ مليون د ولار لانقاذ تماثيل رمسيس النوبة من أن تغرقها مياه السد

الحقيقة لقد اعترف أمام العسكريين السوريين بأن " الدول ستقاوم الوحدة"(١)
وهو ما أوضحه بعد ذلك محمود رياض (سفير مصر في دمشق):
" كانت سياستنا في أن نتجنب الوحدة وعرفنا أنها ستثير كل القوى ضدنا"
وكان وكيلا المخابرات (شعراوى جمعة وأمين هويدى) قد قدما تقريرا
لعبد الناصر نصحا فيه " بتأجيل الوحدة " .

ولكن يبدو أن عبد الناصر اطمأن من عدم معارضة أمريكا للوحدة حال اتمامها - بدليل انه عاد وقبل الوحدة - وفي الحقيقة لقد اعتبرت أمريكا الوحدة - في اطار معين - أفضل وسيلة لتجاوز الازمة السورية بعد أن فقدت كل البدائل الاخرى - يدل على ذلك أن أمريكا هي القوة الوحيدة التي لم تعارض الوحدة - بل ان دعمها لعبد الناصر ومساعدتها المالية قد ازدادت طوال فترة الوحدة . ان ما غض من موقف أمريكا (٢) قد يتضح اذا علمنا موقف روسيا من الوحدة (حيث ظروف الحرب الباردة تجعل أمريكا وروسيا على طرفي نقيض) - لقد أعلن خروشوف عداءه للوحدة العربية وكان صدامه الشهير مع عبد الناصر سنة ١٩٥٩ وفي اللحظات الحاسمة وقت الانفصال كان جروميكو يحرض الانفصاليين ويعدهم بالدعم من اذاعة موسكو .

وبعد اطمئنانه من جهة أمريكا - كان أمام عبد الناصر مشكلة أخرى هي خوفه من الجيش السورى المسيس - وكان عبد الناصر قد فرغ لتوه من تسريح ألف ضابط مصرى من الجيش بمن فيهم كل الضباط الاحرار - لانهم صاروا مسيسين - ولذلك اشترط عبد الناصر على السوريين حل كل تنظيماتهم الحزبية فوافقوا ظاهرا .

---

(١) حمروش : عبد الناصر والعرب ط بيروت ص ٤٨

(٢) في رسالة ماجستير ضخمة حاول محمد عبد المولى الزعبي دون جدوى أن يثبت أن أمريكا كانت تعارض الوحدة - لكنه لم يجد دليلا على ذلك سوى رسم ساخر (كاريكاتير) في النيويورك تايمز
راجع : محمد الزعبي : الجمهورية العربية المتحدة : تجربة في الوحدة العربية (١٩٥٨ - ١٩٦١) ماجستير في السياسة من جامعة القاهرة ١٩٦٨

وكعادتهم فى خيانة القضايا الوطنية فقد عارض الشيوعيون الوحدة وهرب زعيم الحزب الشيوعى السورى الى الخارج (وكان هذا أحد أسباب اعتقالات الشيوعيين سنة ١٩٥٩) أما الاسلاميون فى سوريا فقد رحبوا بالوحدة وان أدانوا عبد الناصر وقال مرشد الاخوان فى سوريا (عصام العطار) كلمته الشهيرة " أنا مع الوحدة وضد عبد الناصر" .

أما البعث فقد بدأ خطة للسيطرة على العالم العربى باستخدام امكانيات مصر المادية - وكان البند الاول من الخطة يقتضى "تبعيث الاتحاد القومى" و" تبعيث الوزارات التنفيذية " التى استلمها وزراء بعثيون و" تبعيث التعليم " (هذه المصطلحات استخدمها البعث فى نشراته السرية التى وزعت على أعضائه) ولكن عبد الناصر كان أشد دهاء وتآمرا من أشد الاحزاب السورية دهاء وتآمرا - وفى الحقيقة ، لقد كان جهاز المخابرات الجبار (الذى تولاه عبد الحميد السراج رجل عبد الناصر فى سوريا) هو الجهاز الوحيد الذى لم يخترقه البعث فى دولة الوحدة .

قوبل طلب البعث بتحويل دولة الوحدة الى دولة عقائدية برفض حازم من عبد الناصر - ثم تلقى البعث لطمة أخرى عندما لم يحقق سوى ٢ر٥ ٪ فى انتخابات الاتحاد القومى .

وانفجر الخلاف علنا عندما اقترح البعث " تشكيل مجلس نضال سرى منا ومنكم" [١] وهو ما قاله عبد الناصر بعد ذلك فى احدى خطبه " طلب البعث ثلاثة سوريين وثلاثة مصريين يشكلون لجنة تقرر كل الامور" (حورانى - ميشيل عفلق - البيطار ، عامر - بغدادى - زكريا محيى الدين) ، ولما

---

(١) هيكل : ما الذى جرى فى سوريا ص ص ٩١ - ٩٢

رفض عبد الناصر تلك الاساليب انسحب البعث من الحكومة وبدأ باطلاق اتهامات ضد عبد الناصر لم تطلقها عليه الدول المسماه بالرجعية .

كانت مخابرات عبد الناصر - بالتنسيق مع البعث - قد صفت الاخوان والشيوعيين خاصة فى الجيش السورى ، وارتكب السراج فظائع تقشعر لها الابدان (مثل قتل الشيوعى اللبنانى فرج الله الحلو واذابة جثته فى حمض الكبريت) - والآن جاء الدور على البعث - وبمجرد اتهام عبد الناصر للبعث بأنه " يحاول فرض نفسه على الامة العربية وحده" فقد بدأت حملة رهيبة ضدهم من الاعتقالات والتعذيب .

عند هذا الحد كانت أمريكا قد استنفدت أغراضها من الوحدة (حيث زال الخطران العراقى والروسى) وكان البعث قد فشل فى الضحك على عبد الناصر كما بدأت الرأسمالية السورية تتحرك بعد صدور قوانين يوليو (١٩٦١) الاشتراكية .

وفى اكتوبر ١٩٦١ حدث الانفصال بالكيفية المعروفة - ووقع على وثيقة الانفصال أشد المؤيدين للقومية العربية والوحدة العربية وعلى رأسهم أهم قياديى البعث (حورانى - البيطار) وبرروا الانفصال بأن "عبد الناصر استهدف تشويه فكرة القومية العربية والوحدة العربية وخنق الحياة السياسية الديمقراطية ووأد الحريات العامة " (وكأنه كانت هناك حريات عامة فى مصر عندما طلبوا الوحدة معها سنة ١٩٥٨) - أما عبد الناصر فقد اعتبر الانفصال " نقطة بدء لحماية الاشتراكية وحماية القومية العربية " ! ! !

* * *

كان عبد الناصر يعتقد في قرارة نفسه ـ وكذلك كان كل حكام العرب الاخرين ـ في النظريات الغربية للامن القومي (بمعنى أمن كل وحدة سياسية على انفراد) ، وبالتالي فان الجغرافيا السياسية ـ وليس غيرها ـ ستكون المفسر الاول للصراعات العربية . طبقا للجغرافيا السياسية للمنطقة لا يمكن أن تجتمع مصر والعراق في كيان واحد ـ وقد تمحورت السياسة العربية دائما حول تنافسهما ـ ورغم وجود ثلاثة أنظمة توصف بالتقدمية في كل من مصر وسوريا والعراق سنة ١٩٦٣ ورغم دخولهما في مشروع مشترك للوحدة فان حقائق الجغرافيا تغلبت في النهاية .

وفي ذلك يقول أمين هويدي (١) " كانت أول مرة في التاريخ تتلاقى فيها القاهرة وبغداد ـ وكان هذا يبشر بتطور كبير في المنطقة لولا الظروف التي حالت دون ذلك " .

ان هذا يطرح سؤالا خطيرا : ما هو تبرير تقسيم عبد الناصر للعالم العربي الى دول تقدمية وأخرى رجعية ـ خاصة وأن عبد الناصر في ذروة المد الثوري كان مصرا على تحسين علاقته بأمريكا (رسالته الشهيرة الى كندي سنة ١٩٦١) وخاصة وقد سارعت احدى الدول الرجعية (اليمن) بالانضمام الى دولة الوحدة بين مصر وسوريا (١٩٥٨) ـ وهذا يقودنا الى تساؤل آخر : وهل انقلاب ١٩٦٢ في اليمن كان فعلا حركة ثورية ؟

يقول أحد الناصريين (٢) " أثناء الدعم المصري للثورة اليمنية خيل الينا أننا أمام صراع بين الجمهوريين والملكيين بينما كان الصراع في جوهره بين الشوافع والزيود "

لقد أنفق عبد الناصر مبالغ فادحة (٣) على الصراع بين الشوافع والزيود في اليمن ـ وعندما وقعت النكبة (١٩٦٧) كان ٥٠,٠٠٠ جندي مصري في اليمن بينما لم يكن يدافع عن القاهرة سوى ٤٠٠ جندي .

---

١) في شهادته لاحمد حمروش جـ ٤ ص ٩١
كان أمين هويدي ممن عارضوا وحدة مصر وسوريا ـ ثم صار سفير مصر في العراق .

٢) عادل حسين : نحو فكر عربي جديد المستقبل العربي ١٩٨٥ ص ٢٣٩

(٣) راجع أحمد يوسف أحمد الدور المصري في اليمن ـ دكتوراه نشرتها الهيئة العامة =

ان الفقرات السابقة قد تكون (تحقيقا بوليسيا) عن قضية الوحدة العربية - لكنها فى حد ذاتها ليست كافية لايضاح موقف عبد الناصر من الوحدة - ان هذا الموقف قد يتضح اذا بحثنا عما قدمه عبد الناصر من خطوات تمهيدية قد تساعد فيما بعد على الوحدة .

لا شك أن نوعين من الخطوات يمكن أن يخدما قضية الوحدة :

- تبنى قضية فلسطين واسقاط جميع الانظمة فى المنطقة من خلال ذلك .
- تخطيط الاقتصاد والمرافق بما يخدم هدف الوحدة فى النهاية .

وبالنسبة للنقطة الاولى فقد خطب عبد الناصر فى غزة عام ١٩٦٢ قائلا " انا ما عنديش خطة لتحرير فلسطين - واللى بيقول لكم عنده خطة لتحرير فلسطين بيقى بيضحك عليكم" (١) - وقد تحولت هذه العبارة الى مقدمة لبرنامج يومى فى اذاعة الاردن .

وبالنسبة للنقطة الثانية - فان الدراسات التفصيلية تنفى وجود اتجاه لدى النظام لتوحيد المنطقة يوما - بل لم يكلف النظام الناصرى نفسه انشاء طريق برى يربط بين مصر والسودان .

* * *

= للكتاب ١٩٨١ .

الفريق صلاح الدين الحديدى : شاهد على حرب اليمن مدبولى ه ١٩٨

لقد ودعت جماهير الحديدة جيش عبد الناصر بما يستحقه فقد قتل مائة جندى فى مجزرة مروعة عند رحيلهم .

١) تم تزييف هذا النص فى جريدة الاهرام (١٩٦٢/٧/٢٧) فقد حذفت الجملة الاولى وحرفت الجملة الثانية الى " ان الذى يقول أنه وضع خططا لحل قضية فلسطين انما يخدعكم " .

كبت الحريـات

لم تكن محاربة الاسلام لتكتمل الا بكبت الحريات ـ فالعلاقة بين الحرية والاسلام علاقة جدلية ـ حتى ان الهضيبى لم يمانع فى اعطاء الشرعية لحزب شيوعى لانه سينكشف على حقيقته لو وجدت حرية حقيقية يقول الهضيبى " الشيوعية لاتقاوم بالعنف والقوانين ولا مانع لدى من أن يكون لهم حزب ظاهر وان الاسلام كفيل بضمان وسلامة الطرق التى تسلكها البلاد " (عبد الناصر وأزمة مارس ص ٨٧) .

كانت أولى خطوات كبت الحرية هو تحريف مفهوم الحرية نفسه وقصره على الجانب المادى الضيق ـ وقد عبر عبد الناصر عن هذه الفكرة فى خطاب ٣/٣/١٩٦٨ :

" ان مفهوم الحرية فى الثورة . . مفهوم الحرية بالنسبة لاى واحد عامل انه يشتغل مايبقاش عاطل وانه بعد كده يترقى وانه يكون عنده حماية من الفصل وتأمينات اجتماعية ـ دى الحرية !! ـ مفهوم الحرية بالنسبة للطالب انه يدخل المدرسة وانه يتعلم ويكون فيه تكافؤ فرص ـ مفهوم الحرية بالنسبة للفلاح أنه يكون مفيش اقطاع مفيش استغلال فيه تكافؤ فرص " (١).

* * *

وطالما أمكن نفى الحرية ـ فقد بدأت خطوات لمحاولة نفى الاسلام نفسه ـ وعندما تحدث عبد الناصر عن الدائرة الاسلامية ـ فقد دعا الى

---

١) هذا هو النص الرسمى المسجل فى وثائق عبد الناصر ـ أما تسجيلات الخطاب نفسه فتحفل بسيل من الوقاحات فى حق هذا الشعب مفادها "لقد أطعمتكم عايزين ايه تانى " وهى على غرار " أنا الذى علمتكم العزة " .

" تعاون المسلمين تعاونا لا يخرج عن حدود ولا ئهم لأوطانهم الاصلية بالطبع " (١)

وقد دافع بعض الباحثين وكذلك بعض المغرضين عن فكرة ان عبد الناصر ابتعد عن الاسلام بسبب ارتباط السعودية بأمريكا ومشروعات الحلف الاسلامى - وكفى بهذا الدفاع ادانة .

لقد أصر عبد الناصر دائما على نفى أن يكون الاسلام ولاء - ولم يستعمل كلمة الامة الاسلامية فى حياته - وعندما استقبل رئيس موريتانيا (١٩٦٧) قال " الامة العربية لا ترى أى تعارض بين قوميتها العربية المحددة وبين تضامنها القلبى والاخوى مع الامم الاسلامية " (٢) .

وكان مشروع دستور ١٩٥٣ يتضمن حذف عبارة " الاسلام دين الدولة " (وهو ماتراجع فيه العسكريون كأحد نتائج انقلاب المدفعية) - وقد واتت الفرصة عبد الناصر بعد ذلك ليحذف هذه العبارة من دستور دولة الوحدة .

كان عبد الناصر مصرا على أن الاسلام ليس أساسا لبناء الدولة - ويؤثر عنه قوله لمراسل أجنبى " لست أدرى ما الذى سيحدث لو أننا قررنا أن نقيم دولتنا على الاسلام وقرر آخرون أن يقيموا دولتهم على المسيحية وقرر آخرون أن يقيموا دولتهم على البوذية - لسوف تكون فى كل مكان أعمال تنم عن التعصب " .

* * *

١) فلسفة الثورة . الطبعة العاشرة ص ٨٠

٢) مركز الدراسات بالاهرام - وثائق عبد الناصر ٦٧ -١٩٦٨ ص ١٣٠

وفى خطوة لمزيد من نفى الاسلام استخدم الاسلام نفسه لضـــــرب الاسلام الحقيقى - وهى اساليب قديمة يبلغ عمرها حاليا ١٤٠٠ سنـــة - ومن كثرة استخدام عبد الناصر للاسلام فقد اعتبره بعض الاجانب السـذج فى دراساتهم زعيما مسلما .

يقول الباحث الذى تخصص فى دراسة موقف الناصرية من الدين[1] ان الاسلام فى عهد عبد الناصر استخدم فى ٣ مواقف :

- بعد هزيمة ٦٧ - أثناء المواجهه مع الاخوان (١٩٥٤) .
- أثناء المواجهة مع الاخوان (١٩٦٥) - ولم يستخدم الدين أبدا فى فـترة ٦٢-١٩٦٤ .

ويرى باحثون آخرون أن الدين فى عهد عبد الناصر استخدم لثلاثة أغـراض[2] .

- كرافد للشرعية (فلا يتصور أن ينال أى نظام يحكم مصر شرعيته خـارج الدين) .
- للتعبئة (عندما يتعرض النظام للخطر فيسمح بمقدار مامن التفجـر الجماهيرى) مثل خطاب ٢ نوفمبر الشهير حيث قام عبد الناصر خطيبـا على منبر الازهر " سنقاتل ولن نستسلم أبدا " .
- التبرير وذلك بتحريف حقائق الاسلام باستخدام بعض المشعوذين (عبد العزيز كامل - أحمد كمال أبو المجد) وعلى رأسهم عبد الناصر نفسـه يقول عبد الناصر فى عبارة مشهورة له " فيه ناس بتقول الاسلام دين رجعى- أبدا الاسلام دين تقدمى " هكذا أصبحت التقدمية والرجعية هى معايير للحكم على الاسلام وليس الاسلام هو الذى يحكم عليها .

---

١) رفعت سيد أحمد (ناصرى) : الدين والدولة والثورة - دار الهلال ١٩٨٥ ص ٦٥ - ٧٧

٢) راجع : نبيل عبد الفتاح : المصحف والسيف - صراع الدين والدولة فى مصر - مدبولى ١٩٨٤

ويقول أيضا " الدولة التى اقامها الاسلام والتى أقامها سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام كانت أول دولة اشتراكية - سيدنا محمد أول من طبق سياسة التأميم فى هذه الايام وهناك حديث قال فيه ان الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والكلأ والنار " (حمروش جـ ٥ ص ٧٩) .

وقد أدت سياسة التبرير هذه فى النهاية الى تشبيه كامب ديفيد بصلح الحديبية !!! - وكانت موضوعات الخطب فى المساجد تحددها وزارة الاوقاف سلفا - وكان هناك " دين رسمي " يتمثل فيما تتضمنه منشورات مايسمى بأمانة الدعوة والفكر بالاتحاد الاشتراكى وكذلك فى نشرة الاشتراكى .

أما الاستاذ طارق البشرى فيرى أن عبد الناصر استخدم الدين فى موضوعين :

- مقاومة الماركسية
- احداث توازن مع المد التغريبى

ولا ندرى كيف استدل الاستاذ طارق البشرى على ذلك خاصة النقطة الاخيرة - الا اذا كان المقصود بالمد التغريبى : السلوك الاستهلاكى الذى عارضه عبد الناصر كثيرا .

* * *

وعند ماعدد حمروش مآثر عبد الناصر فى خدمة الاسلام فقد وجدها كالاتى :

- زاد عدد المساجد من ١١ ألفا الى ٢١ ألفا (وهى فى الحقيقة مساجد أهلية فى معظمها وليس لها علاقة بعبد الناصر) .
- انشاء اذاعة القرآن
- تدريس الدين فى المدارس (بمعدل حصة فى الاسبوع)
- انشاء المجلس الاعلى للشئون الاسلامية (يرأسه ضابط زميل لعبد الناصر)

- انشاء مدينة البعوث التى تعطى منحا للطلبة من ٧٠ دولة (وقد أنشأت السعودية جامعة "اسلامية" تعطى منحا لطلبة من ١٠٠ دولة).

*　*　*

ويمكن اجمال خطوات عبد الناصر لمحاربة الاسلام فيما يلى :

١- تحريف حقائق الاسلام.

٢- الاستئصال التام للقيادة الطبيعية للجماهير - وفى هذا الصدد صرح عبد الناصر (خطاب ١٩٦٨/١٢/٤) بأنه اعتقل ١٨٫٠٠٠ من الاخوان سنة ١٩٥٤ و ٦٠٫٠٠٠ سنة ١٩٦٥ [(1)] - وفى كل مرة الصقت بالاسلاميين التهم التى اعتادتها الانظمة المفلسة - ففى المرة الاولى اتهموا بالاتصال بالانجليز وفى المرة الثانية بحلف بغداد - وامتدت الحملة ضد الاسلاميين الى التصفية الجسدية لمن له وزن فكرى (سيد قطب) أو جماهيرى (عبد القادر عوده) [(٢)]. كما مورس تعذيب رهيب بحق الاسلاميين : نفسيا (كلمة حمزة البسيونى : سأضع الله فى زنزانة) والعياذ بالله - وبدنيا ، وان كان التعذيب لانتزاع اعترافات له مايبرره - فان التعذيب السائد فى العهد الناصرى كان لمجرد التعذيب .

---

١) لا ينفى هذا كون الاسلاميين كانوا دائما هم البادئين بالصدام - وفى الحقيقة لقد كان الاسلام دائما فى وضع هجومى حتى فى أحلك الظروف .

٢) حسب شهادة أحمد حسين (بجريدة الشعب ٨٢/٩/٧ ص٦) فقد برر عبد الناصر له اعدام عبد القادر عودة (والله يا أحمد نحن لم ننظر للامر من الناحية القانونية بل نظرنا اليه من الناحية السياسية) وعلق أحمد حسين : غادرت مصر الى السعودية وأنا لا أكاد أصدق اننى هربت من الجحيم الذى أصبح فيه الابرياء يعدمون لاسباب سياسية .

٣ - ضرب أى احتمال لظهور قيادة اسلامية حتى من خارج الاسلاميين - وفى هذا الصدد صدر قانون مايسمى بتطوير الازهر (١٩٦١) "هذا القانون الغريب الذى استهدف الهبوط بهذه المؤسسة الفكرية الى مجرد جامعة "(١)

٤ - ابعاد الجماهير عن الاسلام بارجاع سبب الانتصارات الى قوى لا وجود لها فى الحقيقة مثل : القدرات الخارقة لعبد الناصر وعبقريته - الرأى العام العالمى . . . الخ - وعندما قامت اسرائيل بعرض عسكرى فى القدس قال عبد الناصر (خطاب ١٩٦٨/٥/١) ان العرض العسكرى " تحد لقرارات مجلس الامن والامم المتحدة والضمير العالمى كله" فى حين أن اليهود كانوا قد حددوا أن تحديهم موجه للاسلام (هتافاتهم محمد مات - خلف بنات) .

* * *

وكان اقصاء الاسلام عن الساحة يعنى حدوث فراغ رهيب وكان لا بد من بديل يعطى النظام هامشا من الشرعية (٢) - وكان ان اتخذت بعض الاجراءات :

١ - محاولة حل المشكلة التوزيعية وانشاء مساكن شعبية ودعم السلع للفقراء .

---

١) عادل حسين . نحو فكر عربى جديد - ص ٢٤٧

٢) لم تستجب الجماهير للنظام الجديد وفى هذا يقول عبد الناصر (فلسفة الثورة ص ص ٢١ - ٢٢)

- كنا فى حاجة الى النظام فلم نجد وراءنا الا الفوضى .
- كنا فى حاجة الى الاتحاد فلم نجد وراءنا الا الخلاف .
- كنا فى حاجة الى العمل فلم نجد وراءنا الا الخنوع والتكاسل .

٢ - افتعال صراعات وهمية مع امريكا - فرد اعلى سحب تمويل مشروع السد العالي قال عبد الناصر (١٩٥٦/٧/٢٤) "موتوا بغيظكم" وردا على اعتراض السفير الامريكي على سلوك عبد الناصر (١٩٦٤) قال " أنا بأقول له هنا - اللي سلوكنا مش عاجبه يشرب من البحر - واللي مايكفيهوش البحر الابيض بنديله البحر الاحمر يشربه كمان - اللي بيكلمنا أي كلمه بنقطع له لسانه ولايتقلش الرد له أبدا " .

٣ - استخدام جهاز الدعاية الضخم لتكريس وثنية عبد الناصر - لقد استغل عبد الناصر قدراته الخطابية كما استفاد من حقيقة أن الانسان العربي اذا ابتعد عن الاسلام فانه ينساق بسهولة وراء أشياء خيالية ووهمية - وفي ذلك يقول فهمي الشناوي " كان في تاريخ مصر القديم فراعنة يستعينون بالسحرة - أما عبد الناصر فكان فرعونا وكان هو نفسه كبير السحرة " وفي هذا الصدد قال له صحفي أمريكي (٦٩ ١٩) " معذرة عن قولي ذلك - لكنه يبدو لي أنك تتمتع بموهبة غير عادية في تحويل الهزائم الى انتصارات وفي تخطي المآزق " (١)

لقد قام عبد الناصر بحملة واسعة جعلت الناشئة في المدارس يعتقدون أن تاريخ مصر لم يبدأ الا في ٢٣ يوليو بل وصل التزييف الى القول بأن عبد الناصر هو أول رئيس لجمهورية مصر - ولم يكتف عبد الناصر باحتكار تاريخ مصر - بل لقد سعى لاحتكار جغرافية مصر - وقد سمى باسمه بحيرة السد العالي وكذلك حوالي ٢٠ قرية مصرية (بمراكز العياط وبني مزار والحسينية وكفر صقر وطوخ وفارسكور وبيلا وسمنود والواحات الخارجه وغيرها) والرياح الناصري ومدينة بني سويف (مازال أهلها يسمونها باسمها القديم : بوش) وعدة شياخات بالمدن الكبرى (قسم المنتزه بالاسكندرية - مدينة المحلة - قسم الجمالية - قسم حلوان) .

---

١) وثائق عبد الناصر (٦٩ - ١٩٧٠) ص ٧٠

وبعد كارثة ١٩٦٧ قام أحد شعراء العامية بالسخرية من الاسلوب الدعائى الناصرى (فكان جزاؤه الاعتقال مدى الحياة) - يقول أحمد فؤاد نجم ضمن قصيدة طويلة :

ايه يعنى فى العقبة جرينا ... والا فى سينا
هى الهزيمة تنسينا ... اننا احرار
ايه يعنى شعب فى ليل ذله ... ضايع كله
ده كفايه بس اما تقوله ... احنا الثوار . الخ

٤- الهاء الناس بتشجيع كرة القدم (كان عبد الحكيم عامر رئيسا لنادى الزمالك غداة الكارثة) وبما قام به فتحى رضوان من دور تخريبى فقد أنشأ ١٦ جهازا فى ١٦ شهرا منها اوركسترا القاهرة السيمفونى - مسرح العرائس - معهد وفرقة الباليه - فرقة رضا - معهد الموسيقى - معهد السينما - المعهد العالى للفنون المسرحية - الكونسرفتوار - وقد حفلت صحف الفترة الناصرية بصور حقيرة وبالدعوة الى الرذيلة (أمينة السعيد) .

٥- قمع كل من يثبت عليه أنه يفكر : واعتقل أشد الناس تأييدا لعبد الناصر وسيموا سوء العذاب - فأنور عبد الملك اعتقل فى أبو زعبل (١٩٥٥) جزاء (ايمانه) بعبد الناصر - اما شهدى عطيه الشافعى الذى أصر على تأييده لعبد الناصر طوال محاكمته فقد قتل تعذيبا فى أبو زعبل (١٩٦٠) وكانت آخر كلماته " أنا فى عرض عبد الناصر " ولذلك لا يوجد فكر ناصرى حقيقة الا فى خطب عبد الناصر فقط .

ومن فرط الرعب لدى الناس صدقوا اشاعة برفع سن الزواج وامتدت الى ايقاف الزواج وحدث سباق محموم لتزييف شهادات التسنين وفى احدى المناطق تم ٣٠٠٠ زواج فى شهر واحد الى ان نفدت قسائم الزواج فتوقف (اهرام ١٧/٢/١٩٦٦ ص ٣) .

محاولة حل القضايا الاجتماعية والاقتصادية

يمكن أن نعالج هذه القضايا من زاويتين : التنمية ـ التوزيع وتدل الملاحظات على ان العسكريين :

١ـ لم يكن معظمهم يمتلك فلسفة اقتصادية لتحقيق العدالة التوزيعية ـ فضلاً عن أن يكون لديهم برامج مفصلة ـ وفى هذا الصدد يقول خالد محى الدين " لم يكن فى برنامج الضباط الاحرار شئ عن الاصلاح الزراعى "(١) بل ولم تكن فكرة الاصلاح الزراعى محل موافقة جماعية من ضباط القيادة . (٢)

٢ـ وان كان العسكريون قد هدفوا الى تنمية البلاد (بالمعنى الضيق للتنمية أى زيادة معدل النمو) واعتقدوا أن تصنيع البلاد هو الوسيلة الوحيدة وفى هذا الاطار قاموا بما يلى :

أ) تجريد أصحاب القوة السياسية فى البلاد من مصدر قوتهم الاقطاع وفى هذا الصدد صدر القانون الاول للاصلاح الزراعى (٣) .

ب) لم تصادر ثروات الاقطاعيين وانما أريد توجيهها للتصنيع ـ وفى هذا الاطار عدلت التشريعات الاقتصادية الخاصة باستثمار رأس المال وانتهجت سياسة انفتاح اقتصادى وصدر سيل من

---

١) شهادته لعبد العظيم رمضان : عبد الناصر وأزمة مارس ص ٣٢٠
٢) حمروش : البحث عن الاشتراكية ص ٣٩
٣) اتفقت جميع الدراسات على أن هذا القانون لم يهدف الى تحقيق العدل وفى الحقيقة لقد ذهبت أراضى الاقطاعيين الكبار الى اقطاعيين صغار وليس الى الفقراء

القوانين منها القانون ١٢٠ لسنة ١٩٥٢ الذى يعطى رأس المال الاجنبى الحق فى الاسهام بنسبة ٥١٪ فى المشروعات (١) وقانون ١٥٦ لسنة ١٩٥٣ الذى يتضمن "كل مايخطر على البال من تشجيع واغراء الرأسمالية على المساهمة فى التنمية" (٢) وقوانين للاعفاء من العقوبة على جرائم التهريب (القانون ١٨١ لسنة ١٩٥٣) والسماح بتقاضي عمولات على التعامل مع الحكومة ذاتها (القانون ١٣٨ لسنة ٥٣) .

ولكن بسبب الاضطراب السياسى الذى يعقب أيةثورة فقد خشى الرأسماليون - واتجهوا بدلا من ذلك الى الاستثمار العقارى والمالى .

وكرد فعل فقد اتجه النظام منذ ١٩٥٦ وجهة جديدة :

- تبنى "الاشتراكية الديمقراطية التعاونية" (منقولة عن دكتاتور البرتغال سالازار) .
- انشاء القطاع العام .
- وبدأت عملية تمصير - ولكن ببطء - وشملت تمصير البنوك وشركات التأمين (١٩٥٧) .

* * *

قلنا ان القضية الاجتماعية لم تكن تستأثر على الاهتمام الاول وفور قيام الانقلاب كانت هوية القائمين عليه قد وضحت من خلال عدة وقائع منها :

---

١) لم يكن مسموحا بذلك فى الفترة اللبرالية .

٢) صلاح زكى أحمد (ناصرى) : القاموس الناصرى : المستقبل العربى ١٩٨٥ ص ص ١٨٠ - ١٨١

١- في ١٢ ، ١٣ أغسطس ١٩٥٢ تظاهر عشرة الاف عامل في كفرالدوار مطالبين بحقوقهم ومعلنين تأييدهم للثورة - فتشكلت لهم محكمة عسكرية ميدانية أصدرت احكاما بالاعدام على عامل وخفير من البسطاء (خميس ١٨ سنة ، وبقرى ٥ر١٩ سنه) (١) وصدرت أحكام بالسجن على آخرين (منهم فتى عمره ١٨ سنه) أما الاطفال الذين كان عمرهم ١٠ ، ١١ سنه فقد قدموا أيضا للمحاكمة ولكن " شاءت انسانية المحكمة وعدالتها أن تحكمببراءتهم رغم ثبوت جريمة سرقة بعض أثواب القماش عليهم " حسبما جاء في الحيثيات .

٢- في نفس الوقت قام فتى اقطاعي بلطجي (عدلي لملوم) (٢) وعصابته باقتحام مركز للشرطه واطلاق النار في تحد لقانون الاصلاح الزراعي فحاكمته نفس المحكمة العسكرية السابقة وأصدرت عليه حكما بالسجن (وأفرج عنه صحيا بعد ذلك) .

٣- في فبراير ١٩٥٣ قامت اسرة الفقي الاقطاعية بمجزرة في قرية كمشيش أسفرت عن اعدام ١٤ فلاحا (منهم امرأتان) ولم يمسسهم سوء .

---

١) من المثير أن شهود الاثبات في القضية كانوا من تنظيم حدتو الشيوعي الذي طالما تبجح بالدفاع عن حقوق العمال - وفيما بعد حاول أحمد طه (عضو مجلس الشعب الحالي وعضو اللجنة المركزية لحدتو وقتها وعضو المكتب السياسي وعضو السكرتارية المركزية والمسئول عن النقابات) حاول تبرير ذلك بقوله " كان لدينا وعد من بعض اعضاء مجلس قيادة الثورة بعدم اعدامهم فلما أعدموا أضعف هذا من موقفنا"عبد الناصر وأزمة مارس ص ٣٠١ " وقد وصف بيان شيوعي العمال المطالبين بحقوقهم" يجب أن يؤخذ هؤلاء المجرمون بكل شدة "
انظرمثالا على تزييف حمروش لهذا الموقف وتهربه من تحديد موقف حدتو(ص٢٨٨)

٢) اسرة لملوم أصلا من قبيلة ليبيةكانت تغيرعلى الدلتا وكان جد عدلي أحد هؤلاء البلطجية (تصالحت) معه الحكومة وأعطته ألف فدان .

وقد استمر موقف العسكريين من الفقراء على ماهو عليه حتى مطلع الستينات - فيذكر حمروش (جـ٣ طبعة بيروت ص ٧٦) أنه بعد وحدة مصر وسوريا قام بعض المصريين الفقراء ببيع منتجات مصرية على أرصفةد مشق - فقام الاغنياء السوريون بابلاغ عبد الحكيم عامر الذى قرر ترحيلهم الى مصر على الفور ووضعوا فى السجن حتى تم ترحيلهم على طائرات حربية .

ويتجلى نفس موقف العسكريين فى مواجهتهم لكل النقابات (١)

* * *

لم يكن العسكريون يؤمنون بصراع الطبقات وفى ذلك يقول عبد الناصر (١٩٥٤/٧/٢٣) " ان حكومة الثورة هى حكومة كل طبقات الامة حكومة العمال والفلاحين والمسئولين والطلبة ورجال الاعمال الفقراء والضعفاء والاغنياء والاقوياء - انها حكومة تنظر الى مصر على انها اسرة واحدة" !!

ولذلك سعى العسكريون لتشكيل تنظيم سياسى يضم كل الطبقات فكان "الاتحاد القومى" (١٩٥٧) (منقول بدوره عن ديكتاتور البرتغال سالازار) ولكن فى الحقيقة بقى الاقطاع مسيطرا على هذا التنظيم (٢)

---

١) راجع : مصطفى كامل السيد : المجتمع والسياسه فى مصر (١٩٥٢-١٩٨١) المستقبل العربى ١٩٨٣- وقد لخص الكاتب علاقة نظام يوليو بالنقابات بأنهامرت بعدة مراحل :

٥٢- ١٩٥٤ المواجهة مع النقابات .

٥٤ - ١٩٥٨ وقف الانتخابات فى عدد من النقابات

٦١-١٩٦٥ البحث عن الاسلوب الامثل لتوافق النقابات مع سياسةالجماعة الحاكمة .

٦٦- ١٩٦٧ استطاع التنظيم الطليعى الدخول الى قيادة النقابات .

٢) راجع شهادة فريد عبد الكريم بجريدة الاهالى عدد ١٩٨٦/٣/١٩

ونظراً للقدرة الفائقة للرأسمالية على تكييف نفسها مع أية أوضـــاع مستجدة ـ فقد تفاقم خطرها فى عهد عبد الناصر الذى قال (أنا كان عندى ١٠-١٢ مليونيرا أصبحوا حوالى ٣٠٠-٤٠٠)[1] (١٩٦١) . ولذلك أعاد عبد الناصر تقييم الموقف الذى كان يهدد باعادة سيطرة الرأسماليين علـــى الحكم ـ وطوال عام ١٩٦١ كان عبد الناصر يمهد لضرب الرأسماليين الجدد :

ـ " لقد وقعنا ضحية وهم خطير وهو تصور امكانية المصالحة مـــع الرجعيين على أسس وطنية "

ـ "على أى شئ كانت تدل تجربتنا ـ هل استطعنا أن نقيم عدالـــة اجتماعية ـ هل استطعنا أن نقضى على الاستغلال السياسى والاستغـــلال الاقتصادى والاستغلال الاجتماعى ـ أبدا لم نستطع " .

ـ "قلنا نقضى على الاقطاع ـ هل قضينا على الاقطاع ـ الاسرة التى بقى لها ٢٠٠ فدان و ٥٠ لكل ولد من أولادهم كتلوا هذه الارض وأنـــا أعرف مناطق فيها ٣٠٠ فدان ملكية لعائلة واحدة ولا زالوا يعتبرون أنفسهـــم اسياد البلد كما كانوا قبل الثورة ولا زالوا ينظرون الى الفلاحين كعبيـــد ـ هل نقبل هذا فى عهد الثورة " .

ـ " الاساس الذى بنى عليه الاتحاد القومى لم يكن بالاســـاس السليم شئ ضد العقل وضد الطبيعة ـ واحنا كنا طيبين جدا وعايزين نلم الاقطاعى اللى أخذنا منه ألف فدان مع الفلاح اللى وزعنا عليه خمسة أفدنة ـ وكنـــا بنعتبر انه حينسى ويقول ان احنا نمشى فى المجتمع الجديد " .

(حمروش جـ ٥ ص ٧٨) .

وكان عبد الناصر بذلك يمهد لمرحلة جديدة فى حقبة يوليو .

* * *

---

١) حمروش جـ ٥ ص ٨٤

الاشتراكية والنكبة الثانية (١٩٦١ - ١٩٦٧)

بسبب فشل الوحدة مع سوريا فقد ظهرت الحاجة الى :

١- تصفية الرأسمالية التى استفحلت فى عهد عبد الناصر - وكانت السبب المباشر فى احباط تجربة الوحدة .

٢- ضرورة وجود عقيدة للدولة ووضع حد لمبدأ التجربة والخطأ - خاصة وقد انقسمت حركة القومية العربية الآن الى جناحين : ناصرى وبعثى وكان الجناح الاخير يمتلك نظريات متكاملة وكان ينتقد الناصرية فى افتقادها الى عقيدة .

* * *

الاشتراكية

كان احساس عبد الناصر بتفاقم واستفحال الرأسمالية هو أحد أسباب اتخاذه لسلسلة القرارات التى سميت قوانين يوليو الاشتراكية (١٩٦١) وبعد شهر واحد من صدورها كان الرأسماليون السوريون قد أحبطوا الوحدة (وليثبت من جديد المبدأ القائل بأن القومية كانت طوال التاريخ حركة فى خدمة المترفين) [١] - وبعد أن تم الانفصال ازداد هامش المناورة أمام عبد الناصر لتحقيق مزيد من الاصلاحات الداخلية فقام عام ١٩٦٣ بتأميم ٢٩٣ شركة كما صدرت قوانين أخرى للاصلاح الزراعى .

هناك انطباع ولدته الدعاية الناصريه مفاده أن فترة ٦١/٦٧ شهدت تحقيق العدالة الاجتماعية الحقيقية - وقد تولد هذا الانطباع لدى بعض

١) بالنسبة لاوربا - فقد كانت قبل عصر القوميات مقسمة الى اقطاعيات صغيرة وكان تنقل المال بينها صعبا - فعمل الرأسماليون على توحيدها لتوسيع الاسواق أمامهم - وهكذا توافقوا مع دعوة بعض المفكرين للقومية .

الناس من استعراض الكم الضخم من القرارات والاجراءات التى اتخذت ـ ولكيلا نأخذ القارئ فى دوامة هذه القرارات سنلخص حصيلتها فى عدة حقائق :

١ ـ لم يستفد الفقراء الحقيقيون من العهد الناصرى فى قليل أو كثير (راجع الاشكال البيانية رقم ١ ، ٢) ـ وعندما مات عبد الناصر كان فى مصر ٣ ملايين معدم [١].

وفى الحقيقة ـ فان جميع ما وزع من أراض بمقتضى قوانين الاصلاح الزراعى بين عامى ١٩٥٣ ، ١٩٧٠ لم يزد على ٨٠٠ ألف فدان (أى ١٣٪ من مساحة الاراضى الزراعية بمصر) وزعت بمعدل عدة قراريط لكل اسرة ـ ولم يستول قانون الاصلاح الزراعى الاخير (١٩٦٩) الا على ٣٥,٠٠٠ فدان (أى مساحة قرية مصرية كبيرة)

وقد أثبت هذه الحقائق بالتفصيل كل من محمود عبد الفضيل [٢] وابراهيم العيسوى [٣] واحمد حمد الله السمان [٤] وعادل الجيار [٥]

ولقد فشلت جميع البرامج للقضاء على نفوذ مقاولى الانفار الذين كانوا يشغلون عمال التراحيل فى ظروف بالغة البؤس ـ وفى السد العالى (الذى بلغت مكعبات الردم فيه ١٧ ضعف حجم الهرم الاكبر)

---

١) حمروش . البحث عن الاشتراكية . ط الموقف العربى ص ٢٤٦ .

٢) فى كتابه الهام : التحولات الاقتصادية والاجتماعية فى الريف المصرى (٥٢/١٩٧٠) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨ .

٣) فى دراسته: تطور توزيع الدخل وأحوال الفقراء فى مصر ـ مجلة مصر المعاصرة عدد ابريل ١٩٨٠ .

٤) توزيع الدخل القومى فى مصر (٥٢ / ١٩٨٠) دكتوراه فى الاقتصاد من جامعة القاهرة ١٩٨٥ .

٥) سياسات توزيع الدخل فى مصر ـ مركز الدراسات بالاهرام (العدد ٥٥) .

دفن آلاف من العمال فى مواقع العمل فى ظروف من السخرة لاتعرف الرحمة .

يقول عادل الجيار (م.س. ذ ص ٢٩) بعد استعراض مفصل للاحصائيات :-" ان النتيجة التى يمكن التوصل اليها هى أن عمال الزراعة وخاصة عمال التراحيل ـ أفقر فقراء الريف ـ هم اقل الفئات التى استفادت من قوانين الاصلاح الزراعى ومن السياسات الاقتصادية فى الريف المصرى وأن أوضاعهم التى لم يطرأ عليها تغير ما خلال الخمسينات وحققت طفرة تحسن فى أوائل الستينات قد اتجهت الى أن تزداد سوءا فى النصف الثانى من الستينات وفى السبعينات".

٢ أما صغار الملاك فلم يتغير وضعهم كثيرا ـ فحسب محمود عبد الفضيل :
فى ١٩٥٢كان ٣ر٩٤٪ من الملاك يملكون ١ر٢ مليون فدان .
وفى ١٩٦٥كان ٥ر٩٤٪ من الملاك يملكون ٧ر٢ مليون فدان .
أى أن هذه الفئة لم يزدد نصيبها الا بمقدار عشر الاراضى الزراعية فى مصر .

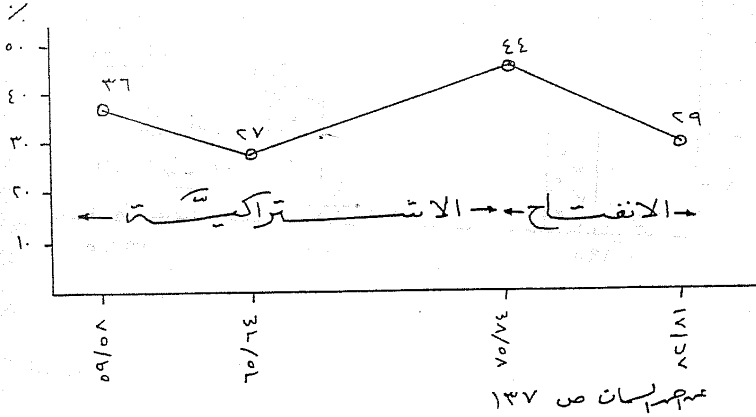
٣- ان النظام الناصرى نظام طبقى :

أ ـ فهو يكرس الفوارق بين الريف والحضر(١) (راجع الشكلين رقم ٥ أ ، ب) ـ وهى نفس اساليب الاستعمار فى ايجاد طبقة مستفيدة من أوضاع التبعية ـ ويلاحظ أن التفاوت بين الريف والحضر كان اشد مايكون فى ذروة الاشتراكية (١٩٦٥) .

١) أظهرت نتائج تعداد ١٩٧٦ أن ٥ر٥٪ فقط من مساكن الريف متصلة بمصدر لمياه الشرب النقية وأن ٢ر٨٥٪ من المساكن تحصل على مياهها من مصادر خارجية وأن ٣ر٣٦٪ من المساكن لاتتوفر لها مياه نقية من الاصل ـ أيضاأظهر التعداد أن ٤ر٨١٪ من الاسر الريفية لاتتوفر لها مصادر للكهرباء (السمان ص ٢٤٨ ، ٢٥٠)

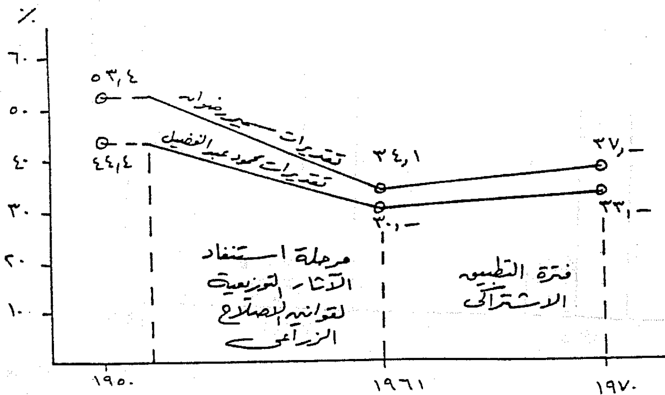
(١) الفقراء الحقيقيون

أ ـ نسبة عدد الاسر تحت خط الفقـــر



(٢) الفقراء الحقيقيون

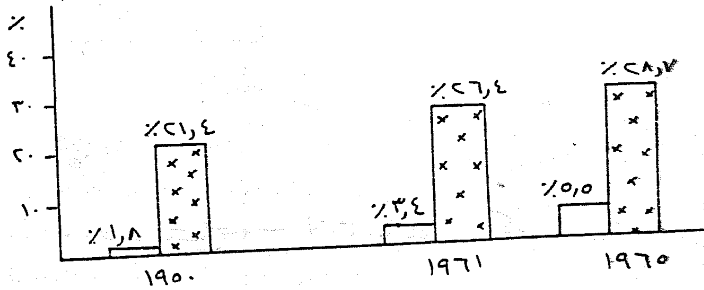
ب ـ نسبة عدد الاسر المعدمة الى عدد الاسر الريفية



عن محمد السمان ص ٦٤

(٣) صغار الملاك

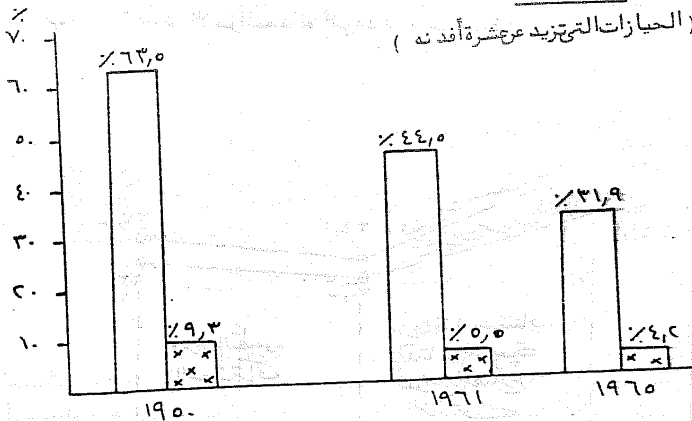
(الحيازات التي تقل عن فدان)



٪ من عدد الملاك يمتلكون ☐ ٪ من المساحة

(٤) كبار الملاك

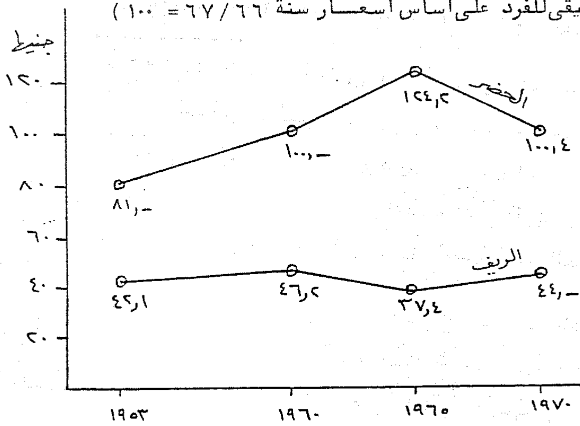
(الحيازات التي تزيد عن عشرة أفدنه)



نقلاً عن أحمد السمان ص ٦٩

(٥) التفاوت بين الريف والحضر

(متوسط الدخل الحقيقي للفرد على أساس اسعـــار سنة ٦٦ / ٦٧ = ١٠٠)



الأرقام عن [illegible] ص ٢٢٤

ب ـ وحتى داخل الحضر ـ كان هناك تفاوت توزيعي ضخم ـ بل ان مستوى هذا التفاوت قد ازداد في ذروة الاشتراكية .

ففى ١٩٥٨/١٩٥٩ كان أفقر ١٠٪ من الاسر الحضرية تحصل على ٣ر٢٪ من دخل الحضر ومن المثير أنه ظل الاشتراكية (٦٤/١٩٦٥) انخفضت هذه النسبة الى ١ر٢٪ . وبينما كانت أغنى ٥٪ من الاسر فى الحضر تحصل على ٨ر٢٠٪ من الدخل سنة ٥٨/١٩٥٩ . فان نصيبها قد ازداد الى ٨ر٢٢٪ فى سنة ٦٤/٦٥ (أحمد السمان م.س.ذ ـ ص ص ١٦٢-١٦٣) .

وهكذا توصل السمان (ص ١٦٣) الى أن " السياسات التى أدت الى استئصال أغلب الرأسماليين المصريين قد تسببت هى نفسها وغيرها من السياسات فى وجود مجموعة أخرى من ذوى الدخول المرتفعة بحيث ان حجم المجموعة الجديدة يعادل تقريبا حجم الطبقة التى كانت موجودة فى الخمسينات " وهى نفس النتيجة التى توصل اليها احد المعجبين بالناصرية[1]

"قبل ١٩٦١ سيطرت الطبقة الوسطى سياسيا ثم عقائديا وبعد ١٩٦١ سيطرت اقتصاديا ـ لكنها كانت هيمنة قصيرة الاجل فسرعان ماتحولت شرائحها العليا الى بورجوازية من نوع جديد وبدأ التباعد بينها وبين عبد الناصر وهذه الفترة اذن تتميز بشدة التناقض بين عنفوان النظام وظهور ارهاصات مرضه "

---

١) انظر عرضا لرسالة فايز بكتاش : الناصرية ايديولوجية سياسية ـ دكتوراه من السوربون (١٩٧٧) فى مجلة السياسة الدولية عدد ابريل ١٩٨٤ ص ص ١٦٦ - ١٦٩ .

ويتجلى انحياز عبد الناصر للطبقة المترفه فى قضية كمشيش (١٩٦٦) (١)

٤- أجمعت كل الدراسات على أن الانجازات البسيطة التى تحققت عادت وانتكست منذ ١٩٦٥ بسبب استنفاد الاثار التوزيعية لقوانين الاصلاح الزراعى وترتب على ذلك - وعلى الفوارق الموجوده أصلا بين الريف والحضر - أن أصبح الريف طاردا للسكان وازدادت نسبة سكان الحضر من ٣٤٪ من عدد السكان سنة ١٩٥٢ الى ٤٢٪ سنة ١٩٧٠ دون أن تتوفر للمهاجرين فرص عمل حقيقية أو يوضع تخطيط لاستيعابهم (٢) - مما دعا وزير الداخليه زكريا محى الدين الى اخراجهم من القاهرة بالقوة .

٥- لقد بدأنا هذا الفصل بافتراض أن عبد الناصر قد أراد تجميد القضايا الوطنية لكى يتفرغ لتحقيق العدالة وفى الحقيقة - ان المتابعة التفصيلية لقضية التوزيع فى تلك الفترة ستظهر حقائق مذهلة - وستهاوى بالتالى مقولتنا الاولى - ولكن يبقى أن نفسر لماذا لم تتحقق العدالة رغم الشواهد الكثيرة التى تدل على أن عبد الناصر كان يريد فعلا تحقيقها (مثلا اصراره على أن تختفى مهنة الخدم من مصر) .

---

١) فى ٤/٥/١٩٦٦ قتل عضو الاتحاد الاشتراكى بكمشيش (صلاح حسين) على يد أحد أفراد عائلة الفقى الاقطاعية - كان صلاح حسين عضوا فى الاخوان واعتقل سنة ١٩٥٤ بهذه التهمة - ولكنه أيد الثورة على أمل تحقيق العدالة حيث كانت التناقضات فى كمشيش صارخة (مجزرة ١٩٥٣ - السابق ذكرها) وعند ما زار عبد الناصر المنوفية وجد شعارات "ثورة كمشيش تحيى الثورة الام" فاستنكر ذلك أمام السادات (وهو منوفى) فاعتبر السادات ذلك ضوءا أخضر للتصفية الجسدية لصلاح حسين - وبعد عملية اخراج مسرحى حكمت المحكمة ببراءة القاتل وأن القضية ليست سياسة وانما قضية ثأر .

٢) راجع : بيلى ابراهيم أحمد : مدى معالجة سياسات التنمية الاقتصادية لمشكلة البطالة فى مصر فى فترة الستينات - دكتوراه فى الاقتصاد من جامعة القاهرة ١٩٨٣ وقد خلص الباحث الى (ص ٢٢٦) : "لم يكن القضاء على مشكلة البطالة هدفا من الاهداف الانمائية المراد تحقيقها بجدية فى يوم من الايام" .

ان السيطرة الاقتصادية لفئة من الناس تعنى سيطرتها السياسية - ولوحدث أن الجماهير سيطرت فعلا على مقدراتها الاقتصادية فستتحول الدولة الى نظام حكم جماهيرى حقيقى - وهذا سيهدد مكانة عبد الناصر كوثن - وطالما أن الفقراء الحقيقيين غير قادرين على تنظيم أنفسهم بسبب تدنى مستواهم التعليمى فلم يكن عبد الناصر بحاجة الى تأييدهم - وهكذا اكتفى برشوة أهل المدن وتوسيع جهاز بيروقراطى ضخم (أجمعت كل الدراسات على انه كان يمكن الاستغناء عن أكثر من نصفه) - لكى يتحول هذا الجهاز الى أداة تأييد للحكم (كانت معظم المعونات الامريكية الغذائية فى الستينات تذهب للموظفين فى هذا الجهاز) .

ان فشل النظام الناصرى فى حل المشكلة الاقتصادية لم يقتصر فقط على التوزيع - بل تعدى ذلك الى فشل فى التنمية - فبسبب تسلط مجموعة من الانتهازيين (أهل الثقة) على القطاع العام فقد بدأ الفساد يدب فى أوصاله من أول يوم - وقد فشلت محاولات تحقيق الاكتفاء الذاتى فى محصول استراتيجى كالقمح - لقد فشلت الاشتراكية حتى فى تأمين رغيف الخبز - ففى ١٩٦٥ قال عبد الناصر " اننا منذ ١٩٥٩ حتى الان أخذنا ألف مليون دولار مساعدات من أمريكا - بل أن كل رغيفين فى البلد منهما رغيف مأخوذ كمساعدة من أمريكا " (حمروش - البحث عن الاشتراكية ص ١٤٣) .

* * *

كان التحول الاشتراكى يقتضى تشكيل تنظيم سياسى جديد بدلا من تنظيم الاتحاد القومى الذى حل - وهكذا أنشىء الاتحاد الاشتراكى العربى الذى فتح الباب لعضويته فى أول يناير ١٩٦٢ فدخله خمسة ملايين فى ٢٠ يوما ولكن صدر قرار باستبعاد الاخوان والشيوعيين فلم يبق فيه سوى

الانتهازيين ـ وفى ذلك يقول جمال سليم (١) : " كان أفراد الاتحـــاد الاشتراكى كالموظفين فى وزارة ما تنتمى الى سلطة هلامية شائعة بين عـدد من الافراد لكل منهم رأيه وفكره وكان هذا هو المقتل الوحيد لثورة ٢٣ يوليـو ـ على حد تعبيره ـ فالسلطه لا يمكن أن تشعل ثورة ولا تستطيع أن تبنى حزبا ـ وذلك أن السلطة عندما تتحدث لتقنع لا تستعمل سلاح الاقناع انما سـلاح الارهاب ـ ومن هنا كان الاتحاد الاشتراكى يضم الخائفين والموظفيـــن والانتهازيين والمنافقين ولا يمكن أن تقوم ثورة بهذه التشكيلة العجيبة " .

وفى دراسة على ١٣١ وزيرا الذين تولوا فى عهد عبد الناصر كان وزيران فقط يشغلان مناصب بالتنظيم السياسى مما يدل على فشل التنظيم فـــى اخراج زعامات (٢) .

وحيثما كان دفع الاشتراكات للاتحاد الاشتراكى اختياريا فلم يســدد اشتراكات العضوية سوى ٢-٣٪ من عدد الاعضاء (٣) .

لذلك وصف عبد الناصر تنظيم الاتحاد الاشتراكى سنة ١٩٦٤ بأنــه "حتى الان تنظيم على الورق وهذا لاننا حتى الان لـم ننظم العناصـــر الاشتراكية " وكان هذا أحد أسباب انشاء التنظيم الطليعى .

*   *   *

١) التنظيمات السرية لثورة ٢٣ يوليو فى عهد جمال عبد الناصر ـ مدبولى ٨٢ ١٩ ص ٨ ـ كان جمال سليم متفرغا سياسيا بالاتحاد الاشتراكى ومديراً لتحرير صحيفة الحزب وشارك فى التنظيمات السرية والعلنية على حد تعبيره .

٢ ـ عاطف العراقى ـ الزعامة السياسية فى مصر ـ دار المعارف ١٩٨٠ ص١٦٢

٣) م.س.ذ. ـ ص ١٦٩

التوجيه العقائدى (عصر الردة)

كانت هناك عوامل كثيرة تضغط على عبد الناصر ليضفى على نظامه مبررا عقائديا :

١) السبب الجوهرى أنه بعد أن أثبتت روسيا أنها قوة عظمى - لم يعد التطبيق الاقتصادى الرأسمالى من المسلمات ، وهكذا ارتبط التطبيق الاقتصادى فى البلاد الحديثة الاستقلال بمحاولات للتكييف العقائدى مع العقائد السائدة فى بيئات العالم المستضعف (مثلا الاشتراكية الافريقية لدى سنجور - الاشتراكية الاسلامية لدى سيكوتورى - الاشتراكية الديمقراطية الاسلامية لدى بوتو) ، ولم يكن عبد الناصر بدعا من هؤلاء .

٢) المنافسة مع البعث كما سبق أن ذكرنا .

٣) فشل جميع التنظيمات السياسية وآخرها الاتحاد الاشتراكى .

٤) ان التطبيق الاشتراكى كان يحتاج الى تغيير العقيدة الاقتصادية من نظام تسود فيه قيم حافز الربح وروح المبادرة الى نظام تسوده قيم التضامن الاجتماعى ومايسمى بالمواطنة - وكان لابد من انشاء جيش من العقائديين لتحقيق هذا الغرض (وهكذا انشىء المعهد الاشتراكى برئاسة الماركسى ابراهيم سعد الدين) .

وفى ١٩٦٢ أصدر عبد الناصر " الميثاق " وهو وثيقة منقولة نقلا شبه حرفى عن نظيره اليوغسلافى مع استبدال اسم مصر والعرب باسم يوغسلافيا .

وفى الحقيقة لم يكن عبد الناصر يعادى الشيوعية كعقيدة - ولكن كان يعاديها كحركة عميلة - ويؤثر عنه قوله " نحن لسنا ضد الماركسيه أبدا بأى حال من الاحوال ولا ضد اليسار بل اننا ضد أخذ تعليمات من دول أجنبية - وأى

شخص يأخذ تعليمات من دولة اجنبيه يبقى خائن لهذا الوطن" (حمروش جـ ٥ ص ٩٥).

ونظرا لعداوة عبد الناصر للاسلام - وعدم عداوته للشيوعية فلم يكن أمامه سوى الشيوعيين ليستعين بهم فى اعطاء مبرر عقائدى لنظامه ولو كانت هذه العقيده " قوالب فكرية سابقة التجهيز " على حد تعبير أحد وزراء عبد الناصر فيما بعد.

وساعد على اللقاء الشيوعى / الناصرى أن حجم خيانات الشيوعيين كان يقل تدريجيا - فقد استطاعوا التخلص من قيادتهم اليهودية (٥٠-١٩٥٦) بعد صراعات مريرة وساعدهم فى ذلك أن معظم اليهود هربوا من مصر بعد عدوان ١٩٥٦ - وهكذا أمكن للاحزاب الشيوعية المصرية أن تتوحد (١٩٥٨) لكنها قمعت بسبب رفضها لوحدة مصر وسوريا - مقتدية بموقف روسيا - ولكن منذ ١٩٦١ كانت اجراءات عبد الناصر الداخلية تتفق مع مطالب الشيوعيين كما أن تبعية عبد الناصر للقوى الكبرى أصبحت موزعه بين أمريكا وروسيا [1] - وهو ما أرضى الشيوعيين.

---

١) عند ما زار خروشوف مصر (١٩٦٤) قدم لعبد الناصر لقب (بطل الاتحاد السوفيتى) كما أن عبد الناصر لم يستح - بل لقد تعمد - الاعلان عن اكتشاف تنظيم جديد للاخوان وهو فى موسكو (١٩٦٥/٨/٢٩). ومن المثير للسخرية أن عبد الناصر اعتبر أن أحد اسباب انقلاب ١٩٥٢ أن الملك كان يحمل لقب (جنرال فى الجيش البريطانى).

وفى هذا الجو أمكن عقد صفقة بين عبد الناصر والشيوعيين (١٩٦٤) تضمنت حل التنظيم الشيوعى وانشاء تنظيم سرى يسيطر عليه الشيوعيون [١] ومن خلاله يقومون بعملية ضخمة لقياس الرأى العام [٢] وتوجيهه (من خلال احتكارهم للفن والثقافة والصحافة) وكان هذا التنظيم "أول تنظيم علنى على الحكومة سرى على الجماهير" [٣].

وهكذا انطلقت حملة مسعورة للنيل من الاسلام والاخلاق - ومن المثير للسخرية أن أكثر الفترات التى لمع فيها لويس عوض كانت تلك الفترة - واحتفل فى القاهرة بعيد ميلاد لينين لمدة شهر - ووصل الكفر لدرجة أن هيكل كتب (غداة قضية سيد قطب) يقول " الحاكمية لله - لأ ياسيد " أما عبد العزيز كامل فقد أصدر كتاب " معالم على طريق الخيانة والرجعية".

---

١) كان عدد أفراد التنظيم حوالى ٢٥٠ عضوا وكان عبد الناصر يجتمعهم بانتظام - ولكن كان معظم أعضاء التنظيم من الانتهازيين والمنافقين - واصبحوا هم انفسهم المبررين لسياسات السادات ، وكان منهم عبد الرحمن الشرقاوى (أيد كامب ديفيد) وتوفيق الحكيم (صاحب عودة الوعى) ونجيب محفوظ ويوسف ادريس وأحمد بهاء الدين (صاحب مقولة ان سبب هزيمتنا أمام اليهود سبب تكنولوجى) بل ان السادات نفسه كان عضواهاما بالتنظيم - ومن الشيوعيين كان اسماعيل صبرى عبد الله - فؤاد مرسى - محمد سيد أحمد - ابراهيم سعد الدين - محمد أنيس - خليل عبد الكريم - عبد الملك عودة - أحمد فؤاد - عبد المعبود الجبيلى - حمروش - محمد الخفيف - محمد عودة - أمين عزالدين - وجيه رشدى وربما لم يكن ناصريا بحق فى التنظيم كله سوى كمال رفعت.

٢) يروى حمروش أحد مؤسسى هذا التنظيم "أن كتابة التقارير عن اتجاهات الرأى العام كادت تصبح أهم نشاط الاعضاء".

٣) شهادة عضو التنظيم ومدير معهد الدراسات الاشتراكية (ابراهيم سعد الدين) فى : حمروش: شهود ثورة يوليو ص٢٢

ثم قدم عبد الناصر دليلا جديدا على عداوته للاسلام ـ فعندما قدمت " لجنة الميثاق " المؤلفة من مائة عضو تقريرها الذى يقترح بعض التعديلات على الميثاق ـ رفض عبد الناصر ماجاء به بل ورفض ضم التقرير للميثاق ـ وطبعا لم يناقش التقرير من الاصل .

والغريب أن التقرير لم يكن يريد الا بعض التعديلات التى تبقى من الاسلام اسمه فقط ـ فقد اقترح استبدال (الاشتراكية العربية) بـ(الاشتراكية العلمية) التى وردت فى الميثاق وحدد بعض سمات الاشتراكية العربية ومنها "الايمان برسالات السماء" .

كان كمال الدين حسين (نائب عبد الناصر فى ذلك الوقت) هو رئيس لجنة الميثاق ـ وقد قدم استقالته وقتها ولكن أمكن اقناعه بسحبها .

* * *

لم يكن ممكنا أن تتم عملية التوجيه العقائدى الا فى جو خانق ـ وفى هذا الصدد صدر القانون الشهير رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤ الذى يخول لرئيس الجمهورية فى غير الظروف الاستثنائية (والمقررة أصلا فى قانون الطوارىء) " أن يقبض على المواطنين ويحتجزهم ويضع الحراسة على أموالهم وممتلكاتهم وأن يكون لسلطات التحقيق بالنسبه للجرائم التى تحال اليها طبقا لهذا القانون سلطات مطلقة وغير مقيدة بقانون الاجراءات ـ كما يخول له الحق فى تشكيل محاكم عسكرية لمحاكمة المدنيين مع اعفاء هذه المحاكم من القيود القانونية وعدم الطعن فى احكامها " .

* * *

ورغم كل مظاهر الكبت والارهاب البوليسي والفكرى ـ فقد كان على الاسلام أن يقدم اجابته الصحيحة دائما ـ وكانت الستينات هى فترة البلورة الحقيقة للاصولية الاسلامية الحديثة فى مصر وفى المنطقه كلها (١) ـ ولقد كشفت كتابات سيد قطب مدى زيف واجرام النظام الناصرى قياسا على الاسلام ومثلما حارب سيد قطب الرأسماليه فى الخمسينات (كتاب معركة الاسلام والرأسمالية) عاد وحارب الاشتراكيةوالقومية فى الستينات وبعد صدور الحكم باعدامه رفض أن يكتب صفحة فى الاشتراكية نظير تخفيف الحكم عليه.

يقول سيد قطب :

" ان الاسلام عقيدة ثورية حركية ـ بمعنى أنه مايكاد يمس القلب الانسانى مسا صحيحا حتى يحدث فيه انقلابا ـ انقلابا فى التصورات وانقلابا فى المشاعر وانقلابا فى تيسير الحياة وعلاقات الافراد والجماعات . . ثم مايحس الانسان حرارة هذه العقيدة حتى يندفع الى تحقيقها فى الواقع العملى بكل نفسه ـ فما يطيق صبرا ولا سكوتا الى أن يتم له تحقيقها فعلا ـ ذلك تأويل أن الاسلام عقيدة ثورية حركية " .

---

١) عندما كان سيد قطب يصيغ الصياغة النهائية لكتاب المعالم ـ كان مالك ابن نبى فى الجزائر يكتب عن الشروط الموضوعية للثورة (خاصة فى كتاب شروط النهضة) متمما بذلك لجهود سيد قطب الذى ركز على الشروط الذاتية وتميز واستعلاء المسلم ـ وفى نفس هذا الوقت كان الامام الخمينى ينفى الى باريس بادئا التخطيط لاسقاط النظام ـ وفى نفس الوقت أيضا كان على شريعتى يعود الى طهران مبشرا بأفكار الثورة الاسلامية .

وهكذا وضعت نهاية لمرحلة طويلة من العجز والتردد .

وفى تحديده لهدف الاسلام وفى رفض مطلق لكل اطروحات النظام يقول :

" ان هدف الاسلام لم يكن تحقيق القومية العربية ولا العدالة الاجتماعية ولا سيادة الاخلاق - ولوكان الامر كذلك لحققه الله فى طرفة عين - ولكن الهدف هو اقامة مجتمع الاسلام الذى تطبق فيه أحكام القرآن تطبيقا حرفيا وأول هذه الاحكام أن يكون الحكم نفسه لله - وليس لاى بشر أو جماعة من البشر ، بل ان الشعب نفسه لا يملك حكم نفسه لان الله هو الذى خلق الشعوب وهو الذى يحكمها بنفسه" .

وشكك سيد قطب فى وجود أمة اسلامية فى وجود كل هذا الظلم والسكوت عليه :

" فاذا رأيت المظالم تقع - واذا سمعت المظلومين يصرخون ثم لم تجد الامه الاسلامية حاضرة لدفع الظلم وتحطيم الظالم - فلك أن تشك مباشرة فى وجود الامة الاسلامية " .

وعندما يجد نظام يدعى الثورية نفسه أمام أفكار ثورية حقيقية ستكشفه على حقيقته - فانه يتحول الى ثور هائج ويستخدم سلاحه الوحيد (القمع والقانون ١١٩ ومصادرة كتب سيد قطب) .(١)

وقد أدى ذلك الى أن فاض الكيل بكمال الدين حسين وأرسل رسالته الشهيرة الى عبد الناصر فكان جزاؤه الاعتقال وتحديد الاقامة فى نفس اليوم (١٩٦٥/١٠/٥) ومن المعتقل ارسل رسالة أخرى الى عبد الحكيم عامر جاء فيها :

١ - لقد صدر قرار باعدام كل كتب سيد قطب حتى الشعر الهازل الذى كتبه فى الثلاثينيات ولم يعثر الباحث عبد الباقى محمد حسين على تراث سيد قطب الا فى مكتبة الجامعة الامريكية التى سلمت من البطش الناصرى .
راجع عبد الباقى محمد : سيد قطب حياته وأدبه ماجستير من دار العلوم نشرتها دار الوفاء ١٩٨٦

- ألجمتم جميع الافواه الا أفواه المنافقين والمتزلفين والطبالين والزمارين .
- أصبحت الآن لا أطيق الحياة فى هذا الجو الخانق لأنكم اردتم استنعاج الشعب .
- لن يمكنكم أن تكبلوا روحى وان اعتقلتم جسدى .
- أنا آسف أن تتحول ثورة الحرية الى ثورة ارهاب لا يعلم فيها كل انسان مصيره لو قال كلمة حرة .

وقد رد عليه عبد الحكيم عامر واتهمه بتوزيع كتب سيد قطب .(1)

* * *

فى هذا الجو الخانق - وحيث لم يكن هناك مؤسسات سياسية أو تنظيم سياسى حقيقى يعمل كهمزة وصل بين الحاكم والجماهير (بحيث تحققت فى عبد الناصر مقولة لويس الرابع عشر : أنا الدولة) - فى هذا الجو تنشأ ظاهرة الصراع على السلطة .(2)

وتدل وثائق تلك الفترة على أن عبد الناصر لم يكن يثق فى أحد من زملائه باستثناء عامر فأراد اعطاءه قيادة الجيش لكى يأمن أى انقلاب - وتم ذلك رغم معارضة العسكريين (فقد كان عامر مجرد رائد جعلوا نجيب يرقيه الى لواء بين يوم وليلة وصار قائدا عاما للقوات المسلحة)، ورغم المخازى التى ارتكبها عامر أمام عدوان ١٩٥٦ فقد أصر عبد الناصر بطريقة عجيبة على ضرورة استمراره .

(١) راجع نص الرسالتين فى حمروش: شهود ثورة يوليو ص ٣٤٢ - ٣٤٧ .
(٢) عن علاقات أعضاء مجلس القيادة وصراعاتهم وتهديدهم بالاستقالات والانتحار يتوفر كم هائل من وثائق تلك الفترة - ويمكن للاختصار مراجعة حمروش جـ ٣ ص ١٩٣ - ٢١٦ فصل : فى كواليس القيادة .

ولكن عامر بدأ يعمل لحسابه بعد قليل وبدأ يشدد قبضته على كثير من أجهزة الدولة المدنية - ذلك أن عبد الناصر كان قد فصل ألف ضابط من الجيش (كل الاحرار + كل من يثبت عليه أنه يحمل فكرا) . وقد تم مجاملة الاحرار بتعيينهم فى المناصب تحت اسم (مندوب القيادة) وكسفراء(١) ومديرين ولم يغلق هذا الباب الى اليوم - وبسبب مقدرة عامر على توطيد نفوذه وسط ضباط الجيش فقد كان من يخرج من الجيش توكل اليه مناصب هامة وأحس عبد الناصر بالخطر فحاول تحجيم عامر لكن الاخير أخذ زمام المبادأة وهدد بالاستقالة وهو فى مركز قوة وأسفرت أزمة ١٩٦٢ عن توطيد عامر لمركزه - وحاول عبد الناصر تحجيمه من جديد فعين زملاءه القدامى فى مجلس قيادة الثورة نوابا له وتشكل " مجلس رئاسة " لكنه ظل شكليا بسبب اصرار عبد الناصر على الانفراد بالقرار.

وكلما تدعم مركز عامر أمام عبد الناصر زاد من هيمنته - وهكذا اتسعت الاعمال الاجرامية للمباحث الجنائية العسكرية وتدخلت فيما لا يعنيها فأشرفت على مرفق النقل العام (١٩٦٤) وعلى مؤسسة المطاحن وجريدة الجمهورية وشركة سينا للمنجنيز ولجان تصفية الاقطاع وتعذيب الاسلاميين فى السجون .

وفى ١٩٦٦ صدر قانون أحال جرائم العسكريين الى القضاء العسكرى - فازداد بذلك استهتارهم واجرامهم . وكانة عصابة المشير - بمن فيهم المشير نفسه - فد تزوجوا من نساء ساقطات يعملن فى التمثيل والدعارة وكانت ممارساتهم من الاسباب المباشرة لكارثة ١٩٦٧ .

* * *

١) فى ١٩٦٢ كان جميع سفراء مصر فى أوربا - باستثناء ثلاثة - من الضباط.

قضية التبعيـــــة

لما كانت فترة ٦١ / ٦٧ هى أزهى فترات الناصرية ـ فمن الانسـب أن نناقش موقف عبد الناصر من قضية التبعية بالتركيز على تلك الفترة .

فمنذ انقلاب ١٩٥٢ لم يكن الاطار الذى يتحرك فيه عبد الناصـر يتعارض مع خطط أمريكا ـ التى تغاضت أحيانا عن شتائم عبد الناصر لهـا ـ وفى أحيان أخرى افتعلت مشادات معه ـ وفى أحيان أخرى حدثـت مشادات حقيقية بسبب تعدد مراكز اتخاذ القرار فى أمريكا ووقوع بعـض أعضاء الكونجرس تحت تأثير دعايات مضادة لعبد الناصر .

ولكن بينما كان عبد الناصر يصرخ بمعاداة الامبريالية كان يعلـن اعجابه بنموذج الحياة الامريكى فى خطاب رسمى حافل بالهزيمة الداخليـة والذلة أمام السيد الامريكى .

يقول عبد الناصر فى خطابه الشهير الى كيندى (١٨ / ٨ / ١٩٦١)
" أؤكد لكم أن ايمانى العميق ـ كان ولا يزال ـ ان الوصول الى تفاهم عربى أمريكى هدف مهم بالنسبة الينا ـ يستحق أن نبذل من أجله كل الجهـود ونحاول من أجله ولا نيأس من المحاولة أو نمل . . . ونحن فى هذا نصدر عن تتبع واع لمجرى التاريخ الامريكى وعن اعجاب عميق بخصائص الامـة الامريكية وعن مشاركة مخلصة فى كثير من مبادئ النضال التى استهـدت بها أمتكم العظيمة فى صنع مكانها ـ لقد حاولنا دائما ومانزال نحـاول ولسوفنصر دائما على المحاولة أن نمد أيدينا الى الامة الامريكية وأؤكـد لكم أنه مما يحز فى نفوسنا الى أبعد الحدود اننا فى كثير من الاحيـان نجد يدنا معلقه وحدها فى الهواء " .

ورغم أزمة الكونجو (١٩٦١) وهجوم مصر على أمريكا بسبب أزمة صواريخ كوبا (١٩٦٢) فان أمريكا بقيت أكبر شريك تجارى لمصر - وفى ٤ / ٥ / ١٩٦٣ نشرت جريدة الاهرام بيانا بمصادر الواردات المصرية كالاتي : من أمريكا ٢٩٪ من المانيا الغربية ٩٪ من بريطانيا ٧٪ من روسيا ٦٪ .

ولكن منذ ١٩٦٣ أحست أمريكا أن التحولات الداخلية نحو تحقيق العدالة قد تتطور الى ثورة جدية لصالح الفقراء بما يهدد من نفوذ الغرب - وهكذا اعتبر عبد الناصر خارجا عن اطاره - وجاء الانذار الامريكى له (أواخر ١٩٦٣) بما يلى :

- التعهد بعدم انتاج أسلحة ذرية وأن يكون لامريكا حق التفتيش على المفاعل المصرى .
- التعهد بعدم الاستمرار فى انتاج الصواريخ .
- تحديد حالة الجيش بالحالة التى وصل اليها ولا تزيد عن ذلك .

ان نوعية هذه المطالب وطريقة مخاطبة أمريكا لعبد الناصر يعطياننا فكرة دقيقة عن طبيعة العلاقات الناصرية / الامريكية (فهل يتصور أحد أن تقدم أمريكا طلبا كهذا الى ثائر حقيقى مثل هوشى منه أو كاسترو - فضلا عن ثائر مسلم) .

ثم توترت العلاقات سنة ١٩٦٤ عندما تظاهر طلبة كونجوليون فى القاهرة وأحرقوا وكالة الاعلام الامريكية وهاجموا سفارة أمريكا - ورغم اعتذار عبد الناصر وطرده الطلبة فقد استمر الموقف متوترا - الى أن انفجر بتهديد السفير الامريكى فى ديسمبر بأن " سلوك عبد الناصر"مش عاجبهم" ثم كلمة عبد الناصر التى دعا فيها الامريكان أن يشربوا من البحر .

وبينما كان عبد الناصر يهاجم أمريكا اعلاميا كان يعين زكريا محي الدين رئيسا للوزراء حيث قام " بالتهدئة مقتنعا بسياسة قبول سخافات الامريكان وعدم الرد عليها مع التسليم بحقائق يصعب التغلب عليها في هذه المرحلة "(١) ـ وهكذا نجح عبد الناصر في مد اتفاقية تزويد مصر بالقمح ـ ثم قام بالوساطة بين أمريكا وفيتنام فكوفئ بمعونة مقدارها ٥٥ مليون دولار (يناير ١٩٦٦) .

كان الروس يريدون تقديم دليل للعالم المستضعف على استعدادهم لتخليصه من التبعية للغرب ـ وفي هذا الصدد ركزوا على مصر بسبب دورها القيادي ـ وقاموا بالمساعدة في بناء السد العالي ومصانع الصلب في حلوان ـ لكن عبد الناصر لم يكن يقدر دور روسيا الا بمقدار مايسببه من ضغط على أمريكا ـ ولكن عندما أوشك الانفراج أن يحل بين العملاقين ـ عرف عبد الناصر امكانياته في المناورة وتوجه الى أمريكا رأسا وهوماسيتضح بعد كارثه ١٩٦٧ .

* * *

والخلاصة أن قضية التبعية يمكن أن نعالجها من زاويتين :

- التخطيط البعيد المدى للافلات من الأطر التي وضعتها القوى العظمى .
- التكتيك المرحلي .

وقد رأينا أن كل تكتيك عبد الناصر هو تصور امكانية الضغط على أمريكا بمزيد من التقارب مع روسيا ـ أما التخطيط بعيد المدى فلم

---

١) شهادة زكريا محيي الدين لحمروش جـ ٥ ص ١٤٣ .

يكن موجودا لدى عبد الناصر من الاصل (لان فاقد الشيء لا يعطيه)
ـ يقول أحد الناصريين : (١)

" لم يسلط الضوء على بُعد الاصالة الحضارية بدرجة كافية ولم تتولد عنه بالتالى كل النتائج الكبيرة المتوقعة التى تعمق الثقة بالنفس قبل العدوان الغربى (بكل اشكاله) وتنعكس فى اسلوب حياة متميز وفى نمط استهلاك يغير كثيرا من مفاهيم وتوجهات التنمية الاقتصادية وعلاقاتها الانسانية (وليس الاجتماعية فقط) ـ غياب (أو ضمور) هذا البعد فى رأيى عنصر ضعيف خطير فى بنية التجربة الناصرية " .

وهل كان ممكنا أن "يسلط الضوء على الاصالة الحضارية "والشيوعيين " متسلطون " وعموما لم يكن "تسلطهم" ليدوم طويلا ـ لأن النتيجة المنطقية له ستكون الكارثة (١٩٦٧) .

* * *

---

١) عادل حسين : م.س.ذ ـ ص ٢٠٢ -٢٠٣

حصيلة التطبيق العلمانى كله : كامب ديفيد (١٩٦٧ - ١٩٨١)

النكبــــة : مرحلة ٦٧ -١٩٧٤

لقد تضافرت عدة عوامل لكى تصنع نكبة ١٩٦٧ :

- وصول الشعب المصرى الى مرحلة متقدمة من التخريب العقائدى (القوميـة ـ الاشتراكية) واقترن ذلك بعمليات قمع وارهاب بلغت ذروتها فى قضية ١٩٦٥ـ لدرجة أن كثيرا من الناس أصبحوا يخافون من الصلاة فى المسجد .
- وبقدر التضليل الذى عاش الناس فيه ـ بقدر ما كان حجم الكارثة ـ ومـــن الامثلة المثيرة التى تلخص حجم التضليل فى ذلك العهد أنه عندما كان أحمـــد سعيد يصرخ بهستيرية " أيها العربى ـ أيها العربى ـ ان جنودك الان فـــوق أرض اسرائيل " ـ كانت القوات اليهودية قد وصلت قناة السويس .
- كذلك عندما ذكرت جريدة الاهرام (١٩٦٧/٦/٨) أن اليهود خســروا ٣٠٠ طائرة على الجبهة المصرية وحدها ـ لم يكونوا قد خسروا الا تسعة فقط .
- كانت هناك اسباب خاصة بالفساد المستشرى فى جهاز الحكم وخاصــــة المؤسسة العسكرية وقد كشفت محاكمات قادة الطيران أن اجهزة المخابرات لــم تكن تعلم مقدار مدى الطائرات اليهودية ـ فى نفس الوقت الذى كانت منهمكة فيـه فى اعتقال وتعذيب الاسلاميين .
- كانت هناك أيضا أسباب دولية ـ فقد كانت اسرائيل قد أتمت المرحلة الاولى من تثبيت كيانها كدولة ـ وكان لابد أن تبدأ مرحلة فرض الصلح والتوسع ـ كما أن أمريكا اعتبرت عبد الناصر قد خرج عن اطاره ولم يكن لديها مانع من تغيــــــير التوازنات فى المنطقة بعد أن لاحت بوادر الانفراج الدولى ولم تعد هنـــاك خشية من تدخل روسى مؤثر .
- أما السبب المباشر فيما حدث فهو عنجهية عبد الناصر وخضوعه لقانون رد الفعل ـ وهو ما أجاد الاعداء استغلاله ـ فقد تداعت الاحداث بطريقة سريعة جدا ربما لم تكن فى حسبان أمريكا واسرائيل أنفسهما ـ فضلا عن عبد الناصر ـ فمن تلفيق قصة الحشود السورية الى اعلان عبد الناصر اغلاق مضيق تيران أمام اليهود (٥/٢٢ /

٦٧) دون أية دراسة - الى طلب انسحاب قوات الطوارىء بصورة جزئية ثم رفض يوثانت ذلك والانسحاب الكلى ، الى تورط عبد الناصر ومحاولته اليائسة اعادة الوضع الى ما كان عليه .

وعندما أصبحت الحرب لا مفر منها كان عبد الناصر مصرا على أن تتلقى مصر الضربة الاولى (فقطع بقراره هذا نصف الطريق الى الهزيمة من قبل أن تطلق اسرائيل طلقة واحدة) (١)

* * *

واستمرارا فى سياسة الاستخفاف بالعقل - قام الاعلام الناصرى بوصف ما حدث بأنه " نكسة " لكن أحد الناصريين وصفها بعد ذلك (٢) " ليست نكسة - انها أكبر كارثة أصابت النضال العربى والانسان العربى فى العصر الحديث - لقد أفضت هذه الكارثة الى انسحاق نفسى رهيب - ان أبعاد الهزيمة لم تكن عادية وفاقت كل خيال "

كانت حصيلة النكبة - فضلا عن سقوط القدس - أن احتل اليهود ٦١٠٠٠ر كيلو متر مربع (سيناء) - وقتلوا ٥٠٠ر١١ وأسروا ٥٠٠ر٥ وهام ٥٠٠٠ر٢ جندى على وجوههم على غير هدى - اغلاق القناة وتهجير أهلها وتدمير المصانع خسر الطيران ٩٥٪ من قوته (فى ١٢ ساعة فقط) وتم تدمير ٨٥٪ من معدات القوات البرية - وفى يوم ٦/١١ لم يكن بالقاهرة سوى ٧ دبابات (٣) وبعد ذلك وصف عبد الناصر الموقف (خطاب ٦٧/٧/٢٣) " كان الطريق ما بين السويس والقاهرة مفيش فيه ولا عسكرى وكانت الطريق الى القاهرة مفتوحة بدون أدنى مقاومة نتيجة الشلل الكامل اللى حصل " " كانت القوات بتأثير الصدمة مبعثرة وشبه تائهة " ومن فرط الانهيار صدر بيان يوم ٩ يونيو تحدث عن عبور اليهود الى غرب القناة (ولم يكن ذلك حدث) .

* * *

---

١) عبد العظيم رمضان : تحطيم الالهة : قصة حرب ١٩٦٧ - مدبولى ١٩٨٥ ص٨٧

٢) عادل حسين : نحو فكر عربى . م . س . ذ - ص ٢٠٥

٣) محمود رياض : مذكراته المعنونة : البحث عن السلام والصراع فى الشرق الأوسط المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٨١ ص ٨١

بدأت الصحف ـ ازاء الهزيمة المخزية ـ تختلق قصصا وهمية عن تدخـلات أمريكية وبريطانية (على غرار التدخل فى العدوان الثلاثى) وحفلت البيانـات العسكرية بعد ذلك بقصص عن مؤامرات أمريكية وضمنت البيانات فى كل مرة عبارة " بما لا يدع مجالا للشك" ـ وفى هذا الوقت قال عبد الحكيم عامر لعبد الناصـر " احنا الاثنين ضحكنا على الشعب واحنا الاثنين لازم نمشى" (١)

وهكذا ـ مع بداية انكشاف حجم الزيف ـ تجمع طوفان من الناس أمام بيـت عبد الناصر يسألون عن مصير ذويهم (صباح ٩ يونيو) وحسب شهادة الجيـار "فقد احتاج الامر الى قدر كبير من الذكاء لاستدراج هذا الطوفان بعيدا نحـو ميدان العباسية "

سارع عبد الناصر طالبا من هيكل استخدام قدراته الفائقة فى الشـعوذة للالتفاف حول وعى الناس قبل أن يتعاظم ـ وهكذا كتب هيكل بيان التنحـى الشهير مستفيدا من عدة نقاط :

١ ـ لم يكن قد مر على بدء الحرب سوى ٤ أيام ولم تكن الناس تعرف الحجـم الحقيقى للكارثة .

٢ ـ تعبئة المخزون الهائل لدى الشعب المصرى فى تحدياته للغرب ـ عن طريق اظهار عبد الناصر كما لو كان قد تعرض لمؤامرة ـ وهكذا حفل بيان التنحـى بسلسلة من الاكاذيب :

× " ان قوى الاستعمار تتصور أن عبد الناصر هو عدوها "
× " المؤامرة كانت اكبر وأعتى "
× وجود أدلة على خطة لغزو سوريا (لم تكن هناك أدلـة)
× السلاح الجوى اليهودى عمل بقوة تزيد على ٣ أضعاف قوته " بلا مبالغة أو انفعال" (٢)
× " لقد جاءوا من الغرب وليس من الشرق أو الشمال" (جاء اليهود مـن

---

١) شهادة الجيار ، فى تحطيم الالهة ص ١٥٩

٢) قالت الصحف ان الف طائرة اشتركت فى الحرب ـ بينما ذكر ديان فى مذكراته أن الموجة الاولى قام بها ١٨٣ طائرة يهودية كانت تخطط لتدمير ١٠٠ طائرة لكنها دمرت ١٩٧ طائرة + ١٦ محطة رادار + ٦ مطارات أما الموجه الثانية فقامت بهـا ١٦٤ طائرة هاجمت ١٤ مطارا ودمرت ١٠٧ طائرات .

الشمال فى الحقيقة)

٣ - تنفير الناس من خليفة عبد الناصر - فعلى خلاف الدستور رشح زكريا محيى الدين وهو وجه قبيح فقد عمل كوزير للداخلية قبل ذلك وكان معروفا بولائه للغرب - وعلى حد تعبير عبد الحكيم عامر " ان الجنين فى بطن امه سيثور رافضا زكريا "

٤ - ألمح عبد الناصر الى أنه غير مسئول بأن قال " اننى مستعد لتحمل المسئولية"!

٥ - بعد ذلك قدم برنامج عمل للمرحلة القادمة وكأنه لا ينوى الاستقالة فعلا - ثم شبه ما حدث بحرب السويس (أى أزمة سيمكن تجاوزها)

٦ - انتهى البيان بصيغة درامية لاستغلال عواطف الشعب المصرى " ان قلبى كله معكم وأرجو أن تكون قلوبكم كلها معى " ! !

انفجرت الجماهير متظاهرة ضد ما اعتبرته مؤامرة أمريكية وهتف الناس حنحارب - حنحارب - اليهود أعداء الله ، بالروح بالدم حنكمل المشوار [1] - وفى يوم ١٠ يونيو توجهت الجماهير لاحراق مبنى السفارة الامريكية فتصدت لها الشرطة وفى نفس اليوم أعلن عبد الناصر عدوله عن التنحى " نزولا على ارادة الجماهير " التى لا يستطيع تحدى ارادتها على حد تعبيره ورقص أحد اعضاء مجلس الامة طربا ! !

حسم الصراعات على السلطة :

كان عبد الحكيم عامر قد طلب من عبد الناصر أن يتنحى معه - ولربما أدى ذلك الى مظاهرات تأييد لعبد الحكيم بدوره - لكن عبد الناصر كان قد قرر انتهاز تلك الفرصة لتصفية الثنائية التى حكمت مصر وفى هذا الاطار قام عبد الناصر باعتقال كل الضباط دفعة ١٩٤٨ (دفعة شمس بدران وزير الحربية والذى شكل تنظيما سريا لحماية عبد الناصر تحول الى مركز قوة لشمس بدران نفسه) ثم انتهز عبد الناصر فرصة تخطيط عبد الحكيم للاطاحة به فاعتقله وبعدها بأيام قتل عبد الحكيم [2] كما اعتقل

---

١) فيما بعد قام مرتزقة السلطة بتحريف الهتاف الى (بالروح بالدم نفديك يا جمال) وكأن الشعب المصرى قد خلق ليفدى شخصا .

٢) راجع ملابسات مقتل عبد الحكيم عامر فى : تحطيم الالهة : فصل بعنوان اعدام عبد الحكيم عامر .

صلاح نصر مدير المخابرات وكذلك قادة الطيران والصاعقة وتقرر تقديمهم ككبش فداء للنكبة وفى خطابى ١٩٦٧/١١/٢٣ ، ١٩٦٨/٣/٣ أعلن عبد الناصر أنه سرح ٣٠٠ من المخابرات وأعلن " سقوط دولة المخابرات " ـ"لقد سقطت طبقة عسكرية كانت تعتقد أنها الوريث الشرعى لحكم هذا الوطن والتصرف فى مقدرات " ـ " ما كانش ناقص غير انى أعمل مخابرات على المخابرات " .

كانت هناك أيضا مراكز قوى فى الاتحاد الاشتراكى لكنها لم تكن تمثل خطرا مباشرا مثل خطر عبد الحكيم عامر ومن المثير للسخرية أن التنظيم الطليعى الذى أنشأه عبد الناصر لتأمين نظامه تحول بدوره الى مركز قوة بيد على صبرى وشلته (سامى شرف ـ شعراوى جمعة ـ عبد المجيد فريد ..) ـ وهكذا اصبح الاتحاد الاشتراكى كله مركز قوة ـ فى البداية حاول عبد الناصر التقليل من خطورة الظاهرة وحاول احتواءها بهدوء ـ فقال (فى بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨) مفسرا نشأة مراكز القوى " بأنه من طبيعة الامور وطبيعة النفوس أن تظهر فى مراحل مختلفة من نضالنا ـ ان العمل السياسى لا يقوم به الملائكة " ـ ودعا بيان ٣٠ مارس الى "بناء الاتحاد الاشتراكى على الانتخاب الحر من القاعدة الى القمة " وحاول عبد الناصر أن يقنع بغدادى بالاشراف على الانتخابات (لكى يطيح بمراكز القوى) لكن الاخير رفض ـ وأسفرت الانتخابات عن تقوية نفوذ هذه القوى بأكثر مما كانت .

حاول عبد الناصر انشاء تنظيم آخر يضرب به الاتحاد الاشتراكى ـ وفى ابريل ١٩٧٠ اعلن عن انشاء " اللجان العامة للمعركة " لكنها من أول يوم تحولت الى مركز قوة جديد .

كانت هذه القوى قد أرادت تقدير قوتها من خلال اشراك بعض عناصرها ومحاولة توجيه المظاهرات المعادية لعبد الناصر فى اتجاه معين ـ ولكنها عرفت حجمها الحقيقى وأفلت الزمام من يدها .

وهكذا لم يجد السادات صعوبة كبيرة فى الاطاحة بهم فيما عرف اصطلاحا بحركة التصحيح (١٥ مايو ١٩٧١) وفى ذلك يقول جمال سليم(١) " فقيادة الاتحاد الاشتراكى لا تمثل شيئا وان كان ولا بد أن تمثل شيئا فانها تمثل ضعفها وتفككها

---

١) جمال سليم : التنظيمات السرية لثورة ٢٣ يوليو . م . س . ذ ـ ص ٨

وتمزقها بدليل أنها سرعان ما هوت عند أول ضربة وجهتها اليها مجموعة السادات فى ١٥ مايو"

محاولة توريط روسيا فى الصراع مع اليهود :

بسبب جو اليأس الرهيب الذى سيطر على عبد الناصر بعد النكبة ـ لم يجد مفرا من أن يرهن ارادة مصر لروسيا نظير قيام الاخيرة بالانغماس أكثر فى الصراع ومن ثم الضغط على أمريكا ـ ولكن الروس أفهموا عبد الناصر بأن لعبته هذه أصبحت (قديمة) وان كان هذا لم يعن تخلى الروس عن دعم عبد الناصر لانه حتى ذلك الوقت لم تكن قواعد اللعبة فى المنطقة قد أقروها مع أمريكا وكان يهمهم الحفاظ على كل ما يمكن الحفاظ عليه من نفوذ .

بعد خطاب التنحى بأسبوعين جاء الى القاهرة وفد روسى رأسه رئيس الاتحاد السوفيتى نفسه وفى مباحثاتهم مع عبد الناصر عرض عليهم [١] :

- اعلان الانحياز المطلق لروسيا (وقال عبد الناصر انه لا يوجد شيء فى الحقيقة يسمى عدم الانحياز) ووصل الامر الى اعلان عبد الناصر استعداده لادانة الصين " اعتقد أن الصين متطرفة فى موقفها وهى بذلك تخدم مخططات الامريكان "
- اعطاء قواعد للروس من بورسعيد الى السلوم (وفيما بعد الى غزة)

وفى مقابل ذلك طلب منهم

- تولى الروس كل مهمة الدفاع الجوى عن مصر .
- حماية نظام عبد الناصر (لانه تقدمى) من غزو يهودى قد يحدث بسبب كل هذه التنازلات للروس .

لكن الروس ردوا على عبد الناصر بما يلى :

- رفضهم انحياز مصر لهم ـ لان مصر المنحازة ليس لها قيمة أصلا ولن تستطيع جر غيرها وراءها .
- رفضهم التصدى لهجوم يهودى محتمل .

---

١) راجع بالتفصيل : مذكرات محمود رياض ، من محاضر اجتماعات عبد الناصر العربية والدولية (١٩٦٧ - ١٩٧٠) لعبد المجيد فريد (أمين عام رئاسة الجمهورية) نشرته مؤسسة الابحاث العربية ـ بيروت ١٩٧٩ .

- ضرورة الاعتراف باسرائيل وانهاء حالة الحرب . (١)
- سيوردون له السلاح لكنه لن يكون هجوميا .

ولكن فى مرحلة لاحقة - وبسبب غارات اليهود على العمق المصرى - وافق الروس على ارسال جنود لهم (لاول مرة منذ نهاية الحرب العالمية خارج حلف وارسو) وقد تزايد عددهم حتى وصل الى ١٨٫٠٠٠ خبير واتسع حجم التسهيلات البحرية والجوية الروسية وذات مرة منعوا وزير الحربية المصرى من دخول مطار غرب القاهرة .

وقد ارتبطت المساعدة الروسية بشروط بلا شك - ومن آثارها ما أعلنه وزير الصناعة فى عيد العمال بحلوان (١٩٦٩) عن الغاء صناعة الطائرات والصواريخ وضم مصانعها لوزارة الصناعة لانتاج ما تحتاجه الجماهير من ثلاجات وغسالات وأعمدة لاضاءة الشوارع (وكأن الجماهير لا تحتاج الى السلاح) وبعدها تفرق خبراء الطيران المصريين للعمل فى الخارج - وكان الروس قد ألحوا منذ سنة ١٩٦٦ على أن تغلق مصر مصانع الطائرات نظير أن تعطيها روسيا كل ما تريد من طائرات . (٢)

* * *

ان النتائج الحقيقية لنكبة ١٩٦٧ كانت :

١ - تصاعد المد الجماهيرى بعد اكتشاف مقدار الزيف (خاصة بعد أن أظهرت محاكمات قادة الطيران الوجه القبيح للنظام الناصرى) .

٢ - ظهور نظام يوليو على حقيقته فى موقفه من أمريكا - والاستجداء المخزى لعبد الناصر - وتابعه السادات فى ذلك (مقولة ان ٩٩٪ من أوراق اللعبة بيد أمريكا) حتى جاء حسنى مبارك ورفع النسبة المذكورة الى ١٠٠٪

* * *

---

١) كانت اجابات الروس هى نفس الاجابات عندما أوفد اليهم مؤتمر القمة العربى بالقاهرة (يوليو ٦٧) كلا من بومدين وعبد الرحمن عارف للتحدث باسم العرب وفى هذا اللقاء قال لهم برجنيف " اننا متألمون لاننا ربطنا سمعتنا بسمعتكم ولاننا وجدنا أحدث طائراتنا وأحدث صواريخنا فى مراكز بحوث الولايات المتحدة كما أرسلت أحدث دباباتنا الى ألمانيا الغربية" (مذكرات محمود رياض ص ١٠٣)

٢) شهادة الفريق صدقى بمجلة الحرس الوطنى السعودية - عدد ٣٤ (سبتمبر ٨ ه) ص ٥٤

استجداء أمريكا

كان من النتائج الخطيرة التى أسفر عنها عدوان ١٩٥٦ أن الاعلام الناصرى ـ فى خطته لصرف الجماهير عن عقيدتها ـ ردد مقولات مفادها أن (الانتصار) الذى تحقق سنة ١٩٥٦ كان بفضل ما يسمى بالرأى العام العالمى وتأييد الشعوب المحبة للسلام .. الخ هذه الاشياء الوهمية ـ واستمرارا لتلك السياسة فقد برر عبد الناصر (فى خطاب التنحى) قبوله لوقف اطلاق النار " أمام تأكيدات وردت فى مشروع القرار السوفيتى وأمام تصريحات فرنسية وأمام رأى عام دولى " وهكذا اتضحت من أول يوم نوعية القوى التى يعول عليها عبد الناصر .

ـ فبعد أيام من الكارثة عقد مؤتمر الخرطوم وفيه اقترح عبد الناصر أن يذهب حسين " كى يتفاهم مع الامريكان ـ ويتفق معهم على استرجاع الضفة الغربية وأنا مستعد لان أعلن هذا الكلام على الملأ " (مذكرات محمود رياض ص ١٢٤) وكان تفويضه لحسين " أن يتكلم مع الامريكيين الى المدى الذى يريد بشرط واحد وهو عدم ابرام اتفاقية صلح منفرد ـ ومصر لن تقف أمام الثمن الضرورى للحصول على الحل السلمى ـ يستطيع الملك حسين أن يلتزم لامريكا بانهاء حالة الحرب رسميا مع اسرائيل ـ يستطيع أيضا أن يبرم مع امريكا اتفاقا للدفاع المشترك ومصر فى هذه الحالة لن تقف ضد مثل هذا الاتفاق للامن المتبادل" (محمود رياض ص ٩٧) .

ـ بعد ذلك قبل عبد الناصر بقرار ٢٤٢ الذى يتضمن أن قضية فلسطين هى قضية لاجئين وانسحاب اليهود من أراض احتلوها واعطاء اليهود حق الملاحة فى قناة السويس ومضيق تيران ـ وكذلك " احترام والاعتراف بالسيادة ووحدة الاراضى والاستقلال السياسى لكل دولة فى المنطقة وحقها فى أن تعيش فى سلام فى نطاق حدود آمنة ومعترف بها محمية من التهديد "

ومن ذلك اليوم بدأ مشوار التفاوض الطويل الذى انتهى بكامب ديفيد :

× محاولات يارنج ٦٧ - ١٩٧١ .
× المباحثات الرباعية ٦٩ - ١٩٧١ .
× المباحثات الثنائية ٦٩ - ١٩٧١
× مبادرة روجرز ١٩٧٠ .
× مبادرة السادات ٤ فبراير ١٩٧١ .
× المفاوضات عن قرب ١٩٧١ - ١٩٧٣ .

ورغم كل التنازلات التى قدمت كان لا بد من الاستمرار فى السياسة الشكلية المعادية لامريكا حتى ان السادات صرح فى ١٩٧٣ " ماذا سأقول لشعبنا يوم ما نعيد العلاقات مع أمريكا" (١) ـ وبعد ذلك بخمسة أشهر أعاد العلاقات مع أمريكا !!

ـ كان عبد الناصر قد برر قبوله لقرار ٢٤٢ بحالة الانهيار التام الذى أصاب الجيش ـ ولكنه لم يلبث أن ظهر على حقيقته وثبت أن أشد النظم العربية التى قيل عنها انها شعبية لم تتحمل حرب الاستنزاف لاكثر من عام ـ وهكذا جاء نداء عبد الناصر الى نيكسون .

ففى أول مايو ١٩٧٠ وفى شبرا الخيمة أعلن عبد الناصر أنه " ليس هناك نزاع مباشر بين مصر وأمريكا" وأن " الشعب المصرى متحضر وعمره ٧٠٠٠ سنة" ثم وجه نداءه الى نيكسون :

" برغم كل ما حدث لم نغلق الباب نهائيا مع الولايات المتحدة برغم الاساءات الكثيرة التى وجهت الينا ـ برغم القنابل والنابالم والفانتوم "

" من هنا ـ من المنطقة التى تحوى مصنع أبو زعبل الذى أغارت عليه الطائرات الامريكية فقتلت عماله وجرحت عماله وحرقت عماله ودمرت مبانيه ودمرت آلاته ـ أتوجه هنا بالنداء الى الرئيس ريتشارد نيكسون :"

" ١ ـ اذا كانت الولايات المتحدة تريد السلام فعليها أن تأمر اسرائيل بالانسحاب .

" ٢ ـ اذا لم يكن فى طاقة أمريكا أن تأمر اسرائيل فنحن على استعداد لتصديقها اذا قالت ذلك ولكن عليها قطع مساعداتها لاسرائيل "

---

١) مركز الدراسات بالاهرام : مصر وأمريكا ص ٦٦

والا " فان العرب سيخرجون بحقيقة لا يمكن المكابرة فيها بعد الان وهو أن الولايات المتحدة تريد لاسرائيل أن تواصل احتلال أراضينا حتى تتمكن من فرض شروطها علينا بالاستسلام "

(يبدو أن عبد الناصر لم يكن قد توصل الى تلك الحقيقة) !

- وبناء على ذلك كانت مبادرة روجرز وقام هيكل بالشعوذة المطلوبة فأفتى بأن اسرائيل ستضطر " الى قبول المقترحات الامريكية - ولكن القبول سوف يمزق التحالف الحاكم فى اسرائيل " !

محاولة احباط المد الجماهيرى

كانت هزيمة ١٩٦٧ آخر مسمار فى نعش العلمانية فى مصر - وبدأ المد الشعبى بعدها فى التصاعد ووصل اليوم الى مرحلة أصبح تطويقه شبه مستحيل - ونظرا لان عبد الناصر كان قد قضى على كل بديل محتمل لنظامه - فقد كان عليه أن يقوم بنفسه بدور الملتف حول وعى الجماهير - وفى هذا الاطار قام بما يلى :

١ - التحليل الخاطىء للاحداث والاستخفاف بالعقل : فسر عبد الناصر أسباب الهزيمة (خطاب ٢٣/٧/٦٧) بأنها " مصداق للحكمة القائلة : لا يغنى حذر من قدر " ومن الغريب أنه - فى نفس الخطاب - تباهى بأنه كان يعرف ميعاد العدوان (يوم الاثنين ٥ يونيو) وأن الضربة الاولى ستوجه الى الطيران - ومن الغريب أيضا أن نفس قائد الجيش (عبد الحكيم) ونفس قائد الطيران (صدقى) كانا هما المسئولان عن هزيمة ١٩٥٦ - بل ان خطة غزو سيناء سنة ١٩٦٧ هى بحذافيرها خطة ١٩٥٦ - فأين الحذر اذن ؟

٢ - الترويج لمقولة ان هناك قوى فى أمريكا واسرائيل تريد السلام : يقول هيكل (بصراحة ٣٠/٦/٦٧) " تبقى فى أمريكا عناصر وقوى ينبغى ألا نكل من الاتصال بها ولا نسمح للمد الصهيونى الرهيب أن يغرقها تحت أمواجه العالية " ووصل الامر الى مدح القوى التقدمية فى اسرائيل ووسط عبد الناصر أحمد حمروش ليتباحث مع تلك القوى **(راجع اعترافات حمروش بجريدة الاهالى عدد ٢٠/١١/١٩٨٥)**

٣ ـ توجيه الاعلام لتثبيط الدعوة للحرب الشعبية : (١)

كتب هيكل سيلا من المقالات عن عدم جدوى المقاومة والحرب الشعبية (مثلا صراحة ١٦/٨/١٩٦٨) وفى ٤/٩/٧٠ كتب هيكل " شعار الحرب الشعبية طروح بعصبية " وبعد استعراضه لجغرافية المنطقة أفتى " الحرب الشعبية ـعار مشكوك فى نتائجه " وقدم البديل كالاتى :

ـ " ليس هناك شىء اسمه حل سلمى (لان العدو يحتل أرضنا)

ـ " ليس هناك شىء اسمه حل عسكرى (لان القوى الكبرى لن تسمح بذلك)

ـ " هناك متاح أو موجود واحد أمامنا وهو الحل السياسى بالمعنى الاصيل ـهذا التعبير وهو تسخير كل طاقات الدولة الدبلوماسية والعسكرية والاقتصادية الدولية لتحقيق كل ما نقدر على تحقيقه "

وقال ان قبول مصر لقرار ٢٤٢ يعطيها " أساسا قانونيا ودوليا يشد لينها تأييد قوى ضخمة فى العالم كله . "

بل ووصل الامر الى أن كتب هيكل بكل وقاحة (بصراحة ١٠/١٠/٦٩) ـنه أبلغ أنطونى ناتنج الوسيط بين مصر واسرائيل أن مصر مستعدة ألا تعيد ـناء قواتها المسلحة اذا انسحبت اسرائيل .

وقامت اجهزة الاعلام والثقافة بدورها بعملية التخريب اللازمة لدرجة أن ـحدى المسرحيات (وطنى عكا لعبد الرحمن الشرقاوى) دعت الى " الالتقاء ـع الاصوات الحرة فى اسرائيل " و " ليحيا الانسان صديقا للانسان " أما ـسرحية (ياسين ولدى) لفايز حلاوة فقد دعت الى معاداة العرب لانهم ـبب الكوارث التى ألمت بمصر . (٢)

أما عبد الناصر فقد شارك بنفسه فى محاربة فكرة الحرب الشعبية ـ ولكن ـلى استحياء ـ وتكشف قراءاتنا لاجتماعات المؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى (١٤ ـ ١٨ سبتمبر ١٩٦٨) عن حقائق مذهلة (٣) ـ فقد أصر جميع المتكلمين على الحرب

١) راجع : نجوى حسين أحمد خليل : رؤية الصحافة المصرية لابعاد الصراع العربى الاسرائيلى : تحليل مضمون لجريدة الاهرام (١٩٦٧-١٩٧٣) ماجستير فى الاعلام من جامعة القاهرة ١٩٧٩

١) راجع : صافى ناز كاظم : الخديعة الناصرية ـ دار الاعتصام ١٩٨٤

٢) راجع المحاضر فى : وثائق عبد الناصر (٦٧ ـ ٦٨) مركز الدراسات بالاهرام .

الشعبية وتشكيل جيش شعبى فرد عبد الناصر" ماعنديش أسلحة - الاسلحة محدودة والاسلحة حتجيلنا على مدة" لكن أحد الاعضاء رفض تلك السخافة: "بندقية ومدفعين ممكن يدرب عمال مصنع بالكامل " فلم ينبس عبد الناصر ببنت شفة .

وردا على المظاهرات الجماهيرية رفع عبد الناصر شعار (لا صوت يعلو فوق صوت المعركة) [1] (مارس ١٩٦٨) فلما استؤنفت المظاهرات (فى نوفمبر ١٩٦٨) رد عبد الناصر (خطاب ٢/١٢/٦٨) " مش احنا بس اللى عندنا المظاهرات ممنوعة - فى انجلترا المظاهرات ممنوعة" - وردا على المظاهرات أنشىء الامن المركزى (١٩٦٩) والحرس الجامعى (١٩٦٩) .

* * *

كان الرد الشعبى على التزييف الناصرى حاسما جدا - وبعد أن افاقت الجماهير من ذهولها بعد الكارثة - انفجر الشارع فى فبراير ١٩٦٨ "عبد الناصر يا دجال - اليهود ع القنال " - " لا صدقى ولا الغول - عبد الناصر هو المسؤل" - بل ان اعضاء منظمة الشباب التى أنشأها عبد الناصر لتخريج مضللين محترفين (وبلغ عددهم ٣٠٠٠٠) هؤلاء الاعضاء تظاهروا أيضا ضد عبد الناصر .

حاول عبد الناصر أولا احتواء أثر المظاهرات قائلا " طالبت المظاهرات بالغاء الاتحاد الاشتراكى ومنظمات الشباب وحل مجلس الامة واطلاق الحريات وحرية الصحافة - العمال والطلبة ضللوا " - وفى الحقيقة لم يكن ما حدث الا أن العمال والطلبة قد ثابوا عن ضلالهم القديم ولذلك أعلن عبد الناصر (خطاب ٣/٣/٦٨) اغلاق الجامعة " لكى تهدأ النفوس وكل واحد يرجع لعقله " .

ورغم تراجع عبد الناصر (شكليا) باصداره بيان ٣٠ مارس الذى دعا الى الحريات وسيادة القانون (ولم ينفذ بالطبع) - فقد انفجر الموقف من جديد فى نوفمبر ١٩٦٨ فى المنصورة والاسكندرية والقاهرة وبعد فشل الشرطة استدعى الجيش للتدخل لولا هطول الامطار وخفوت المظاهرات - ثم اغلقت الجامعة شهرين .

---

١) استخدم هذا الشعار لتبرير ممارسات كثيرة - فمثلا فى اغسطس ١٩٦٩ فصل ١٨٩ من رجال القضاء فيما عرف بمذبحة القضاء .

وقد اقترنت الثورة الجماهيرية بسلسلة من الاعمال الهجومية ضد رمـــوز السلطة (أقسام الشرطة بالذات) فيما عرف في صحف تلك الفترة باســـــم (الحوادث المؤسفة) .

* * *

ورغم اتباع عبد الناصر لجميع أساليب التهدئة مع اليهود - فقد قام الاخيرون بمهاجمة مدن القناة - وبسبب الضغط الشعبي (١) والاعتداءات اليهودية - لم يكن أمام عبد الناصر مفرا من عمل شيء فكانت حرب الاستنزاف (يوليو ١٩٦٩ - يوليو ١٩٧٠) - وقد كفلت هذه الحرب تهدئة الجبهة الداخلية مؤقتا - لكن خسائرها كانت فادحة فقد ردت اسرائيل على عبور وحدات مصرية الى شرق القناة بأكثر من ألف غارة جوية وفي أواخر ١٩٦٩ كان الطيران اليهودي يلقي على مصر ألف طن من القنابل يوميا وفي فبراير ١٩٧٠ قصف مصنع بأبو زعبل فقتل ٧٠ وأصيب ١٠٠ وفي ابريل قصفت مدرسة فقتل ٤٦ طفلا واصيب ٤٠ - ولما كان عبد الناصر لا قبل له بهذا النوع من الحروب لانه لا يستطيع تعبئة الشعب لحرب حقيقية فقد وجه نداءه المشهور الى نيكسون واوقف اطلاق النار بعد ذلك .

* * *

---

١) في الحقيقة ان الضغط كان يأتي من الجيش أيضا - فقد صرح عبد النـاصـر (خطاب ٣٠/٣/٦٩) " لقد مررنا بوقت كنا فيه نحاسب (يقصد نحاكـم) الجندي من جنودنا على الجبهة اذا رأى العدو واطلق عليه نارا "

لكن هذا لم يمنع من اندفاع الجنود لقتال اليهود لو اتيحت لهم فرصـــة وكمثال على ذلك - فقد قام النقيب أحمد شاكر عبد الواحد القارح باعطال أجهزة الاتصال في لنش الصواريخ الذي يقوده وأغرق المدمرة ايلات (٢١/١٠/١٩٦٧) وكانت أول مرة في التاريخ تتغلب قطعة بحرية صغيرة علـــى مدمرة باستخدام صاروخ سطح / سطح مما قلب الموازين البحرية .

لكن عبد الناصر - عندما بدأ حرب الاستنزاف - حرص على أن يؤكد أنه كـــان مدفوعا لذلك " لم نكن نحن الذين بدأنا فعلا باطلاق النار - أيام اسرائيل ما كانت بتضربنا بعد سنة ٦٧ - وبتضرب السويس والاسماعيلية والمدنيين . " (خطاب ٢٣/٧/١٩٧٠)

كانت المقاومة الفلسطينية قد أعطت زخما هائلا فى المنطقة ـ خاصة بعد معركة الكرامة (مارس ١٩٦٨) وكان من الصعب أن يقوم عبد الناصر باحباط المد الشعبى فى نفس الوقت الذى تتصاعد فيه عمليات المقاومة فكان لا بد من ضربها .

وفى الحقيقة كانت هناك عوامل أخرى للصدام بين عبد الناصر والمقاومة :

١ ـ اسلامية المقاومة (١)

١) انظر عرضا جيدا لتاريخ منظمة فتح فى مجلة الطليعة الاسلامية ـ لندن ـ عدد ٨ (أغسطس ١٩٨٢) تكونت منظمة فتح (١٩٥٨) على يد عناصر من الاخوان وحزب التحرير وكان عبد الناصر يتهمها دائما بأنها تابعة للاخوان ولذلك فضل الجبهة الشعبية عليها (حيث جورج حبش النصرانى الماركسى) ولكن بعد معركة الكرامة لم يستطع عبد الناصر تجاهل فتح فساءت علاقته بحبش واصدرت الجبهة بيانات اتهمته فيها بأقذع الالفاظ .

وفى لبنان التفت الجماهير المسلمة حول المقاومة بعد دعوة الامام الصدر لتحالف " المحرومين من وطنهم والمحرومين فى وطنهم" وتصاعدت العمليات العسكرية ضد اليهود من جنوب لبنان وتخوف الموارنة من انطلاق قوة الجماهير المسلمة فقام الجيش اللبنانى بارتكاب مجزرة ضد المسلمين (ابريل ١٩٦٩) قتل فيها المئات وأصيب الالاف ـ وبقيت لبنان ٧ شهور بدون حكومة حتى جاءت حكومة وقعت مع المقاومة اتفاق القاهرة (اكتوبر ١٩٦٩) حيث قام عبد الناصر بالوساطة وبموجب هذا الاتفاق حصر التواجد الفلسطينى فى لبنان عن ذى قبل .

لكن المنظمة فقدت اسلاميتها بعد ذلك بسبب تسلل شراذم من البعثيين والقوميين وبعض ضباط الجيش الاردنى السابقين ـ وبارتفاع حدة المزايدات سيطر اليسار على مراكز قيادية وعلى الاعلام والمخيمات ثم تلاشى الاسلاميون من المنظمة بعد حرب اكتوبر ـ فعندما ضغطت روسيا على المنظمة لقبول السلطة الوطنية على جزء من أرض فلسطين قبل بذلك اليسار ورفض الاسلاميون ـ ثم انشق اليسار على نفسه وتوزعت عمالته ما بين العراق (أبو نضال) وسوريا (أبو صالح) وعندما دخلت سوريا لبنان (١٩٧٦) سلمها اليسار الجبل وعملوا على الوقيعة بين المنظمة والمسلمين فى لبنان .

٢ ـ كانت المقاومة تهدد أى مشروع تسووى ـ وفى ذلك يقول عبد القادر ياسين "ولان عبد الناصر كان يعمل من أجل حل سياسى لعدوان ١٩٦٧ فقد رأى فى المقاومة الفلسطينية مجرد أداة ضاغطة تساعده فى الوصول الى الحل الذى يبتغيه [1]" وفى هذا الاطار مجد عبد الناصر المقاومة فى خطبه .

ولكن عبد الناصر كان يعلم أن المقاومة ـ التى كانت أمل العرب وقتها ـ ستظهر حجمه الحقيقى وستكشف تآمراته ـ لقد بدأت معاناته من المقاومة ميكرا مع مؤتمر الخرطوم وعندما أعلن عبد الناصر تفويضه حسين بالتفاهم مع أمريكا وأعلن رفضه لمبدأ قطع العلاقات مع أمريكا ورفضه لسحب الارصدة العربية من أمريكا ودعوته لاستئناف ضخ النفط (محمود رياض ص ١٢٧) ـ فقد كان المؤتمر سيخرج بقرارات (معتدلة) لكن ضغوط منظمة التحرير الفلسطينية أحبطت المخطط [2] ـ وصدرت قرارات اللاءات الثلاثة .

وبعد ذلك رفضت المنظمة قرار ٢٤٢ واتهمت عبد الناصر " بالسعى لتصفية القضية " ـ لكن المنظمة وجهت أعنف معارضة لعبد الناصر بعد قبوله مبادرة روجرز ـ وقال بيان المنظمة (١٩٧٠/٧/٢٥) الذى اتهم الحكومات العربية " بالتضليل " : " ان المبادرة مؤامرة على مصير الجماهير العربية وحقها فى الحياة والحرية " ودعا البيان الجماهير الى " اعلان ارادتها الحاسمة بكل وسيلة وبمنتهى القوة " ـ " عاشت الثورة الفلسطينية ـ عاشت حرب التحرير الشعبية ـ ولتسقط كل الحلول التصفوية والاستسلامية " [3]

رد عبد الناصر على ذلك باغلاق اذاعة صوت فلسطين من القاهرة (محمود رياض ص ٢٧٩) ـ وأعطى الضوء الاخضر لحسين (الذى زار القاهرة فى الاسبوع الثالث من أغسطس) لتصفية المقاومة ـ وكانت الاعمال الفدائية قد تكثفت ردا على مبادرة روجرز ـ وفى يوم واحد اختطفت ٤ طائرات نسفت احداها فى مطار القاهرة ـ ووسط هذه الاجواء المحمومة تشكلت حكومة عسكرية بالاردن (١٦ / ٩ /

---

١) م . س . ذ ـ ص ٩٩

٢) أعلن الشقيرى فى المؤتمر " كمواطن عربى وكرئيس أرفض هذا الثمن وأعلن الان أننى غير موافق وأقرر لكم بشكل قاطع باسم منظمة التحرير أنه لا يوجد أى رئيس دولة لديه تفويض بحل القضية الفلسطينية "

٣) نص البيان فى : مهدى عبد الهادى : م . س . ذ ـ ص ٥١١ ـ ٥١٤

١٩٧٠) ـ وذهب عبد الناصر للاعتكاف فى مرسى مطروح وفى هذا اليوم تفجر القتال فى الاردن وقتل عشرات الالاف من الفلسطينين فى مجازر بشعة (لدرجة أن الفلسطينيين كانوا يلجئون لاسرائيل) وأبرق عبد الناصر الى سوريا يطلب منها عدم التدخل عسكريا [1] (محمود رياض ص ٢٨٣) بحجة تفويت الفرصة على تدخل أمريكى أو يهودى ـ وفى ٩/٢٧ (قبل وفاة عبد الناصر بيوم واحد) وصل حسين الى القاهرة وتوصل مؤتمر القمة العربى بالقاهرة الى اتفاق اشترك حسين فى التوقيع عليه ونص فى مادته الرابعة عشرة على " دعم الثورة الفلسطينية والوقوف معها حتى تحقق أهدافها فى التحرير الكامل ودحر العدوان الاسرائيلى الغاصب " !! ـ وفى اليوم التالى رحل عبد الناصر من على كاهل مصر [2] .

* * *

عند ما مات عبد الناصر لم يكن الشعب المصرى ـ الذى طال عليه أمد التضليل ـ قد اتضحت الصورة أمامه تماما خاصة وأن حرب الاستنزاف كانت قد أعادت لعبد الناصر هامش الشرعية الذى فقده ـ وكان الاعلام وقتها يصور مبادرة روجرز على أنها مجرد خدعة لانشاء قواعد للصواريخ ـ ولذلك خرجت الناس بالملايين فى جنازة ضخمة لعبد الناصر ـ ولكن ذلك لم يكن يعنى شيئا ـ اذا علمنا أن نفس هذه الحشود قد استقبلت نيكسون بعد أربع سنوات بالضبط ـ ذلك أن التقلبات السريعة والعنيفة للاحداث فى المنطقة جعلت من الصعب تكوين رؤية صحيحة عما يجرى فعلا .

جاء السادات وانشغل فى بادىء حكمه بتوطيد سلطته وتقديم بديل للنموذج الناصرى ـ فخفتت المعارضة الشعبية لسياسة التهادن ـ ولكن بخداع الشعب والتراجع عن مقولة ان عام ١٩٧١ سيكون عام الحسم انفجرت المظاهرات الغاضبة فى فبراير ١٩٧٢ وكان لابد من حرب لتحريك الاوضاع وقام السادات بطرد الخبراء الروس فى خطوة لامتصاص عوامل الغضب (يوليو ١٩٧٢) وبدأت حرب ١٩٧٣ .

---

(١) وفى نفس الوقت كان الصحف المصرية تنعى على القوات العراقية عدم تدخلها فى أحداث الاردن .

(٢) تفاصيل أخرى عن موقف عبد الناصر فى مؤامرة أيلول فى :
عبد العظيم رمضان [illegible]

مرحلة ٧٤ - ٨١

لقد امتزجت عدة عوامل - في وقت قياسي جدا - عجلت بعملية التحول نحو تكوين مركب سياسي / اقتصادي / اجتماعي جديد ربط كثير من الكتاب بينه وبين شخص السادات .

(١) فعلى المستوى الدولي : أقرت صيغة الانفراج منذ ١٩٧٢ وأصدرت أمريكا وروسيا بيانا يدعو الى الاسترخاء العسكري في الشرق الاوسط مما ضيق هامش المناورة أمام النظام المصرى .

(٢) وعلى المستوى العربي : كان للمال النفطى عواقب بعيدة الاثار على مجمل الاوضاع بالمنطقة (١)

(٣) وعلى المستوى الداخلي : كان افلاس الافكار القومية والاشتراكية بعد ١٩٦٧ يعنى انتعاش الاتجاهين الاسلامى السياسى (٢) والنصرانى السياسى بما يتضمنه ذلك من تآكل حجم الولاء للدولة واحتمال تكون التنظيمات السرية وهى عوامل تؤدى الى زعزعة الاستقرار .

---

١) اعتبر عادل حسين (نحو فكر عربى جديد) أن عاملين أديا الى تصفية الناصرية: ثنائية السلطة (أى صراع عبد الناصر/ عبد الحكيم) والمال النفطى - وقال ان لمال النفطى كان سيربك عبد الناصر لو بقى حيا - ان هذه التفسيرات رغم محتها - فهى جزئية وتسطح الامور وتصرفنا عن البحث عن عوامل الخلل الكامنة ى صلب الناصرية - ان التحول عن النموذج الناصرى قد تم دون أى عنف - بل بترحيب شعبى - كما أن منظرى العهد الناصرى كانوا هم أنفسهم أول من أيد لسادات (هيكل - موسى صبرى - توفيق الحكيم ...) ولم نسمع ان ناصريا اضطهد من جل عقيدته - وبالتالى فالسادات يعتبر مجتهدا فى اطار الناصرية .

٢) عند وضع دستور ١٩٧١ انهالت البرقيات على مجلس الشعب ومشيخة الازهر طالب بتطبيق الشريعة فأصدر الفحام (شيخ الازهر) بيانا بهذا الشأن (يونيو ١٩٧) وأصدر مجلس الشعب ثم المؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى قرارا بأن ون الشريعة هى المصدر الرئيسى للتشريع - ولكن لجنة صياغة الدستور جعلتها مصدر رئيسى) اصراراً على العلمانية .

لقد كان السادات ضحية لهذه الاوضاع - وسنرى كيف كانت فترة حكمه عبارة عن معالجات جزئية وردود أفعال سريعة التلاحق لمواجة متغيرات لم يشترك السادات فى صنعها .

(٤) هناك متغير رابع أثر فى الاوضاع فى مصر فى السبعينات هو النفسية الشاذة للسادات التى ربما فاقت شذوذ عبد الناصر فى عقدة تضخيم الذات[١] كما كان السادات يعانى من عقدة الانبهار بالغرب وساير الاعلام الغربى غروره وأظهره بأنه (رجل متحضر) وقد عوضه هذا عن التضخيم المصطنع لشخصية عبد الناصر فى العالم العربى .

ورغم أن ميول السادات للغرب كانت واضحة منذ عهد عبد الناصر- فانه بعد توليه الحكم أمعن فى التصريح باعجابه للغرب - بل وبلغت وقاحته حد أنه زار مبنى المخابرات الامريكية فى عامى ١٩٧٥ و ١٩٨١ .

* * *

كان الانفراج الدولى يعنى ضرورة الصلح مع اليهود وكان يتضمن احلال أمريكا محل روسيا فى مصر[٢] ونظرا لان اعادة بناء الاقتصاد المصرى[٣] لن تقوم به روسيا (التى يعوزها المال) ولا العرب (المصرين على اذلال مصر)

---

١) يقول السادات فى البحث عن الذات (ص ١٥٥) " أعلنت ميلاد الثورة وأخرجت الملك من البلاد وواجهت بريطانيا . . الخ " ويقول فى مقدمة الكتاب" انها قصة حياتى التى هى فى نفس الوقت قصة حياة مصر منذ ١٩١٨"
٢) راجع للكاتب : التحولات السياسية فى الشرق الاوسط .
٣) خسرت مصر ١٠٠ مليار جنيه فى أربعة حروب .

- فلم يكن أمام السادات من ملجأ سوى أمريكا [١] (لان نظامه غير جماهيرى).
ولكى تتدفق المعونات الامريكية على مصر يجب تقديم تقارير من الحكومة الامريكية الى الكونجرس عن حسن سير وسلوك حكومة مصر وهذا يشمل :

١) اتخاذ سياسات خارجية معادية للروس وأتباعهم .

٢) تغيير البنية السياسية / الاقتصادية / الاجتماعية القديمة الى بنية جديدة تتضمن :

أ - في المجال الاقتصادى : تقليل دور الدولة فى التخطيط وفى الدعم وتصفية دور القطاع العام - والهدف من ذلك هو خلخلة الهيكل الانتاجى القديم وافقاد الدولة لاحد أهم عناصر قوتها (التخطيط) واخضاع الاقتصاد المصرى لميكانيكيات السوق الرأسمالية فى علاقات غير متكافئة - وفى غضون ذلك ستشترط المعونة الامريكية وقروض البنك الدولى أن توجه المعونات لخدمة مشاريع استهلاكية أو البنيه الاساسية لها (بحجة ضمان العائد السريع) بهدف عدم اعطاء الفرصة للدولة أو الافراد لاحداث التراكمات الرأسمالية - ولما كانت المشاريع الاستهلاكية صغيرة الرأسمال فقد قام بها أفراد عملت أمريكا على أن تتكون منهم فئة اجتماعية يكون من مصلحتها تكريس أوضاع التبعية - وقد أعطى هؤلاء الافراد ضمانات على أموالهم المستثمرة من خلال عدة قوانين .

---

١) قدمت السعودية وبعض دول الخليج مساعدات محدودة لمصر ليس من أجل التنمية ولكن لمنع التفجر الاجتماعى هذا التفجر الذى قد ينقلب على البلاد العربية نفسها .

لقد بلغت كل المساعدات العربية لمصر بين حرب ١٩٧٣ والى أن توقفت فى ١٩٧٨ نحو ٥ مليارات دولار + ٣٫٥ مليار مساعدات عسكرية (بمعدل مليارى دولار سنويا) وبعد كامب ديفيد وحتى ١٩٨١ كان المتوسط السنوى للمساعدات من أمريكا ودول الغرب ٣٫٣ مليار .

راجع محاضرة كمال حسن على بجمعية الاقتصاد السياسى (نشرت بمجلة الاهرام الاقتصادى عدد مايو ١٩٨٣) .

كان عبد الناصر قد استند فى حكمه على الطبقة الوسطى المثقفة (البيروقراطيون - التجار - العقاريون - العسكريون والعاملون فى أجهزة القمع) - وفى أواخر عهده كان الفساد قد استشرى وسط أهم عناصر هذه الطبقة (البيروقراطيون) وكانت الطبقة المترفة القديمة (التى لم يستطع عبد الناصر تصفيتها وكان دائم الشكوى فى كل خطبه من استمرار نفوذها)(١) قد اخترقت النظام وزجت بأبنائها فى جهاز الدولة وأصهرت الى اصحاب المناصب - ونظرا لان جميع أصحاب المناصب الكبرى فى عهد عبد الناصر لم يكونوا مقتنعين ولا مستعدين للالتزام بأفكار الزعيم الملهم (٢) - ونظرا لانهم منحلون ومتغربون - فما لبث تحالف الرأسمالية القديمة /كبار البيروقراطيين ان استدعى رأس المال الاجنبى الى مصر بمجرد صدور قوانين الانفتاح .

كان هناك أيضا بعض محدودى الثقافة استفادوا من فتح أبواب الخليج أوعملوا فى الانشطة الطفيلية مثل التهريب وانشاء البوتيكات والعمل فى خدمة السياح وتجارة العملة والسمسرة وتقديم الاستشارات وتجارة التصدير والاستيراد .

ان الروافد الثلاثة السابقة (قدامى الرأسماليين / بيروقراطية عبد الناصر/ الطفيليين) قد شكلوا عصابات كل همها العمل على تهيئة مزيد

---

١) فى خطابه بدمنهور(١٦ / ٦ / ٦٦) اعترف عبد الناصر بزيادة قوة التجار والعقاريين وبوصول مجموعة من رموز الطبقات المسيطرة قبل الثورة الى مواقع متقدمة فى السلطتين التشريعية والتنفيذية .

٢) كان عبد الناصر دائم الشكوى فى خطبه من أفكار المتعلمين وعبثا حاول اقناعهم بما تتضمنه كلمة مثقف من المسئولية الاجتماعية .

من المناخ لامتصاص دم الشعب وقد أطلق البعض عليهم (مافيا الانفتاح) (١)

ب - في المجال الاجتماعي : سيتشكل نظام اجتماعي جديد بازاحة الاطار القيمى القديم (والذى يتضمن معانى الكرامة والاستقلال (٢) تلك الشعارات التى لم تستطع الصمود لانها زيف) واحلال نظام جديد يستوحى نموذج الحياة الامريكى باعتباره مثلا أعلى - وقد ساعدت عدة عوامل على ايجاد النظام الجديد :

(١) تدفق أكثر من خمسة ملايين عامل مصرى على الخليج كان معظمهم من محدودى الثقافة - لم يفكروا فى اقامة مشروعات انتاجية لاستثمار أموالهم وخدمة البلاد - بل سارعوا الى انشاء مساكن وشراء سيارات وادمان المخدرات واقتناء أجهزة الفيديو . . . الخ وقد تسببوا فى زيادة الانحلال الخلقى وفى تصدير سلوك استهلاكى الى مصر .

(٢) انكسرت الموجة الثورية بعد سنة ٦٧ وبدأت الدوله توجه الاعلام والتعليم نحو ما يسمى بالسلام وذلك بتشكيل نفسيات مسترخية - وساعد على ذلك الضغوط الاقتصادية واليؤس الذى عانى منه الناس - لدرجة ان بعض الناس لم يرفضوا كامب ديفيد .

---

١) راجع سامية سعيد أمام : الاصول الاجتماعية لنخبة الانفتاح ماجستير فى السياسة من جامعة القاهرة ١٩٨٥ . حيث حصرت وحللت أصول ٥٣٤ شركة انفتاحية هى كل ما نشأ بين عامى ١٩٧٤-١٩٨٢ .

٢) مثلا تغير النشيد الوطنى الذى كان مطلعه (واللازمان يا سلاحى) .

(٣) شنت أجهزة الاعلام حملات واسعة لتشجيع الفساد واللاأخلاقية .

(٤) انحط المستوى التعليمى وأصبح معظم الطلبه لايرجون خيرا من وراء التعليم - اذا عقدوا مقارنة بين حالهم وحال العامل غير المثقف الذى أثرى سريعا فى الخليج - ولقد فرغت مصر من كثير من أساتذة الجامعات الذين اتجهوا الى الخليج وأصبح الاستاذ الجامعى " تاجرا يعيش بمنطق البائع المتجول فى أقبح صوره " (١) .

ج - وبالنسبة للنظام السياسى الجديد : فالاصل فى النظم الموالية لامريكا أن يسودها الانفتاح السياسى (٢) حيث يطفو كل شىء على السطح وتؤخذ (مقاسات) المعارضة ليمكن التعامل معها بعد دراسة حجمها الحقيقى - ولكى تظهر مبكرا فيمكن التعامل معها قبل استفحالها .

وهكذا كان السادات مدفوعا الى انشاء نظام حزبى - لكنه يختلف بالطبع عن النظام اللبرالى القديم (قبل ١٩٥٢) لان النظام القديم وجد فى شعب نسبة الامية فيه أكثر من ٩٠٪ وكان الاقطاعيون يتحكمون فى أصوات الفلاحين وكانت المعارضة الاشتراكية أقلية دائما فى **البولمان** - وكان عدد المثقفين صغيرا - ولكن السبعينات غير الاربعينات - فقد زاد عدد خريجى الجامعات والمعاهد من ٢٠٠ ألف طالب سنة ١٩٧١ الى ٤٤٠ ألفا سنة ١٩٧٦ ،

---

١) حامد ربيع : الثقافة العربية بين الغزو الصهيونى وارادة التكامل القومى دار الموقف العربى - ١٩٨٣ ص ١٦٠

٢) توجد نظم دكتاتورية مواليه لامريكا (فى أمريكا اللاتينية بالذات) أو نظم قبلية شديدة التخلف (السعودية) ولكن لكل هؤلاء ظروفهم التاريخية التى لايتسع المجال لذكرها .

وأصبح سكان المدن يشكلون ٥٠٪ من جملة السكان [١] . وكان تطبيق تجربة حزبية مثل التجربة القديمة يفتح بابا خطيرا للصراعات الاجتماعية حيث سيقوم حزب للدفاع عن الغنى وآخر للدفاع عن الفقير أو حزب يدعى الاسلام وآخر نصرانى وبالتالى لن تكون الاحزاب الا وسيلة لتنظيم الكتل الاجتماعية المتصارعة لكى تضرب بعضها بعضا فتفجر الاوضاع الداخلية ولذلك كان لابد أن يشتمل قانون تشكيل الاحزاب على قيود شديدة لحفظ ما يسمى بالسلام الاجتماعى منها عدم جواز انشاء حزب على أساس طبقى أو طائفى [٢] .

وهناك عوامل أخرى -غير التبعية لامريكا - كانت محفزة على انشاء الاحزاب :

١) تحول مصر من النظام الثورى (الشكلى) الى النظام المؤسسى وهوما يعنى أن القوة الباطشة لم تعد تكفى وحدها لحكم البلاد - ففى الفترة الاشتراكية لم تكن المشكلة الاقتصادية قد تفاقمت وبالتالى أصبح ممكنا استخدام القوة الباطشة لقمع المعارضة العقائدية (الاسلام) - أما فى السبعينات فقد أصبحت المعارضة ذات شعبية - وأصبح الشعب أيضا على استعداد للتمرد - وهنا لن تفلح اساليب القمع القديمة ولابد من البحث عن صيغ لتحقيق الانفتاح السياسى سواء بهدف امتصاص السخط

---

١) يسكن القاهرة الكبرى وحدها ١٢ مليونا (ربع الشعب المصرى) بكل مايعنيه ذلك من امكانيات استغلال هذا الحشد البشرى اذا تفجرت الاوضاع الداخلية - قارن ذلك بسكان طهران الذين كانوا خمسة ملايين فقط وقت الثورة الاسلامية - ومن المعروف أن القاهرة خططت لتستوعب مليونى نسمة فقط مما أدى الى تفاقم مشاكل الخدمات بها .

٢) وكأن الاسلام قد أصبح طائفة . .

أولا بأول (لكيلا يتراكم) أو بهدف تحميل الاحزاب الناشئة جزءا من مسئولية التدهور الاقتصادى ومسئولية الاستسلام أمام اسرائيل [1] .

٢) ولكن العامل الاساسى لتحقيق الانفتاح السياسى فى مصر بلا ريب تآكل حجم الولاء للدولة [2] ـ بفعل ازدهار الاسلام السياسى (مع وجود تيار نصرانى سياسى أيضا) وليس لهذا الامر من معالجة سوى اتاحة الفرصة لجميع الافكار العلمانية لكى تعبر عن نفسها ـ اذ أن الانظمة الحاكمة تفسر ازدهار الاسلام السياسى على أنه رد فعل لتفاقم المشكلة الاقتصادية والسياسية ـ وان توسيع قاعدة المعارضة العلمانية كفيل بجذب كمية لا بأس بها من الساخطين ـ ولما كانت قيادات المعارضة العلمانية جبانة ومتعفنة فانه لا يوجد خطر مباشر على النظام منها .

ومع اتساع المد الاسلامى (وهو ما سنشهده فى عهد مبارك) فان المعارضة قد تصل الى درجة عالية من التوافق مع الحكومة عند ما تو قن أن (المتشددين) لن يفرقوا بين معارضة وحكومة (اجتماع مبارك مع قيادات الاحزاب فى ديسمبر ١٩٨١) .

* * *

وهكذا يتضح أن محاولة عقد المقارنات بين عبد الناصر والسادات هى محاولات سخيفة ويعلم أصحابها أنها دعاية أكثر منها محاولات للمقارنة العلمية ـ اذ أن ظروف عبد الناصر تختلف عنها فى عهد السادات دوليا

---

١) من المعروف أن جميع الاحزاب المصرية (حتى التى خرجت عن اطارها) تقر بمبدأ التفاوض مع اليهود .

٢) راجع : اسامة الغزالى حرب : التخلف والظاهرة الحزبيه (دراسة تطبيقية على مصر (١٩٥٢ - ١٩٧٠) دكتوراه فى السياسة من جامعة القاهرة ـ حيث خلص الى : (ص ٤٤٥) "لا مناص من التسليم بما آلت اليه خبرة النظام الناصرى من أن نواحى القصور التى ينطوى عليها العداء للاحزاب أكبر بكثير من الايجابيات المتصورة لذلك العداء والرفض وان الاحزاب تظل فى النهاية هى الادوات الاكثر ملاءمة للتعبير عن مصالح القوى الاجتماعية والسياسية وادارة الصراع السياسى فى المجتمع وتغذية روح الانتماء والمبادرة السياسية لدى الافراد "

واقليميا ومحليا - وفى الحقيقة ان السادات (صفىّ عبد الناصر ونائبه) هو الامتداد الحقيقى لعبد الناصر ، وهو بالفعل - كما صرح مرارا - وارث تركته - ان عبد الناصر بعد سنة ١٩٦٧ كان قد بدأ خطوات لتغيير التركيبة الاجتماعية تضمنت مهادنة الرأسماليين وايقاف مشاريع التأميمات (مثل مشروع تأميم التجارة الداخلية الذى كان مقررا أن يتم سنة ١٩٧٠) كما تضمن التحول السياسى الناصرى بعد ١٩٦٧ الاقرار بمبدأ التفاوض والسعى للتقارب مع أمريكا - وهذا هو عين ماتبناه السادات بعد ذلك .

ان تجربة سياد برى هى مثال على مانقول - فقد بدأ عهده سنة ١٩٦٩ معلنا بوقاحة اتخاذ الماركسية مذهبا للدولة وقام باعدام علماء الاسلام الذين عارضوا القوانين الجديدة (ومنها قانون ساوى بين الذكر والانثى فى الميراث) - ولما قامت الثورة فى اثيوبيا سنة ١٩٧٤ كان على روسيا أن تختار مابين الصومال أو اثيوبيا (حيث لايمكن أن تجمع بين الاثنتين بسبب تنافسهما) واختارت روسيا أثيوبيا - وبدأ سياد برى يستجدى أمريكا ويعرض عليها القواعد وكانت الصومال - ومعها عمان فقط - هما الدولتان الوحيدتان فى العالم العربى اللتان لم تقطعا علاقاتهما بمصر بعد معاهدة الصلح - وبسبب التغير فى الظروف الدولية هذه حول الصومال - حدثت تحولات اجتماعية باتجاه اقرار مجتمع كمجتمع السادات .

* * *

كان السادات فى ذروة القتال فى حرب ١٩٧٣ يصر على أن هذه الحرب من أجل السلام - وبعد الحرب عمل السادات على تصفية اليسار وخاصة المنظمات الطلابية وبقايا التنظيمات التى أنشأها عبد الناصر لدعم نظامه - ولما كانت العلمانية قد أفلست ونظرا لان السادات لم يكن يحمل فكرا ، فقد تحالف مع الشيوعيين لتصفية الناصريين ثم أفسح المجال قليلا للاسلاميين - لكنه أخطأ عندما ظن أن الاسلام ينتشر لمجرد أنه أراد ذلك - وعندما ظن أن المد

الاسلامى قابل للمحاصرة عند الضرورة ـ وعندما ظن أن الهدنة مع الاخـــوان (والتى توسطت السعودية لعقدها) يمكن أن تستمر (١) ـ وكان الســادات حتى ذلك الوقت يعتقد أن اليسار يشكل عقبة أمام الصلح مع اليهود .

ومع أواخر ١٩٧٥ بدا واضحا أن ميزان القوى بين مصر واسرائيل قد اختل لصالح الاخيرة :

١) فقد أعلن السادات استبعاد خيار الحرب بكل مايعنيه ذلك من اثر نفسى هدام .

٢) وانهار التحالف العربى الذى قاد حرب ٧٣ وبدأ عزل مصر وانصــــرفت كل دولة عربية الى مشروعها .

٣) وأوقفت روسيا شحنات السلاح لمصر وكانت الاسلحة التى ترد من أوربـــا الغربية محدودة .

٤) وكانت اسرائيل قد استطاعت بسرعة تعويض مافقدته فى حرب ٧٣ مــــن ســـلاح (٢)

وبعد فك الاشتباك الثانى (سبتمبر ١٩٧٥) قال كيسنجر للســادات لقد أخذتكم على قدر قوتكم وكان هذا يعنى أن مصر لن تأخذ أكثر ممـــــا أخذت وكان عامل الزمن فى غير صالح مصر وكان لابد من اتخاذ خطواتنحو :

---

١) لقد أذن حسن الهضيبى للاخ صالح سرية بتنفيذ عمليـة الفنية كما كـــان لزينب الغزالى دور هام فيها .

٢) لمراجعة ميزان القوى العسكرية بين اسرائيل وجيرانها غداة كامب ديفيــد انظر :
المركز العربى للدراسات الاستراتيجية : ميزان القوى العسكرية فى منطقة الشرق الاوسط - ٧٧ - ١٩٧٨ (اعداد قاسم م. جعفر) بيروت ١٩٧٨ ص ١١-٩٨
وهوفى معظمه منقول عن بيانات معهد لندن وان أشار الىعدم دقـــــة تقديرات المعهد تماما .

(١) التقارب مع أمريكا (لكي يزداد مقدار المعونة)

(٢) الاستسلام أو ما يسمى بالسلام مع اسرائيل .

وفي سبيل تحقيق الهدف الاول قام السادات باصدار مزيد من القوانين الانفتاحية [1] كما قام بالغاء معاهدة الصداقة مع روسيا (١٩٧٦) واتخذ بعض الاجراءات ضد المؤسسات التابعة لدول أوربا الشرقية (مثل المراكز الثقافية) .

وفي سبيل تحقيق الهدف الثاني كان لابد من انشاء الاحزاب العلمانية لكيلا ينفرد السادات وحده بخزي الاستسلام ولكيلا يكون ضحية له في النهاية - وكان لابد أيضا من تصفية الاتجاه الاسلامي باعتباره الاتجاه الوحيد المعارض للصلح .

لكن السادات لم يكن ليستطيع انشاء ديمقراطية حقيقية - لانها لن تصبح علمانية ومن ثم ستعارضه - لذلك حاول كما فعل أتاتورك والشاه من قبل - أن ينشيء ديمقراطية صورية [2]

اذن بدأت التجربة الحزبية - في صورة بدائية : هي المنابر داخل الاتحاد الاشتراكي - وهي صيغة استطاع السادات بها أن يختبر شعبية المعارضة (منبرا اليمين واليسار) من خلال انتخابات نزيهة جرت سنة ١٩٧٦ حتى اذا اطمأن الى أن اليسار ما هو الا قزم [3] - أعلن في نفس العام تحويل المنابر الى أحزاب .

---

١) أصدر السادات أول قانون انفتاحي سنة ١٩٧١ لجس النبض - ولما لم يجد معارضة من أحد - أصدر ورقة اكتوبر التي دعت الى " دعم المدخرات المحلية المتواضعة بالموارد الخارجية اللامحدودة" ! ! - وبعدها صدرت سلسلة من قوانين الانفتاح منها ١٢٤ قانونا في سنة ١٩٧٤ وحدها اشهرها بالطبع القانون ٤٣ لسنة ٧٤

٢) وكانت النتيجة - كما حدث مع أتاتورك أيضا - هي احساس هذه الاحزاب بالحجم الهائل للمعارضة ثم تحولها للعمل لحسابها الخاص

٣) لم يحصل منبر اليسار الا على مقعدين في مجلس الشعب(بنسبة $\frac{1}{2}$٪ من عدد المقاعد) - وكان السادات قد أعطى منبر اليسار للشيوعيين مستغلا حقيقة كراهية الشعب لهم وأن من يسمون بالناصريين سينفضون من حولهم - لكن كمال رفعت استطاع ادخال كثير من الناصريين الى حزب التجمع (وهو وارث منبر اليسار)

وبعد الانتخابات خضع السادات لشروط البنك الدولى [1] الخاصة برفع الدعم ـ وكانت الانتفاضة الشعبية (١٩٧٧) ونزل الجيش الى الشوارع فى القاهرة والمدن الرئيسية ـ ورغم أن اليساريين لم يوجهوا المظاهرات التى كانت عفوية تماما ـ فان السادات (الذى أصبحت العلاقة بينه وبين اليسار كعلاقة القط والفأر) تخوف من دعاية اليسار التى أرادت الاستفادة من الانتفاضة ـ وتركت أجهزة السادات للجماعات الاسلامية بالجامعة حرية الاجهاز على بقايا اليساريين وكانت الشهور الاربعة أو الخمسة الاخيرة من العام الجامعى ٧٦ ـ ٧٧ تسمى (العصر الذهبى للعمل الاسلامى) : فى أدبيات اليسار .

وفى الوقت الذى كان السادات يعطى فيه للاسلاميين حرية الحركة (كخطوة تكتيكية ضد اليسار) كان فى نفس الوقت يعد لتوجيه ضربة استراتيجية للعمل الاسلامى (تقرير حسن التهامى) لارهاب كل من تسول له نفسه معارضة الصلح مع اليهود حسبما اعتقد .

وكان مقررا أن توجه الضربة الى الاخوان ـ ولكن كان من الصعب ايجاد مبررات لذلك ـ خاصة وأن القيادة الاخوانية الجديدة كانت أشد مهادنة للنظام من القيادة السابقة ـ وجاءت أحداث صيف ١٩٧٧ (قتل الذهبى وقتل أحد الجنود أثناء محاولة الاستيلاء على سلاحه على يد عناصر من تنظيم الجهاد) ـ جاء ذلك ليعطى السادات مبررا لما تخيله ضربا للاتجاه الاسلامى .

فقد كشفت أحداث ١٩٧٧ عن وجود اتجاهات اسلامية أخطر من الاخوان (رغم أن الأخيرين هم أوفر عددا واكثر تنظيما) وهكذا شهد عام ١٩٧٧ اعتقالات ضد المئات من أعضاء جماعة المسلمين (التى اشتهرت اعلاميا باسم التكفير والهجرة)[2] وشملت الاعتقالات أيضا مائة من عناصر تنظيم الجهاد .

---

١) راجع أمانى قنديل : صنع السياسات العامة فى مصر (١٩٧٤ - ١٩٨١) دكتوراه فى السياسة من جامعة القاهرة ١٩٨٥ عن دور صندوق النقد الدولى ص ص ٤٨٨ - ٤٩٤ ودور البنك الدولى ص ص ٤٩٤ - ٤٩٩ وعن دور الدول المقرضة والبنوك الخاصة ص ص ٥٠٠ - ٥١٨ .

٢) اعتبرت جماعة المسلمين أخطر ما يهدد الامن فى مصر منذ ١٩٧٧ وحتى عملية المنصة وكان ثلث من اعتقلوا فى حملة سبتمبر من هذه الجماعة .

وأثناء محاكمات جماعة المسلمين وتنظيم الجهاد ـ أعلن السادات مبادرته في نوفمبر ١٩٧٧ ـ وفي العام التالي قام بتحجيم حزب التجمع واغلاق صحيفته التي اعتبرها تثير الشوشرة بكثرة نشرها للفضائح والفساد ـ وهكذا بدا النظام مفتقدا للمعارضة الحزبية [١] ولذلك عمل السادات على تكوين حزب اشتراكي (معتدل) يحل محل حزب التجمع في أداء الدور المطلوب ـ وكانت قصته مع ابراهيم شكري (١٩٧٨) والتي افتضحت بعد ذلك . وشهد عام ١٩٧٨ أيضا عودة الوفد ـ ولم يكن السادات يتصور أنه سيحقق شعبية ـ ولكنه فوجيء بالاقبال الكبير عليه (الذي هو رد فعل رافض لحقبة يوليو بكل رموزها) وبعد أن قام السادات (بأخذ مقاس) حزب الوفد بدأ الهجوم الشديد عليه ـ ورغم أن فؤاد سراج الدين أعلن ايمانه بالسادات[٢] ! ! فقد صدر قانون العزل السياسي على من أفسدوا الحياة السياسية قبل ١٩٥٢ واضطر الوفد لتجميد نشاطه بعد مائة يوم من انشائه ـ وبعد ذلك بأيام اعلن السادات اعتزامه تشكيل الحزب الوطني وعلى الفور وقعت مهزلة هرولة جميع نواب حزب مصر تقريبا الى حزب الرئيس ـ ولكن فشلت عدة محاولات لاختيار عقيدة للحزب[٣]

وعندما وقعت معاهدة الصلح مع اليهود (مارس ١٩٧٩) قبلها حزبا العمل والاحرار (وكانت نصف قيادات حزب العمل مازالت على ولائها لحزبها الاصلي حزب الحكومة) ـ ومرت بضعة شهور وأعلنت الميزانية الجديدة واكتشف الناس زيف ما كان السادات يعدهم ويمنيهم به من رخاء ـ واكتشفوا أن النفقات العسكرية قد زادت عنها في أي عام مضى كما بقيت المعونات الامريكية عند مستواها قبل (السلام) وبدأ حزب العمل يفكر في العمل لحسابه الخاص

---

١) هناك حكمة أو قول علماني مأثور : لا معارضة بلا يسار .

٢) قال فؤاد سراج الدين " واننا جميعا نؤمن به ايمانا كاملا ونؤمن بصدقه في التمسك بالديمقراطية " (لماذا الحزب الجديد ص ٧٦)

٣) بعد اعدام السادات قال الحزب الوطني انه سيضع اطارا فكريا لنفسه ـ فسخرت منه الاحزاب ـ وفي أحد الرسوم الساخرة صور أحد أعضاء الحزب يبشر زملاءه بأنه جاءهم " بالاطار الفكري " وكان هذا العضو يمسك في يده " اطار سيارة " .

فرد عليه السادات بسحب ممثليه داخل الحزب فيما عرف بسلسلة الاستقالات الشهيرة فرد حزب العمل بسحب تأييده لمعاهدة الصلح - وهنا يبرز الدجل السياسى والانتهازية عندما يتخذ الحزب من قضية الحكم الذاتى الفلسطينى ذريعة لسحب اعترافه بالمعاهدة .

* * *

وهكذا كانت فترة (٧٤ - ٨١) مجموعة من ردود الافعال - فقد حاول السادات ضرب اليسار بالاسلاميين فلم يستطع لجم الاتجاه الاسلامى وحاول ضربه من خلال :

أ - توجيه ضربة بوليسية (أسفرت عن ازدياد الدعوة الاسلامية عامة وازدياد الاصولية خاصة) .

ب - توسيع قاعدة المعارضة العلمانية (فخرجت هذه المعارضة عن اطارها) .

* * *

ومع قتامة الصورة فى داخل مصر وفى علاقاتها الخارجية عند توقيع معاهدة الصلح - كانت ايران تغلى وانهار دورالشرطى الخليجى (فبراير ١٩٧٩) وحاول السادات أن يحل مشاكله من خلال تولى دور الشرطى الجديد للمنطقة - وربما فكر فى تصفية المعارضة بعد حل هذه المشاكل - وحاول فى تلك الفترة أن يثبت لامريكا أنه كفء لتولى الدور فكرس معظم خطبه لاقناع الشعب المصرى بما يسمى خطر روسى على المنطقة مستغلا الضجيج الاعلامى المرتبط بغزو أفغانستان (والذى أخطأ الاسلاميون فى اعلامهم اذ لم يبينوا دور أمريكا كشريك فى سقوط أفغانستان) - وأظهر السادات نفسه فى دور المتصدى لمخططات روسيا وعرض على أمريكا متطوعا تقديم تسهيلات لما يسمى بحماية العالم الاسلامى من المغرب الى اندونيسيا على حد قوله - ولكن صدر مبدأ كارتر الذى أنهى فكرة الشرطى ليحل محلها اضطلاع أمريكى كامل بمسئولية حماية ما يسمى بالمصالح الغربية فى المنطقة - وانتظر السادات قليلا آملا فى اقناع ادارة ريجان الجديدة

(والتى عرف عنـها التشد د) وفى فترة الانتظار تلك كانت الاوضاع السيئـة تزداد تفاقما وحاولت بعض النقابات أن تتمرد على الوضع .

وقبيل زيارته لامريكا بدأ السادات بتوجيه ضربة لحزب العمل من خلال فضح حقيقته ومن ثم جاءت موجة استقالات جديدة بعد أن تكشف لاعضاء الحزب حقيقة الدجل السياسى الذى يمارس ويسمى ديمقراطية .

وأسفر لقاء السادات بريجان عن خيبة أمل جديدة زاد منها قيـام المجموعات الجهادية بعدة عمليات ضد الاقباط ردا على اعتداءاتهم علـى المسلمين فى الزاوية الحمراء (١) ـ وقام الاقباط باحراج السادات فى أمريكا عندما قام الاخ نبيل نعيم بتفجير قنبلة فى احدى الكنائس عشية زيارة السادات لامريكا ـ وفى هذه المرة لم تبادر وسائل الاعلام الامريكية بارضاء غرور السادات كما عودتـه من قبل ـ وعاد السادات وألقى خطبا كان يبدو فيها غير متزن وبدأ يستخـدم ألفاظا أكثر وقاحة مما قاله من قبل .

ولم يكن مشروع السادات لما تخيله تصفية للاسلام نابعا فقط من كـون الاسلاميين هم المعارضة الحقيقية للصلح مع اليهود ـ فلقد نبهت الثـورة الاسلامية فى ايران الانظمة المفلسة الى أن الاسلاميين ليسوا سذجا أو واهمين فى دعوتهم لقيام نظام اسلامى ـ وكان السادات نفسه يعرب عن استغرابه كيـف أن شخصا معمما يحكم دولة ـ وردا على الثورة الاسلامية بدأت حملة على مستوى المنطقة ضد الاتجاه الاسلامى فكان انقلاب تركيا(أول سبتمبر ١٩٨٠) بعـد يومين فقط من قيادة أربكان مظاهرة من ٦٠٠ ألف مسلم احتجاجا على اعـلان القدس الموحدة عاصمة لاسرائيـل .

وفى ٣ سبتمبر صدرت أحكام بالسجن ضد مائتين من أعضاء حركة"الاتجاه الاسلامى " فى تونس . وفى ٥ سبتمبر اتخذ السادات قراراته المشهورة وفـى ديسمبر وقعت محاولة الانقلاب فى البحرين وبدأت دول الخليج تتخذ اجراءات

---

١) هناك نظريتان حول سبب تفجر ما يسمى بالفتنة الطائفية :
- المد الاسلامى أخاف الاقباط فرد الاخيرون بشراسة متصورين أن ذلك سيضغط على الحكومة وأن الاخيرة قادرة على تحدى الاسلاميين .
- ان الاقباط كانت لهم مشروعات دولة فى مصر ويؤكد ذلك وثائقهم التى تسربت.
والحق أن السبب هو مزيج من العاملين ـ أما نسبة الاحداث للحكومة فهـى سخافات لا تستحق المناقشـة .

مشتركة لمواجهة محاولات مشابهة ـ وشهد عام ١٩٨١ أيضا محاكمة أول تنظيم جهادى ينشأ وسط المسلمين الفلسطينيين فى الجزء المحتل منذ ١٩٤٨ .

* * *

لقد تعددت تحليلات العلمانيين حول عملية المنصة ، ولكن يمكننا عموما أن نصنفها الى :

(١) تحليلات ساذجة لبعض الهواة من الكتاب (مثل قول أحد الصحفيين المنافقين الذين طالموا تزلفوا للسادات فى حياته : ان السادات كان فى حالة هستيرية عشية قرارات سبتمبر وفى هذه الحالة اتخذ القرارات التى هى سبب مقتله) ـ وطبعا هذا الهراء لا يستحق المناقشة .

(٢) تحليلات العلمانيين المجرمين الذين ـ بعد أن أفلت الزمام عن سيطرة حساباتهم وحسابات النظام يحاولون احتواء الاثر السياسى الهائل لعملية المنصة (مثلا التحليل الوارد فى كتاب خريف الغضب)[1] ـ حيث يفسرون ما حدث بأنه لاسباب اقتصادية (ولا مانع من أن يذكروا القضية الفلسطينية ولكن على استحياء) ـ كما أنهم يحاولون جاهدين أن يثبتوا أن الاتجاه الاسلامى هو رد فعل لهزيمتهم المخزية سنة٦٧!! ـ كما يحاولون سحب الوعى الذى تراكم بحتمية الحل الاسلامى وأن القوة هى الاسلوب الوحيد للتغيير ـ فيربط هيكل مثلا بين الانتفاضة الشعبية سنة ١٩٧٧ وبين زيارة السادات للقدس وكأنه يريد القول لا داعى للنضال لان هذه هى نتيجته .

(٣) هناك تحليلات محترمة صدرت عن علمانيين [2] ، لكنها ـ بحكم علمانيتها ـ لم تتضمن شيئا عن القدر ـ ان عملية المنصة يجب ألا تربط بأشخاص من نفذوها ـ وهو ما أدى بالعلمانيين الى الاستغراب من الكم الكبير من الصدف (على حد قولهم) التى ساعدت على نجاح العملية ـ ان عملية

---

(١) راجع : محمد مورو : مفتريات هيكل فى خريف الغضب ـ دار الفتى المسلم ١٩٨٥ .

(٢) راجع : رفعت سيد أحمد : لماذا قتلوا السادات ـ التونى للطباعة والنشر ١٩٨٦ .

المنصة باختصار تجد تفسيرها من خلال فهمنا لسنن الله - ان الطاغيـة عند ما يتجاوز حدودا معينة (الصلح مع اليهود) فان مصيره الحتمـى سيكون مصير السادات - سواء أكان ذلك على يد خالد الاسلامبولـى أم غيره -وسواء تم ذلك فى المنصة أم فى أى مكان آخر على وجه الارض .

* * *

٤ـ العلمانية تلفظ أنفاسها الأخيرة
(بعد ١٩٨١)

العلمانية تلفظ أنفاسها الاخيرة (بعد ١٩٨١)

لقد كانت عملية المنصة واتساع نطاق العنف بعدها أكبر عمليات العنف المسلح ضد السلطة فى الحقبة العلمانية كلها [1] - وبسبب هذه الاعمال انتقلت مصر من وضع غير مستقر الى درجة أعلى من عدم الاستقرار (قضايا محاولات اسقاط الحكم فى السنتين الاوليين من عهد مبارك اكثر عددا من كل القضايا فى الثلاثين عاما التى سبقتها) - وحسبما صرح أبو باشا فان أحداث العنف سنة ١٩٨١ وما تلاها كلفت مصر ١٥ مليار جنيه - ورغم أنه يكذب (فقد ذكر هذا التصريح وقت الدعاية الانتخابية لنفسه) فلا شك أن هذه الاحداث قد كلفت مصر بضعة مليارات من الجنيهات (انقطاع السياحة لمدة عام - انقطاع التحويلات واضطرابات اقتصادية أخرى - استنزاف أموال ضخمة فى الاجراءات القمعية) - وقد وصف أبو باشا أعمال تنظيم الجهاد بأنها " أكبر تحد للسلطة فى مصر منذ ٤٠٠٠ سنة " ووصفها الكسندر هيج بأن مصر تغيرت " بمقدار ١٨٠ درجة " .

ان دولة تعانى من زيادة معدلات عدم الاستقرار لن تستطيع المضى قدما فى وضع خطط طويلة الامد - وستصبح سياساتها عرضة للمفاجآت وستكون أقرب الى رد الفعل منها الى الفعل وستؤدى هذه النتائج تلقائيا الى مزيد من زعزعة الاستقرار .

ان العوامل التى تحكم فترة مبارك لم تتغير عن تلك السائدة فى فترة السادات - ولكن تضاءل وزن بعضها وزاد وزن بعضها الاخر - فقد تضاءل أثر عامل الشخصية لان مبارك ليس شخصية معقدة (بعكس عبد الناصر والسادات) كما أنه أتى الى الحكم من خارج الاطر التى تحددها أمريكا

---

(١) باستثناء انتفاضة ٢٥ - ٢٨ فبراير التى جاءت بعد وضع الكتاب - ولن نستطيع التعليق عليها هنا لانه سيترتب عليها - باذن الله - تداعيات خطيرة جدا فى صلب النظام . وربما ستكون فاصلا لمرحلة فيها مزيد من الانفتاح السياسى ولكن لم تتضح معالمها بعد .

(ومازالت أمريكا حتى هذه اللحظة تحاول ضبطه على زوايا معينة تحقق مصالحها) - ونظرا لانه غير معقد ونظرا لانه لم يحقق أى انجاز حتى الان - فان مبارك لم يلجأ الى الديماجوجية مثلما لجأ اليها عبد الناصر والسادات وبالتالى لم يعد لعامل الشخصية دورا فى الالتفاف حول وعى الجماهير . كذلك تضاءل وزن التيار النصرانى السياسى (١) الذى أعاد تقييم الموقف بفعل عدة عوامل :

---

(١) عن تطور النشاط القبطى السياسى فى الحقبة العلمانية راجع على وجه الخصوص :

- طارق البشرى : المسلمون والاقباط فى اطار الجماعة الوطنية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨١ . (وفيه يحاول الكاتب جاهدا أن يثبت أنه يوجد شيء يسمى جماعة مصرية)
- محمد مورو : Roots of Coptic Agitation in Egypt
نشرت بمجلة مسلم ميديا (١٩٨٥) ورقمها المرجعى Ref. M.M :602.
- د . ميلاد حنا (قبطى شيوعى) نعم أقباط لكن مصريون (مدبولى ١٩٨٠)

كان الاقباط قبل الحقبة العلمانية راضين بالانضواء تحت النظم الاسلامية التى حكمت مصر (رغم أن بعضها قد اضطهدهم بلا مبرر) - ولم يتخذوا مواقف خيانية غداة الحروب الصليبية كما فعل نصارى الشام - وفى الحقبة العلمانية انشق بعض الاقباط عن بنى جلدتهم وأصبحوا عملاء للمستعمر (بطرس غالى مثلا) ولكنهم لم يكونوا يختلفون فى ذلك عن زملائهم من أصل اسلامى - وعبثا حاولت هذه الفئة العميلة أن تقود الاقباط - وفى احدى المراحل انشئوا المجلس الملى سنة ١٨٧٣ الذى جرد الاكليروس من كثير من سلطاته - لكن رجال الاكليروس أقاموا العراقيل أمام المجلس .

لكن الكنيسة القبطية ألقت بكل ثقلها لاجل اقامة نظام علمانى يكرس الوطنية على حساب الدين - واخترق الاقباط الوفد وهكذا ظهرت زعامات قبطية سياسية (أى ليست من رجال الكنيسة) وبرز منهم بالذات مكرم عبيد الذى بلغ من تشجيعه للفكرة الوطنية أن وصف نفسه بأنه (مسيحى دينا مسلم وطنا) =

(١) اذا كانت اسرائيل ميزة تضاف الى قوة النصارى فان الاسلاميين قد أجبروهم على اعادة حساباتهم

= لكن بسبب صعود المد الشعبي المعادى للعلمانية فى الثلاثينيات فقد حدث رد فعل لدى الاقباط وازدهرت حركة مدارس الاحد وفيها تربى أول جيل تعلم تعليما حديثا (غربيا) واستطاع هؤلاء (ومنهم شنودة) أن يشكلوا مدركات قبطية جديدة للعالم من حولهم واعتبروا أنفسهم جزءا من الحضارة الغربية (وان لم يصبحوا عملاء بطريقة مباشرة) - وبمقتضى الخبرة المستمدة من تجربة المجلس الملى - فقد سعوا لاختراق الاكليروس بأنفسهم (حيث لا يمكن السيطرة عليه من خارجه) - فتسللوا الى الاديرة ليصبحوا رجال دين (وهكذا حققوا أيضا ثقافة دينية) - ورغم أن كيرلس السادس لم يكن منهم فقد تعاطف مع أفكارهم واعطاهم المناصب بل واستحدث اسقفيات جديدة لكى ينصبهم فيها .

كان عبد الناصر قد أطاح بالزعامات القبطية السياسية (الوفدية) وأصبح يمثل الاقباط فى الحكومة وزراء فاسدون (تكنوقراط وليسوا سياسيين) شأنهم فى ذلك شأن الوزراء من أصل اسلامى - ولذلك اتخذ التحرك القطبى فى عهد عبد الناصر شكلين :

أ - اللجوء الى الكنيسة ومن تم بدأ تبلور زعامات (سياسية / دينية) من الفئة التى تغربت (سيظهر أثرها فى عهد السادات)

ب - الاسهام فى التنظيمات الشيوعية " لما توقعوه من أن المبادىء الشيوعية سوف تقضى على ما تبقى من فوارق بسبب الدين " (ميلاد حنا ص ٩٤) وكان الاقباط يشكلون اكثر من ٣٠٪ من الشيوعيين المعتقلين بين عامى ١٩٥٩ ، ١٩٦٤ (ميلاد حنا ص ٩٣) وبعد اندماج هذه التنظيمات فى الاتحاد الاشتراكى فقد شارك الاقباط بدور خطير فى توجيه الفكر والفن .

ولكن عندما فشلت العلمانية مرة ثانية (نكبة ١٩٦٧) فقد ركز الاقباط كل جهودهم داخل الكنيسة وبدأت حملات ما سمى بالتربية الكنسية (امتداد =

(وفى هذا الاطار فجر الاقباط أحداث الزاوية الحمراء كبالونة اختبار وكان رد الفعل الاسلامى حازما جدا)

= لمدارس الاحد) وانتعشت جماعات دينية بالجامعة " وكانت كل الجهود تصب فى اجتماع ضخم يقيمه شنودة مساء كل جمعة منذ افتتاح الكاتدرائية الكبرى بالعباسية سنة ١٩٦٨" (ميلاد حنا ص ٩٤) ويرى ميلاد حنا أن من أسباب انحسار العلمانية فى مصر أن أحد دعاماتها (الاقباط) عادوا للدين .

استطاعت الفئة القبطية المتغربة أن تصعد أنشط اعضائها (شنودة) الى منصب البابا بعد وفاة كيرلس (١٩٧١) وبدلا من أن يدع مالقيصر لقيصر فانه افتعل فتنة الخانكة بعد ستة شهور من توليه وبدأ حملة واسعة فى الكنائس من أجل تثقيف الاقباط واقناعهم بمشروعه :

لقد اعتقد شنودة أن وجود اسرائيل هو فرصة تاريخية قد لا تتكرر الا بعد ألف سنة وأنه مع الصلح والتطبيع فسيتعرض النظام السياسى والاجتماعى المصرى لمزيد من الانتكاسات وأن هدف اسرائيل فى مرحلة ما بعد السلام سيكون تفتيت المنطقة الى دويلات - فاعتقد أن مجموع تلك العوامل كفيل باعطاء قوة دفع لمشروعه الخيالى لاقامة دولة قبطية !!!

وبدأ شنودة يصعد حملته وكانت تحدث أزمات بمعدل مرة كل عام تقريبا - ولكن فى يناير ١٩٧٧ قام شنودة بخطوة غير عادية (المؤتمر القبطى) وطالب الدولة باذاعة وجامعة ومزيد من التمثيل القبطى فى هيكل النظام وحذر من تطبيق الشريعة !!! (ورد عبد الحليم محمود بمؤتمر اسلامى فى يوليو ١٩٧٧ قال فيه ان أى قانون مخالف للشريعة هو عديم الشرعية) وعندما اعلنت الحكومة فى اغسطس ١٩٧٧ نيتها تطبيق حد الردة أعلن شنودة الصيام لعدة أيام فى جميع أنحاء مصر وتحركت التجمعات القبطية فى أمريكا واستراليا للضغط على الحكومة - وزار شنودة أمريكا ٤٠ يوما وقابل كارتر وطلب منه الضغط على السادات.

وحسبما ذكره ابراهيم فرج (قبطى - سكرتير الوفد) (ذكرياتى السياسية =

= مكتبة الحياة ١٩٨٣ ص ١٧٦) فان تقارير المسئولين فى المحافظات عن انضمام الاقباط للوفد " أزعجت ممدوح سالم " وعند ما قيل لشنودة ان الحكومة غير راضية عن هذه الظاهرة قال " أنا ليس لى دعوة - أنا لا أدعو أحدا للانضمام الى حزب أو الخروج منه " وهى بالطبع موافقة ضمنية .

وازاء قيام الاقباط بتكديس الاسلحة والتدريب عليها فى الاديرة فقد قامت الجماعات الاسلامية بالرد عليهم لكى يعرفوا حجمهم - وفى ٧٨ - ٧٩ أصبحت الازمات تحدث كل بضعة شهور وفى مارس ١٩٨٠ القى شنودة خطابا عارض فيه تطبيق الشريعة وأبدى مخاوفه من أن " الدين يوشك أن يحل محل الوطنية " وفى نفس الوقت أصدر ما يسمى بالمجمع المقدس (أعلى سلطة كهنوتية) قرارا " بالغاء الاحتفالات الرسمية بعيد القيامة المجيد هذا العام والاكتفاء بالصلاة فى الكنائس مع عدم تقبل التهانى بالعيد وذلك تعبيرا عن الآلام التى يعانيها الاقباط " وقرر أعضاء المجمع الاعتكاف فى الاديرة خلال عيدهم - ثم توترت العلاقات بينهم وبين النظام حتى عملية المنصة .

كان السادات قد تجمعت لديه أدلة كثيرة عن الاتصالات الخارجية للكنيسة وعن تشكيل فرقة من ٣٠٠ قبطى تحارب مع الموارنة لكى تكتسب المران اللازم على الحرب - وبعد مصرع صموئيل فى المنصة وجد فى حسابه فى أحد بنوك سويسرا ١١ مليون جنيه استرلينى أوصى بأنها كلها للكنيسة - واذ أصر شنودة على توسيع اتصالاته مع الاجانب وعلى التصعيد فى الداخل فقد عزله السادات أثناء حملته فى سبتمبر ١٩٨١ - وبينما برأ القضاء كل الذين اعتقلوا وعددهم ١٥٣٦ فان الوحيد الذى أدين كان شنودة وجاء فى حيثيات الادانة : (١٩٨٢/١/٣) " خيب الامال وتنكب الطريق المستقيم الذى تمليه عليه قوانين البلاد واتخذ من الدين ستارا يخفى أطماعا سياسية ، كل اقباط مصر براء منها واذ به يجاهر بتلك الاطماع واضعا بديلا لها على حد تعبيره - بحرا من الدماء تغرق فيه البلاد من أقصاها الى أقصاها - باذلا قصارى جهده فى دفع عجلة الفتنة بأقصى سرعة وعلى غير هدى فى كل أرجاء البلاد غير عابئ بوطن يأويه ودولة تحميه . . . وبذلك يكون قد خرج عن ردائه الذى خلعه عليه اقباط مصر . . الخ "

(٢) تجمدت عمليات التطبيع ولم يحدث الاختراق اليهودى لمصر كما تصور شنودة .

(٣) كانت احداث لبنان أبلغ درس لشنودة ـ فقد فشل النصارى رغم أن عددهم يقارب نصف عدد السكان صحيح أن الجغرافيا السياسية لمصر تختلف عنها للبنان بالطبع ـ اذ أن سوريا عامل هام لحفظ التوازن الطائفى فى لبنان وهو ما لا يتوفر لمصر ـ لكن مجموع دول المنطقة سيعوض لمصر دور سوريا فى لبنان ـ فلن تتقبل أية دولة حدوث سابقة خطيرة كهذه فى أى مكان فى المنطقة لان ذلك سينعكس على المنطقة كلها لانه لا توجد دولة عربية لا تعانى من مشاكل أقليات .

(٤) ومهما أوتى الاقباط من قوة ومن دعم خارجى فانهم فى النهاية يسعون لاهداف دنيوية ومن الصعب عليهم أن يصمدوا طويلا اذا احتاج الهدف وقتا لتحقيقه .

وقد بدت علامات (الاعتدال) القبطى واضحة بعد تولى مبارك ـ وأعطى شنودة تصريحات قال فيها انه يصلى للرب أن يوفق مبارك الى توجيه السفينة بالكيفية التى تجرى بها الان ـ وعندما كان شنودة منفيا فقد أعرب عن عدم سخطه على هذا الوضع (رغم أن هذا يمس صميم العقيدة عندهم حيث ان البابا عندهم هو خليفة المسيح) ـ وفى انتخابات ١٩٨٤ أعطى الاقباط أصواتهم للحزب الوطنى بأوامر مباشرة من الكنيسة ـ وكان الهدف من كل ذلك هو (دعم الاستقرار) .

ومع تضاؤل عاملى الشخصية والنصرانية السياسية فقد ازداد وزن عاملين : الاسلام والقضية الفلسطينية ـ كما أن الارتباط بين هذين العاملين أصبح الان اكثر من أى وقت مضى .

فى البداية كان الاسلاميون هم العقبة أمام الصلح مع اليهود ، أما فى الثمانينات ـ وبسبب الخبرة المكتسبة من الثورة فى ايران ـ فقد اعتبرت الانظمة العربية أن الخطر على استمرار وجودها يأتى من الداخل لا من استمرار القضية الفلسطينية بدون حل ـ وأصبح السعى للتهادن مع اسرائيل هو مجرد خطوة للتفرغ لمحاربة الاسلام ـ وبمعنى آخر فقد كان (الاستسلام) فى

السبعينيات هو المتغير الاصيل وموقف الحكومات من (الاسلام) هو المتغير التابع ، وتحول الامر الى النقيض فى الثمانينات ـ وصرح ملك المغرب (على بعد ٦٠٠٠ كم من الخليج) بأن ايران أخطر من اسرائيل ـ وكتب صحفى مصرى عميل حقير بأن ايران أخطر على المنطقة من خطر الحروب الصليبية .

ان خطورة (الاسلام) نابعة من كون الاسلاميين عاملا لا يمكن ضبطه أو توجيهه وأنه لا يرتبط بأى قنوات مع أى من الاطر الموجودة وأنه لا يحرص على شئ وبالتالى فان هامش المناورة أمامه واسع .

هناك عامل آخر (لا شك أنهم يحسبون آثاره من الان) وهو سلسلة التصدعات التى ستصيب المنطقة عند ما تسقط العراق باذن الله ـ ان سقوط العراق لا يعنى الاخلال بالتوازن الجيوبوليتيكى فقط ـ بل انه سيكون أخطر ضربة للعلمانية وللمزايدين على الوحدة العربية كما أنه سيطيح بكل المشعوذين والمرتزقة الذين طالما ضللوا الناس ورددوا أنه لا غالب ولا مغلوب وأن الحرب فى غير صالح المسلمين (كذا) ـ أيضا سيكون سقوط العراق هو عامل التحول الحاسم بالنسبة للاتجاهات الاسلامية المترددة ـ كما أنه سيرسى مفاهيم ستكون جديدة على كثير من الناس (مثل شرعية الفتوح الاسلامية ـ حق الدولة الاسلامية فى التدخل فى شئون الدول المجاورة حتى يتم تحريرها) .

لكن أهم أثر لسقوط العراق سيكون تفجير الصراع مع اسرائيل وبالتالى اندماج عاملى (الاسلام) و (القضية الفلسطينية) .

* * *

كانت الفترة من اكتوبر ١٩٨١ الى مايو ١٩٨٤ فترة انتقالية انتظارا لما ستسفر عنه انتخابات مجلس الشعب ـ وقد عمل مبارك فيها على :

(١) التأكيد دائما على الفصل بين ما سماه " المعارضة السياسية والمعارضة الدينية " ـ وقام مبارك باخراج المعارضين السياسيين من السجون الى قصر العروبة مباشرة بعد أقل من شهرين من عملية المنصة وكان يهدف من ذلك الى

أ - " محاصرة الجماعات الاسلامية والحد من فعاليتها السياسية "(١) - حيث ان الضجيج الذى ستثيره المعارضة سيعطى الانطباع بأن لها حجما وسيوسع من قاعدة المشاركة السياسية - ووصل الامر الى التفاهم التام بين السلطة والمعارضة على ضرورة ما سموه مواجهة الارهاب (كانت أسماء بعض قيادات المعارضة مرشحة للاغتيال حسب الوثائق التى ضبطت فى قضية تنظيم الجهاد)

ب - ان تقوم المعارضة بحملة ضد المفسدين الذين ارتبطوا بعهد السادات (مثل عصمت السادات)(٢) لكى تعطى مبررا لمبارك لمحاكمتهم (فى اجراءات شكلية استهدف بها النظام تلميع وجهه) .

جـ - تقديم بديل للنموذج الايرانى المثير للاعجاب - ليس البديل على مستوى مصر فحسب - فلقد أثبتت الخبرة ان (النماذج) كانت تصنع فى مصر أولا ثم تصدر الى المنطقة .

(٢) اتخذت بعد ذلك اجراءات نحو مزيد من المعارضة العلمانية حيث سمح للوفد بعقد اجتماعات حزبية(٣) قبل أن يصدر القضاء قراره بعودة الحزب واتخذت اجراءات لاعطاء مزيد من الحرية للقضاء للتنفيس عن الكبت وأعيد بعض كبار القضاة الذين كان السادات قد أبعدهم .

(٣) ونظرا لان كل الاتجاهات العلمانية لا تمثل الا أنفسها تقريبا - فقد بدأ النظام يفتح (صمامات الامان) وأفسح المجال - ولكن بحذر - (للمعتدلين) من الاسلاميين (مجلات الاعتصام - المختار) كما سمح لبعض الاقلام المحسوبة على العمل الاسلامى بترويج بضاعتها المزجاة فى صحف الحكومة - وهى أساليب ليست بجديدة .

فى تلك الفترة أيضا تعددت التحليلات حول السياسة التى يجب أن يتبعها مبارك وكثرت المطالبات " بالتغيير" - ولقد أملت بعض الاتجاهات اليسارية أن تخرج (بنصيب معقول) وفى سبيل ذلك تطوعوا بمحاربة الاسلام

---

(١) محمد سيد أحمد مستقبل النظام الحزبى فى مصر ـ المستقبل العربى ٨٠٤ ص ٢٣

(٢) حدث خلاف فى تقدير ثروته - فبينما قدرتها النيابة بمبلغ ١٢٥ مليون جنيه - فان المحكمة قالت انها تبلغ ٨٧ مليون فقط .

(٣) جاء ذلك بعد الحوار بين فؤاد سراج الدين ووزير الداخلية (أغسطس ١٩٨٣) والذى افتضح بعد ذلك - حيث وصف سراج الدين حزب الوفد بأنه "ناضج سياسيا" وأنه لا يعترض على استمرار قانون الطوارىء .

وقاموا بالتهويل من (خطورة الارهاب) فى محاولة لاستفزاز النظام ضد الاسلاميين ـ وفى نفس الوقت عرضوا أنفسهم وبلا مواربة" كصمام أمان ضد المجهول" (١) .

* * *

وجاءت انتخابات ١٩٨٤ التى اشتركت فيها خمسة أحزاب تلقت ٦ صفعات ـ صفعة تلقاها كل حزب ـ وصفعة أخرى تلقتها الاحزاب جميعا .

(١) فقد بلغت نسبة المشاركة حسب الارقام الرسمية ٤٣٪ من المقيدين (و ٢٠ ٪ ممن لهم حق الانتخاب) وهى أقل النسب فى تاريخ الانتخابات فى مصر وهى تعنى عدم اقتناع الجماهير بمجمل النظام حكومة ومعارضة (٢) ـ ورغم الضجيج الاعلامى الذى صحب الانتخابات ورغم نداءات مبارك بالاشتراك وتسميته للانتخابات بالفريضة القومية والتهديد بتوقيع الغرامات على المتخلفين ـ رغم كل ذلك لم تزد نسبة المشاركة على ٤٣ ٪ ـ وحسب البيانات الحكومية فان نسبة المشاركة فى القاهرة ٢٣٫٥٪ (وصلت الى ٢٪ فقط فى حى مصر الجديدة) ـ وهو مؤشر خطير جدا (٣) ـ واذا كانت نسبة المشاركة ترتفع الى ٦٠٪ فى الريف فهذا دليل على تحكم العصبيات ـ ومن المثير للسخرية أن نسبة مشاركة النساء فى الريف أكبر منها فى المدن ـ ومن مبادئ السياسة أنه كلما ارتفع المستوى الثقافى كلما زادت نسبة المشاركة ـ ولكن فى مصر كلما ارتفع المستوى الثقافى كلما اكتشف الناس حجم الزيف الذى يعيشون فيه ومن ثم يرفضون الالتفاف حول وعيهم ـ ان هذه هى الصفعة التى تلقتها الاحزاب جميعا .

---

(١) هذه هى خلاصة كتاب مستقبل النظام الحزبى فى مصر للشيوعى محمد سيد أحمد الذى افتى فيه بأن الوفد لا يصلح صمام أمان ضد المجهول لانه لا يختلف كثيرا عن النظام القائم .

(٢) فى الحقيقة ـ لقد عرفت أحزاب المعارضة حجمها منذ البداية ورفضت دخول الانتخابات لولا عودة الوفد لممارسة دوره التخريبى التاريخى ـ واستطاعته فى النهاية جر الاحزاب للانتخابات .

(٣) رغم ضراوة انتخابات محرم بك قبل ٤ شهور من انتخابات مايو ١٩٨٤ فلم يتجاوز عدد المشتركين فى التصويت ١٠٪ من المقيدين .

(٢) وبالنسبة للحزب الوطنى فقد حصل على تأييد ٩٠٪ فى الريف مقابل ٥٠٪ من الذين صوتوا فى المدن مما يدل على نوعية القوى التى تحكم البلاد[1]

(٣) أما الوفد - فرغم كل ما أمله لم يحصل الا على ١٥٪ - ذلك أنه - مثل القوى التى يعمل لا رضائها - لم يفهم حركة البعث الاسلامى الحالية - وظن أن التحالف مع بعض المحسوبين على الاسلام سيعطيه قوة (حتى لو ضحى بالاقباط وببعض غلاة العلمانيين كفرج فودة) - ولكن الذى حدث أن الاسلاميين الاصوليين بالاسكندرية قد شنوا حملة ضد الانتخابات - وكانت هذه فرصة فريدة ليعرف الجميع الحجم الحقيقى للاتجاه الاسلامى الاصلاحى .

(٤) ورغم أن حزب التجمع بلغ به النفاق أن دعا لتطبيق الشريعة !! فلم يحصل الا على ٤٪ (لا شك أنها تتضمن بعض أصوات كانت ستعطى لحزب ناصرى لو كان موجودا) - وهذا يدل على أن الشعب المصرى يرفض العودة الى حكم الكبت والاذلال - كما يرفض أى حزب عقائدى .

(٥) وبقدر ما اقترب حزب العمل من الاسلام - وتخلى عن سياسته القديمة فى العمل لحساب النظام - فقد أصبح الحزب المعارض الوحيد الذى له مرشحون فى جميع الدوائر - ومع ذلك لم يحصل الا على ٧٪ وفشل رئيس الحزب فى الدائرة التى طالما احتكرها حتى من قبل انقلاب ١٩٥٢

(٦) أما حزب الاحرار - الوحيد الذى أدان اغتيال السادات - فقد حصل على ٠٫٦٪

(٧) وتخلف حزب الامة لانه كان حديث النشأة ولانه لم يوجد من الاسلاميين من يقبل بتلفيقات الحزب عن الامة العربية والوطنية المصرية - ولذلك أصبحت كل كوادر الحزب - وهى قليلة عموما - من الناصريين .

---

(١) قال مبارك بعد الانتخابات (الاصوات الانتخابية لا تزال عصبيات) - عن ظاهرة زيادة نسبة التصويت السياسى فى الريف عنه فى الحضر - راجع الجداول الملحقة برسالة الدكتوراه للباحث : السيد عبد الطلب غانم المشاركة السياسية فى مصر - جامعة القاهرة ١٩٨٥ .

وإذا كانت السنوات الاولى من حكم مبارك قد شهدت ممارسات معينة كرد فعل على تعاظم الاتجاه الاسلامى - فان الانتخابات لم تأت بجديد سوى الاعلان الرسمى عن فشل المعارضة فى استقطاب الناس للعملية السياسية .

ولقد كانت للمعركة الانتخابية دلالات هامة :

(١) أن توسل الاحزاب بتطبيق الشريعة لم يخدع الجماهير - وللاسف فان الجماهير قد تجاوزت فى وعيها كثيرا من الاسلاميين .

(٢) لطالما اتهم اليسار الاسلاميين بأن النظام أفسح لهم المجال للقضاء على اليسار فى عهد السادات ورغم أن هذا اعتراف منهم بضعفهم وامكانية القضاء عليهم - فانهم عندما أفسح لهم بغير حدود لم يحققوا شيئا - بل ان حالهم زمن السادات كان أفضل منه الان .

لقد أخطأ الاسلاميون فى أوائل السبعينيات عندما تصوروا أن اليسار يمثل قوة أو أنه يستحق الدخول معه فى معركة - لقد كان يجب تحويل المجهود الرئيسى للاسلاميين الى ساحة معركة أخرى .

ونظرا لان اليسار لم يعد يأمل فى تحقيق أى شعبية - فيبدو أنه غير استرأتيجيته بحيث تخدم صراعه من أجل البقاء - فركزت دعاياتهم على حرية الفكر (لكى يبرروا حرية الالحاد) وفتحوا أبوابهم لعلمانى قح افتخر بمقابلة سفير اسرائيل عدة مرات (فرج فودة) - بل وبلغت العمالة باليسار الى الدفاع عن الاحتلال الروسى لافغانستان بحجة أنه جاء بناء على طلب حكومة شرعية (وبهذا يبررون تدخل أمريكا عندنا لو طلبت ذلك حكومة بنفس مقدار شرعية كارمل) - وفى محاولة من اليسار لارهاب الجماهير لكيلا تنتفض غداة مقتل سليمان خاطر صدرت الاهالى (عدد ٨٦/١/٨) بعنوان : " وزير الداخلية يعلن عن توجيه ضربة بوليسية للمعارضة " وتحت هذا العنوان " سليمان خاطر مات فى السجن " .

(٣) ان الوفد قد عاد من جديد لاداء دوره التخريبى القديم - ان هذا الدور لا يتضمن فقط امعان الوفد فى اظهار الولاء

للغرب[1] (لكى يدرجوه فى القوائم عندهم كبديل أول) ـ بل لقد خدم الوفد النظام عندما جر كل القوى السياسية فى معركة انتخابية حدد النظام طبيعتها ونتيجتها المسبقة [2] ـ وأدت تلك المعركة الى تنفيس الضغط السياسى الهائل منذ ١٩٧٧ ـ بل ان الامر وصل بالوفد الى التفكير فى احتواء الاسلاميين [3] (حيث لا يقف الوفد ضد الاسلام بهمجية عبد الناصر ولا بغباوة السادات ـ بل يحطم الاسلام لدى الجماهير بأساليب أشد اجراما ومكرا) .

(٤) ان جو الحرية الذى تمت فيه الانتخابات لمما يدل على مبلغ أزمة النظام ـ فمن المعروف أن ديمقراطيات العالم الثالث يتم استحضارها لتجاوز ما يهدد التبعية أو لتحقيق توازنات داخلية معينة ـ وبمجرد انتهاء الديمقراطية من تأدية دورها أو فشلها فى دورها يتم استبعادها (دستور تركيا الجديد مثلا) .

---

١) انظر على سبيل المثال مقالا لاحد العملاء " ماذا يعنى سقوط البصرة" (الوفد ٢٠/٢/٨٦) حيث اعتبر أن قيام ايران بتحرير العراق هو" طعنة فى القلب نفسه " أما اسرائيل فهى " شوكة صغيرة " !!!!
واعتبر أن قيام ايران بتحرير جزيرة العرب سيكون " مصيبة ليس مثلها مصيبة أخرى ولا حتى الحرب الصليبية وسوف تكون نكبة بعدها الطوفان الذى قد يقتلع العرب ويستأصلهم من بين الامم "

٢) بمقتضى التقسيم الجديد للدوائر الانتخابية فقد اغرقت التجمعات الحضرية الهامة فى مناطق ريفية لكى تلعب العصبيات دورها ـ أما المجالس المحلية فانتخاباتها بالقائمة المطلقة وبذلك تفقد الاحزاب امكانية الاسهام فى توزيع السلع والخدمات .

٣) رشح ١٦ من المحسوبين على الاسلام ضمن قوائم الوفد ـ دخل منهم عشرة مجلس الشعب حيث أقسموا بالله العظيم على احترام الدستور والنظام الجمهورى .

(٥) أثبتت الخبرة المصرية أنه كلما واجه النظام فشلا خارجيا ـ قدم تنازلات داخلية :
فبعد فشل وحدة مصر وسوريا قام عبد الناصر بتحقيق مزيد من العدالة التوزيعية .
وبعد نكبة ١٩٦٧ صدر بيان ٣٠ مارس .
وبسبب استخذاء السادات أمام الغرب انشئت الاحزاب .
وقد أدركت مافيا المال ذلك الضعف الداخلى ـ فعملت على استغلاله لتدعيم مكاسبها ـ فقاموا باطلاق الشائعات عن نية النظام الرجوع عن سياسة الانفتاح لكى يصدر نفى سريع وتوضع الحكومة دائما فى موقف دفاع.

(٦) ان البرامج الانتخابية للاحزاب أظهرت أنها لا تختلف عن الحكومة كثيرا ـ فبالنسبة للقضية الفلسطينية يقر الجميع بمبدأ التفاوض بل ان حزب التجمع لا يطالب بالغاء كامب ديفيد بحجة أنها ستعيد اسرائيل الى سيناء ولذلك فهو يطالب " باسقاط نهج كامب ديفيد بخطوات متصاعدة تؤكد التخلى عن أباطيل التطابق الاستراتيجى مع أمريكا "
وبالنسبة للقضايا الاجتماعية فقد بدأ الناس يدركون زيف الانطباع الذى ساد فترة بأن اليسار يدعو للعدالة ـ ان كل قيادات التجمع هم من المليونيرات[1] ـ وقد أصبحوا يقبلون بالانفتاح بحجة أنه لا يمكن تغيير التركيبة الحالية ـ وقد اثبتت احدى الدراسات أن " معظم الاحزاب تتجه الى تضييق نطاق الاختلاف بينها وبين البرنامج الذى تطرحه الحكومة لكى يمكن لها أن تستمر وتصبح قضية الحريات هى الشاغل الاول للاحزاب" (٢)

والخلاصة أنه لا يوجد من الاحزاب من عنده الجرأة ـ ولو من باب المزايدة السياسية ـ لان يطالب بتحرير فلسطين أو بشن الحرب على أمريكا كما لا يوجد من يدعو الى حل اقتصادى جذرى يشمل شن حملة من المصادرات والتأميمات ضد مافيا المال لصالح جماهير الفقراء.

---

١) هناك فكاهة شهيرة تقول ان من ليس مليونيرا فهو بالضرورة غير شيوعى .
٢) أمانى قنديل : صنع السياسات العامة فى مصر (١٩٧٤ - ١٩٨١) دكتوراه فى السياسة من جامعة القاهرة ١٩٨٥ .

ان المرحلة القادمة تتطلب من النظام :

(١) الاتجاه نحو تمثيل الاتجاهات العلمانية التى تدعى أنها غير ممثلة وعلى رأسها الناصريين - ولكن قد تكون أضرار هذه الخطوة على أصحابها أكثر من نفعها - فالناصرية ليست عقيدة وانما هى مجموعة ممارسات - ولما كانت هذه الممارسات قد تمت وسط ظروف دولية واقليمية ومحلية مغايرة للظروف الحالية - فلا ندرى كيف سيتفق الناصريون - ومن الشائع أن نقرأ الاتهامات المتبادلة بين مدعى الناصرية - كل منهم يتهم الاخر بأنه ليس بناصرى - وقد يؤدى انشاء حزب ناصرى الى :

- انشقاق داخل حزب التجمع - بل ان الانشقاق قد بدأ بالفعل وانساب الناصريون ببطء الى داخل الحزب الوطنى وعلى رأسهم يحيى الجمل نائب رئيس حزب التجمع نفسه .

- كما أن ظهور حزب يحمل اسم الناصرية قد يفجر التناقضات العميقة بين الناصريين والتى مازالت كامنة تحت السطح وسيؤدى هذا الى تحطيم اخر رصيد قد يكون بقى للناصرية - والحقيقة أن الناصرية ستكون معرضة لعاملين أضعفا احزاب المعارضة الحالية : أنها احزاب صنعها النظام - انها فضحت بعضها بعضا مما ولد شعورا بالاحباط لدى كثيرين من أعضائها ولدى ما قد يكون لها من جماهير .

(٢) الاتجاه نحو تحقيق مصالحة وطنية - وبعد اعادة شنودة - فقد يسمح لبعض الاسلاميين (المعتدلين) بالتعبير عن أنفسهم بصورة أو باخرى .

(٣) تحسين العلاقات مع العرب ومع دول الكتلة الشرقية فى محاولة للتخفيف من الاثر السيء الذى أحدثه الارتباط بالغرب .

(٤) ولكن لا يعتقد أن النظام يمكن أن يلجأ فى أى وقت الى مسرحية تطبيق الشريعة (١) - بسبب

أ - ان أمريكا غبية جدا فى فهم مسرحية تطبيق الشريعة وقد عارضتها فى السودان .

ب - ان مصر (بخلاف السعودية والسودان وباكستان) دولة ذات تقاليد

---

١) قال مبارك (١٩٨٤) . " ايمانى بالديمقراطية لا يتجزء "

مؤسسية راسخة فى العلمانية ـ ومن الصعب احداث تغيير فيها د ون هزات عنيفة ـ ومن أهم هذه المؤسسات احزاب المعارضة نفسها ـ وهو ما يعرقل تطبيق الشريعة ـ وهذا بالضبط ما حدث فى بنجلاد ش فى العام الماضى اذ وقفت السعودية بكل ثقلها وراء النظام العسكرى على أمل تكرار مأساة باكستان ولكن جهود عشرات الاحزاب المعارضة أحبطت الخطط السعودية .

جـ ـ واذا كانت الاحزاب فى مصر لم تحقق الغرض الاصلى من انشائها وهو اجتذاب قطاعات جماهيرية فانها ـ على أية حال قد أدت الى شلل للمثقفين الذين انتموا الى تلك الاحزاب ـ والمفروض أن المثقفين هم الذين يقودون الجماهير فى ثورتها ـ ولكن الاحزاب تلتزم (بالشرعية) فلا تستطيع بالتالى أن تتفاعل مع الجماهير تفاعلا ثوريا أى أنها فى التحليل الاخير تؤمن النظام ضد أية انتفاضة جماهيرية ـ فاذا تم تطبيق الشريعة يكون النظام قد خسر هؤلاء المثقفين ـ فى نفس الوقت الذى لن يكسب فيه شيئا يذكر من تأييد الاسلاميين .

د ـ وسيثير وضع الاقباط مشكلة أخرى ـ لان الشخصية المصرية التى بدأ تبلورها حوالى سنة ١٨٦٠ سيكون من الصعب مواءمتها مع التطبيق الجديد ـ كما أنه سيكون من الصعب أيضا تغييرها الى شخصية اسلامية لان ذلك يعنى اهتزازات فكرية واجتماعية عنيفة لن يستطيع النظام الهزيل أن يتحملها (بخلاف ظروف باكستان والسعودية التى كانت تسمح بذلك) وربما كانت نهاية نميرى درسا مفيدا .

هـ ـ ان تطبيق الشريعة مهما اتخذ شكلا هزليا وحتى ولو لم يشمل النظامين السياسى والاقتصادى فانه سيؤثر فى النظام الاجتماعى على الاقل وسينبه على حجم الفساد ـ أى أن الشريعة التى يراد تطبيقها لتكون عامل تهدئة ستنقلب الى الضد .

* * *

والخلاصة أن أهم مشكلة يواجهها النظام اليوم هى أزمة الشرعيـــة [1] ـ وهى فى الحقيقة فقدان كامل للشرعية وليست أزمة عابرة ـ فالنظام أشبه بمريض السرطان الذى بدأ العد التنازلى لوفاته ـ ان سبب استحكام الازمة هو فقدان البدائل العلمانية ـ فالازمة أزمة علمانية وليست أزمة نظام ـ ونظرا لان مستوى التناقضات فى البلاد قد بلغ حدا كبيرا ـ فان علاجها لن يكون ممكنا الا من خلال ثورة شاملة .

هناك أيضا أزمة فى الهوية وفى الايديولوجية ـ وتعتبر مصر من الدول النادرة فى العالم التى تفتقد الى عقيدة سياسية ـ ورغم تأكيدات مبارك على ضرورة الانتماء الوطنى ومدحه لنظام يوليو والنظام اللبرالى القديم على السواء ـ فان ذلك لم يلق صدى لدى الشباب ـ حيث أن الاحصائيات تشير الى أن ٦٠٪ من أفراد الشعب المصرى قد ولدوا بعد هزيمة ٦٧ وهكذا فان العمر الافتراضى لجيل يوليو قد انتهى .

ولقد بلغت الازمة التوزيعية حدا صارخا ـ وفى بعض الدراسات الحديثة [2] ظهر أن نسبة الفقراء الحقيقيين (الذين يقل دخلهم السنوى عن ٢٥٠ جنيـــه) فى محافظة القاهرة ٣٠٪ والجيزة ٤٨٪ والشرقية ٤١٪ وسوهاج ٤٨٪ (على سبيل المثال) ـ ولقد كشفت أحداث التخبط الاقتصادى (١٩٨٥) عن وجـــود عصابات لمافيا المال منظمة تنظيما جيدا وبلغ الامر تفاقما أن قـــرر

---

١) الشرعية هى أهم أشكالية لاى نظام سياسى ـ وهى تعنى "القبول العام من الشعب بمؤسسات النظام وأشخاصه باعتبارهم ممثلين له ـ واستعدادهم للطاعة ولتنفيذ السياسة التى يطرحها النظام" وتعبر الجماهير عن عدم قبولهـــا للنظام من خلال :
ـ السلبية (العزوف عن المشاركة فى الانتخابات والتنظيمات السياسية)
ـ الانتفاضة (مظاهرات الطلبة ـ انتفاضات كفر الدوار ـ فوة ـ الزقازيق ـ الأمن المركزى) .
ـ العصيان المسلح وانشاء التنظيمات السرية التى تعتمد العنف المسلح كمنهج وحيد للتغيير (تنظيم الجهاد ـ ثورة مصر) .

٢) بنت هانسن وسمير رضوان : العمل والعدل ـ المستقبل العربى ١٩٨٣ .

رئيس الوزراء بنهاية ١٩٨٥ تشكيل لجنة من الحكومة و١٤ من رجال المافيالتبادل الرأى حول السياسات الاقتصادية - وساعد على تفاقم الازمة التوزيعية توجيه المبالغ الضخمة لاصلاح المرافق التى أهملت منذ عهد عبد الناصر - وفى عهد حسنى مبارك انفق ٣ مليارات جنيه فى مجال الكهرباء (٨٠٠ مليون لمحطة شبرا الخيمة - ٨٠٠ لمحطة أبو سلطان - ٧٠٠ لمحطة أبو قير - تجديد توربينات السد العالى وانشاء محطات جديدة) - وانفق على السكة الحديد مايوازى ما أنفق عليها فى الخمسين عاما الماضية وانفق ٤ مليارات جنيه لشبكة المجارى و٢ مليار للتليفونات .

هناك أيضا أزمة فى التعامل مع العالم الخارجى تتمثل فى استمرار عزل مصر عن العرب رغم كل ماتقدمه لهم لمحاربة الاسلام فى ايران ورغم كل جهودها التى تبذلها فى قضية التسوية - كما تتمثل فى استمرار التبعية لدرجة ان انتاج مصر من القمح لا يسد الا ٢٠٪ من حاجتها وانها تحصل وحدها على أكثر من ثلث صادرات القمح الامريكى ولقد كشفت أحداث الباخرة أخيل لاورو عن تغلغل عملاء وبأعداد كبيرة داخل أشد أجهزة الدولة حساسية .

* * *

واذا كانت أزمات النظام قد استحكمت فان الاسلاميين بدورهم أحد عوامل استمرار الازمة بل أنهم الان العامل الاول لاستمرارها - ذلك أن أزمة الفكر لدى الاسلاميين هى المعرقل الوحيد لتحول الاسلاميين الى قوة سياسية تتناسب مع حجمهم العددى - ومن ثم تبدأ فى التعامل بايجابية مع أزمات النظام بادئة الخطوات الاولى على طريق الثورة .

لقد كان الاسلاميون دائما يهتمون بالعمل دون الفكر - ومن مظاهر ذلك الحيوية الشديدة التى يتمتع بها أى مسلم فى مقابل خواء ذريع فى المكتبة الاسلامية وحتى الان لم يكتب التاريخ الحديث بنظرة اسلامية - ولكن لا يعنى

هذا أن أزمة الفكر ليست قابلة للانفراج .

* * *

ان ماشهده الشرق الاوسط من تحولات مفاجئة وعميقة الاثر فى العشرين سنة الماضية يجعل من المحتمل (بل من الاولى) أن يشهد أكثر مما شهد فى السنوات القادمة .

وهكذا (وبعد درس ايران) انكبت معاهد الابحاث فى الغرب والجامعة الامريكية فى مصر على دراسة التفاصيل الدقيقة للتحولات الاجتماعية فى محاولة لفهم مايدور ثم محاولة الالتفاف حول الثورة القادمة . ان الخوف مما يخبئه الغد هو المشكلة الحقيقية التى يعانى منها النظام المصرى فى منطقة ليس فيها شىء ثابت الا التغير.

* * *

بعض الاستنتاجات

-١-

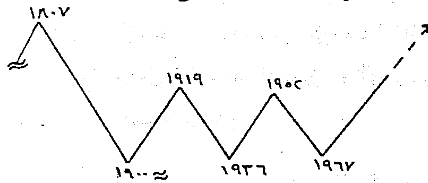
السياق العام للمرحلة موضوع البحث

١ـ خلص البحث الى أن تاريخ مصر فى القرنين الماضيين كان يتأرجح بندوليا بين :

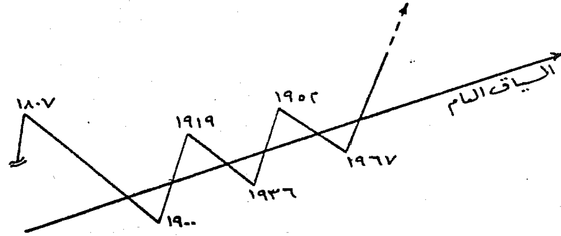
أ ـ مد جماهيرى مقترن بحركة اسلامية تسعى لتغيير المركب السياسى /الاقتصادى / الاجتماعى .

ب ـ مبادرات من القوى المجرمة لاحباط هذه العملية التقدمية قبل أن تصل الى منتهاها وتنفجر الثورة الاسلامية .

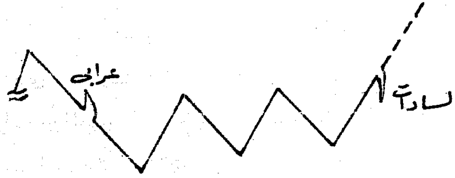
وأمكن تصوير هذه المرحلة بيانيا كالتالى :



٢ـ ان هذا الشكل البيانى يعطى تصورا أوليا لتلك الحقبة ـ ولكن بسبب استنفاد البدائل أمام القوى المجرمة ـ وبسبب تجاوز الحركة الاسلامية لعوامل القصور والعجز فى المراحل السابقة ـ بسبب ذلك وصلت القوى المجرمة الى طريق مسدود ولم يعد هناك مفر من الثورة الاسلامية ـ ولذلك يمكن اعتبار المنحنى السابق متذبذبا حول سياق تقدمى أشمل ـ بحيث تصبح الصورة الجديدة للمنحنى كالاتى :



٣ـ ولما كانت بعض فترات تاريخ مصر قد شهدت انفجارات شعبية دون توفر لعوامل الثورة (مثل انتفاضة عرابى) ـ كما أن بعض فترات المد الشعبى قد شهدت انتكاسات (مثل اكتساب السادات هامشا من الشرعية بسبب حرب أكتوبر) ـ فان الشكل النهائى للمنحنى يجب أن يسمح بتمثيل هذه الاحداث الاستثنائية كالاتى :



وهذا يقودنا الى استنتاج أنه رغم تفاقم الازمات الحالية فانه يمكن الالتفاف حول الثورة الاسلامية القادمة ـ لكن هذا الالتفاف سيكون جزئيا ومؤقتا ـ لعدم وجود عوامل الالتفاف الشامل (أى بسبب فقدان البدائل أو بمعنى أصح بسبب استنفادها) .

٤ـ ولما كانت الحقبة موضوع الدراسة لايمكن فصلها عن السياق الرئيسى للتاريخ الاسلامى ـ فقد صار لزاما أن يعاد تركيب المنحنى السابق على المنحنى الرئيسى للحضارة الاسلامية .

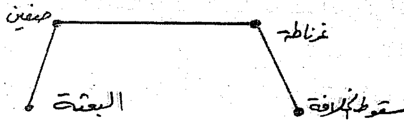
ولعل مالك بن نبى هو أول من قسم وأجلى مراحل التاريخ الاسلامى من منطلق رؤية حضارية للتاريخ تمتزج فيها السياسة بالفكر بالاجتماع

(وليس الرؤية الاحادية) ، وطبقا لمالك بن نبى - وهذا ماننبناه - فان مراحل التاريخ الاسلامى هى :

أ- النموذج الامثل للتطبيق الاسلامى (الخلافه الراشدة) والذى انتهى فى صفين .

ب - مرحلة ايناع حضارى رغم الانحراف عن النموذج الامثل - وذلك لان الابداعات التى فجرها الاسلام لا يمكن أن تتوقف فجأة - مثل السيارة التى لا يمكن (فرملتها) فجأة - انتهت هذه المرحلة بسقوط غرناطة (١٤٩٢) حيث توقف الفكر الاسلامى بعدها عن الابداع .

ج - مرحلة تدهور حضارى جعلت سقوط الخلافة بعد ذلك تحصيل حاصل .



ومن المثير أن نجد أن سياق التاريخ الغربى (الممثل الرئيسى بل الممثل الوحيد للباطل فى العالم) [1] معاكس تماما لسياق التاريخ الاسلامى - بل ان سقوط غرناطة - تم فى نفس سنة كشف أمريكا الذى فتح باب السيادة العالمية للغرب - كما أن المكان الذى بدأ فيه التراجع الاسلامى (الاندلس) كان هو نفسه الذى شهد بداية الابداع الغربى ومنه بدأت الجهود الاولى للكشوف الجغرافية - ذلك أن نصارى الاندلس لم ينغلق تفكيرهم ولم تفرض عليهم الوصاية من قبل الكنيسة كما حدث فى بقية

---

١ - باعتبار أن الحضارات الاخرى (الصين - الهند) تعيش عالة على حضارة الغرب .

أوربا - ولذلك تقبلوا فكرة كروية الارض التى كانت أساس الكشوف الجغرافية - كما أن الصراعات الحربية الطويلة على أرض الاندلس صقلت الاسبان والبرتغاليين وأطلقت طاقاتهم الابداعية .

ان تركيب منحنى الحقبة العلمانية على المنحنى الرئيسى للتاريخ الاسلامى يقتضى أولا استخراج المنحنيات المماثلة فى المراكز الرئيسية للحضارة الاسلامية (ايران - تركيا - الهند - عالم الملايو - عالم المغرب - أفريقيا) ثم استخراج القاسم المشترك بين هذه المنحنيات ومن ثم استخلاص منحنى واحد يمثل تاريخ الاسلام فى هذين القرنين .

وفضلا عن الصعوبة الشديدة والجهد الذى يتطلبه هذا العمل - فان مصر فى رأى الكاتب تعتبر النموذج المعبر عن التاريخ الاسلامى - حتى لو خالفت فى تاريخها معظم المراكز الحضارية الاسلامية الاخرى - ذلك أن بعض هذه المراكز (أفريقيا - عالم الملايو) لم تتمثل الاسلام تماما حتى من قبل أن تقع فريسة للتغريب - وبالتالى اقتصرت المقاومة فيها على العمل المسلح وقلما كان هناك ابداع فكرى - أما الهند ، فبسبب وضع المسلمين فيها كأقلية فلم يتيسر لهم وحدهم صناعة التاريخ (فبعد ثورة ١٨٥٧ الاسلامية - أفسح الانجليز المجال أمام الهنادكة والسيخ ثم ساعدوا فى صناعة غاندى كزعيم) .

وبالنسبة لايران وتركيا - فرغم تسلل النفوذ والافكار الغربية اليهما منذ وقت مبكر - فان العلمانية لم تتمكن من بناء قاعدة لها فى البلدين (حتى ١٩٢٥ على الاقل) - كما أن تحويل المجتمع الى الجاهلية فى البلدين أقترن بفرض التغيير من أعلى وهو مالم يحدث فى مصر .

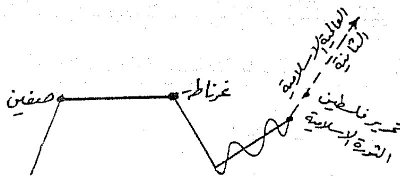
وبالنسبه لعالم المغرب - فبسبب تطرفه الجغرافى - وبسبب انهماكه

فى قضية النضال ضد الاستعمار (التى لم تترك مجالا للجدال حول التحولات الاجتماعية) - بسبب ذلك لا يعطى عالم المغرب فكرة نموذ جية عن الصراع بين الاسلام والعلمانية فى كل جوانبه .

وهكذا تصبح مصر نموذ جا :

١ - لانها أول من تلقى العلمانية فى الوطن الاسلامى كله .
٢ - وبسبب موقعها الجغرافى وبسبب د ورها التاريخى .
٣ - ولوجود تركيبة بشرية منسجمة ومتجانسة .
٤ - ولان شعبها هو أفضل شعب تمثل معانى الاسلام .
٥ - وبسبب - وهذا هو السبب المباشر - ارتباطها اللصيق بقضية فلسطين - التى هى المدخل بلا شك للعالمية الاسلامية الثانية .

وبناء على ما سبق يمكن اعطاء المنحنى التالى باعتباره الشكل النهائى للتاريخ الاسلامى وللفترة التى عالجها البحث.



ان هذا الشكل سيقودنا الى استنتاج هام - هو أن الحقبة العلمانية بما تضمنته من صدام فكرى وجهادى مع قوى الباطل كانت ضرورية للعالمية الاسلامية الثانية - وكأن ذلك مصداق لكلمة عمر بن الخطاب (رضى) " من

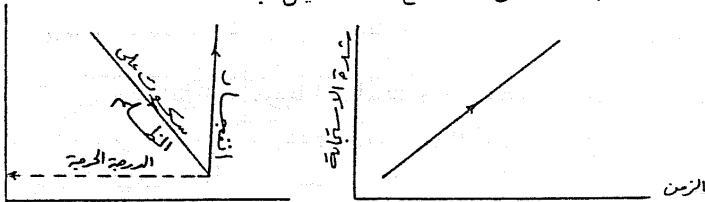
لم يعرف الجاهلية لم يعرف الاسلام " - ذلك أن الصيغ التى كانت موجودة قبل الصدام مع الغرب كانت قد ابتعدت كثيرا عن الاسلام - بل انه من الاولى أن نسميها (تقليدية) بدلا من قولنا (اسلامية) - وجاءت العلمانية فهزت الاسس التقليدية بعنف (بل ان تطاولها وصل الى حد التشكيك فى العقيدة الاسلامية نفسها) - وكان هذا شيئا مفيدا - ومن خلال اعادة اكتشاف الاسلام (اذا صح التعبير) فى ذواتنا تمت الثورات - ورغم فشلها - فقد كان من نتائجها العاجلة تغيير التركيبة الطبقية الظالمة وتوزيع الارض على الفلاح المصرى لاول مرة فى التاريخ - كما أن القمع الذى مارسته الانظمة العلمانية ضد الاسلام (الذى كشف زيف ادعاءاتها الثورية) قد أدى الى مزيد من الاصولية الاسلامية وبالتالى أدى - دون أن يقصدوا - الى خدمة قضية الثورة الاسلامية .

- ٢ -

أثبتت الخبرة أن الشعب المصرى حساس جدا للقضايا الوطنية

أما القضية الاجتماعية فانها يمكن أن تؤجل الى حين

لو أردنا المقارنة بين الاستجابة الشعبية للقضية الوطنية والاستجابة لقضية الظلم الاجتماعى فقد ينتج لنا منحنيان :



منحنى الاستجابة للقضية الوطنية

الاستجابة لقضية الظلم الاجتماعى

وهكذا يتضح لنا أن شكل المنحنى الاول يسمح بالتنبؤ المسبق (فى هذا الاطار عقدت بريطانيا معاهدة ١٩٣٦ مقدمة التنازلات لتفادى خطر تصاعد المد الشعبى وقت وقوع الحرب[1] - وعندما أخطأ الانجليز تقدير الموقف سنة ١٩٥٠ فقدوا السيطرة على الاحداث وأحرقت القاهرة - ورغم محاولات عبدالناصر الهاء الشعب عن قضيته الاصلية (فلسطين) بقيامه بمزيج من الاصلاحات والقمع فقد اكتشف الشعب الخدعة وردد فى مظاهرات ١٩٦٨ (عبدالناصر يا دجال - اليهود ع القنال) وهكذا كان استمرار السادات فى الحكم مرتبطا بدخوله الحرب (حتى لو أدى ذلك الى أن يموت بشرف حسب قوله)[2] - وفى هذا الاطار أيضا ولدت كامب ديفيد ميتة .

وبالنسبة لقضية الظلم الاجتماعى فقد كان الشعب يتحمل الكثير بسبب الانشغال بالقضايا الوطنيه - ولكن حتى لو لم تحل القضية الوطنية - فانه عند حد معين لا يطاق من الظلم تحدث الانفجارات بطريقة مفاجئة (مثل انتفاضات الفلاحين فى ١٩٥١/٥٠) وهكذا لا تستطيع القوى المجرمة تقدير حجم السخط المتراكم على الظلم الاجتماعى وتفاجأ بالانتفاضة (مثل أحداث يناير ١٩٧٧) .

ويمكن أن نلخص الفكرة السابقة فى أنه : من السهل أن تندلع مظاهرة ردا على اختطاف امريكا لطائرة مصرية أو تضامنا مع سليمان خاطر مثلا - ولكن ليس سهلا ترتيب مظاهرة من أجل رغيف العيش أو زيادة الاجور .

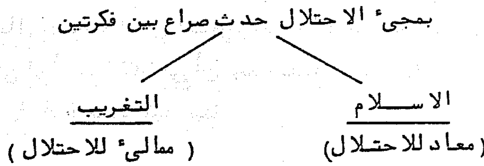
---

١ - ومع ذلك تصاعد المد المعادى للاستعمار ولم يمكن كبته الا بالدبابات التى حاصرت قصر عابدين .

٢ - لانه لو لم يحارب لمات أيضا - أى انه فى الحالتين (ميت ميت) .

بسبب رسوخ الاسلام في الوجدان المصرى فقد كان الطرح العلماني توفيقيا

يمكن أن نمثل بيانيا تطور الافكار العلمانية التى حازت الانتشار كالاتى :



وفى غمرة المقاومة ضد الاستعمار انتقل بعض المغتربين الى موقع أقرب الى الاسلام والجماهير وقاموا بالشوشرة على الاحتلال واعتبروا من ثم ابطالا .

وبدلا من أن يحدث الصراع بين الاسلام والتغريب بعد ١٩٢٢ - فان تقارب بعض المتغربين نحو الجماهير قد أتاح امكانية احتواء الصراع المفترض - وهكذا جاء دستور ١٩٢٣ ليقنن مذهبا توفيقيا (1) وكانت :

---

١ - من وجهة نظر الاسلاميين تعتبر دساتير مصر كافرة (وهذه حقيقة لا جدال فيها) - ولكن العلمانيين الاقحاح يرفضونها بدورهم لانها لم تنص على فصل الدين عن الدولة - وقد وضع دستور ١٩٢٣ فى غيبة المفكرين العلمانيين مما جعلهم يصبون غضبهم عليه - ومن الجدير بالذكر أن الشيخ محمد شاكر اشترك فى وضع هذا الدستور وأن حسن البنا لم يعترض عليه الا فى بعض مواده .

الحقبة اللبرالية ١٩٢٣-١٩٥٢

وردا على فشلها طرحت فكرتان

الاشتراكية — الاسلام (١)

كلتاهما صارعتا النظام ـ ولما كان سقوط النظام مسألة وقت فقد كان مستقبل الصراع يفترض أن يكون بين الاسلام والاشتراكية ـ ولكن مرة أخرى ثم احتواء الصراع بمذهب توفيقي جديد هو :

اشتراكية الاسلام ١٩٥٢ - ١٩٧٣

وأدخل الباقورى وفتحى رضوان حكومة الثورة كممثلين عن الاسلام والاشتراكية حسبما اعتقد من شكلوا هذه الحكومة .

بعد ذلك أراد السادات تسييد مذهب الاشتراكية الديمقراطية ـ وعمل كثير من الدجالين على الدعاية لهذا المذهب ـ لكن خطة السادات فشلت لانه تحدى الواقع الذى يتضمن :

أفكار هلامية غير محددة وكلها تصب في بعضها دفاعا عن العلمانية — الاسلام

---

١) ليس المقصود بالاسلام هنا أنه رد فعل لفشل التوفيقية ـ فالاسلام حاضر أبدا فشلت العلمانية أم نجحت .

ومن الناحية النظرية ـ وامتدادا للتسلسل السابق ـ لا يحل هذه المشكلة سوى تنفيذ بعض الاجراءات الشكلية باسم الاسلام (مثل أعمال الشعوذة المسماة تطبيق الشريعة) .

ان عوامل كثيرة ـ سبق ذكرها ـ تعوق اجراءات مايسمى بتطبيق الشريعة ـ ولكن على المدى الطويل يمكن تحييد أثر هذه العوامل ، واذا كانت الاوضاع الاقتصادية أحد عوامل الازمة فان السعودية التى انفقت عشرات المليارات لمنع سقوط العراق يمكن أن تنفق مئات المليارات لاحباط قيام الاسلام فى مصر ـ وبالتالى قد يتمكن النظام من اجتياز أزماته الى حين .

خصائص التوفيقية :

١ ـ كانت دائما تحل الصراع بين الاسلام والكفر قبل وصولة مرحلة الصدام ـ ذلك أن أى مذهب له عقائديون ومناصرون واذا أمكن عزل المناصرين (بتبنى مطالب العقائديين) فيصبح سهلا عزل العقائديين وحتى تصفيتهم جسديا .

ولما كان أى صدام ـ فكرى أو قتالى ـ بين الاسلام والعلمانية القحة سينتهى لا محالة بانتصار الاسلام ـ فان المذاهب التوفيقية صارت بلا شك أخطر على الاسلام .

٢ ـ كان عمر تطبيق المذهب التوفيقى ٣٠ سنة (أى جيل) بمعنى أن الشعب المصرى احتاج جيلا كاملا لكى يكتشف أنه خدع ـ قبل أن يتم الالتفاف عليه بمذهب توفيقى آخر .

٣ ـ ان فشل التوفيقية لم يقتصر على فشلها السياسى فقط ـ بل ان الفشل هو فى صلب بنيتها الفكرية ـ " فأزمة الانتقائية المعاصرة انها تختلف

عن انتقائية جيل المفكرين الاباء الذين كانوا يحاولون مجرد محض المحاولة ـ الى الحد من آثار التوتر البنيوى بين الفكر الوافد وبين الموروث الدينى والتراثى ـ من خلال صياغة توفيقية تتميز فى بعضها بالجدية ـ أما الانتقائية الراهنة فهى سلفية بمعنى أنها تجميعية بين عناصر ثقافية وقيمية متناقضة " (١) .

٤ ـ ان التوفيقية لم تقتصر فقط على الايديولوجية ـ بل تعدت ذلك الى الهوية ـ ان مصر هى من دول العالم النادرة التى يمكن أن تتبنى فيها ثلاث هويات فى وقت واحد : الوطنية المصرية / القومية العربية / الامة الاسلامية .

ـ ٤ ـ

رغم حرص العلمانيين على منافقة الاسلام ، فانهم قد تفوهوا ـ ربما عفوا ـ بما يظهر دخيلة أنفسهم :

ـ مثلا يعدد فؤاد سراج الدين انجازات ثورة ١٩١٩ ومنها " بدأ نساء مصر يخلعن الحجاب ويسرن فى الطرقات فى المظاهرات" (٢) .

ولا ندرى ما هى العلاقه بين الحجاب والمظاهرات وقد اشتركت نساء مصر بالحجاب فى أروع مقاومة شعبية فى تاريخ مصر كله (ضد الحملة الفرنسية) ـ ورغم ذلك فالثابت أن المرأة فى مصر خرجت فى مظاهرات ١٩١٩

---

١ ـ نبيل عبد الفتاح : المصحف والسيف ـ صراع الدين والدولة فى مصر ـ مكتبة مدبولى ١٩٨٤ .

٢ ـ لماذا الحزب الجديد : دار الشروق ـ ١٩٧٧ ص ١٩

بالحجاب سوى مظاهرة واحدة من ٣٠٠ امرأة ساقطة أصولهن اقطاعية أو قبطية .

ـ عبد العظيم رمضان يقول فى كتابه الحركة الوطنية " وفى الحقيقة أن المرأة المصرية وجدت فى ثورة ١٩١٩ فرصة العمر !! لتؤكد وجودها فى المجتمع المصرى الذى كان يصر على تجاهلها تحت عوامل التقاليد والدين " .

ـ عبد الناصر فى مناقشته مع من يسمون بالشباب الاشتراكى (١٩٦٥/١١/٢٠) قال ان الهضيبى " طلب منى أن أعلن الحجاب فى البلد كلها " وسخر من ذلك قائلا " زى اليمن يعنى ـ أنا مش فاهم أعمل الكلام ده ليه والناس يقولوا ان الحاكم مجنون ولا يمكن قبول هذا الكلام " .

ـ النحاس له كلمة مشهورة قالها لاحمد حسين " ذكر اسم الله فى برنامج سياسى شعوذة " .

ـ عبد الناصر له أقوال لاتعد ولا تحصى [1] ـ فهو يعتبر القومية العربية (العقيدة الثانية) بعد عدم الانحياز ـ ومن أقواله فى القومية : (ماكفرناش بها) ـ (استشهد وهو يؤدى واجبه من أجل العروبة) ـ (أرادوا أن يكفر بعروبته) ـ (اننا أشد ايمانا بها) بل ان موقف عبد الناصر من الاسلام يتضح أكثر فى حديثه مع مراسل أجنبى سنة ١٩٧٠ : " الاسرائيليون ينظرون الى اليهودية لاكعقيدة فحسب بل كقومية ـ وهذا مايعقد المشكلة ـ ولست أدرى ما الذى سيحدث لو أننا قررنا أن نقيم دولتنا على الاسلام

---

١) أنظر مثلا مفاهيم عبد الناصر للقومية من خلال عينة من خطبه فى : مارلين نصر : التصور القومى فى فكر عبد الناصر المستقبل العربى ١٩٨٤ .

وقـــــرر آخـــــرون أن يقيمــــــوا د ولتـهـــم علـــى المسيحيـــــة

وقرر آخرون أن يقيموا د ولتهم على البوذية ـ لسوف تكون هناك في كل مكـــان

أعمال تنم عن التعصب " .

ـ فرج فودة " ان الولاء للوطن سابق للولاء لاى عقيدة "[١] .

ويعتبر أن النشيد الذى ألقاه خالد الاسلامبولى فى المحكمة "ناقوس

خطر يجب أن ينتبه له الجميع " وذكر نص النشيد بأنه " لا من أجل وطـــن

خرجنا ولا من أجل أرض قاتلنا نحن جند الله "[٢] .

ـ ورغم أن د ساتير مصر أشارت الى أن الاسلام د ين الد ولة ـ فـــان

" هذا النص لا يترتب عليه أى التزام على الد ولة لتطبيق أحكام الشريعـــة ـ

وما هو الا تحية كريمة للعقيدة التى تدين بها الاغلبية أو هو بمثابة كفـــارة

تقدمها الد ولة لعدم التزام أحكام الشريعة في تشريعاتها " حسبما يقـــول

د . عبد الحميد متولى شيخ القانونيين الدستوريين فى مصر .

-٥-

خصائص العلمانيــة

١) نشأت في كنف الاستعمار وفرضت على بلادنا بالقوة والارهاب وتبنتهـــا في البداية الاقليات المعادية للاسلام :

من المعروف أن الدعوة الى العلمانية بدأها نصارى الشام واليهود ـ

وانضم اليهم الاقباط فى مرحلة لاحقة .

---

١ ـ الوفد والمستقبل ١٩٨٣ ص ٧٥

٢ ـ هذه ترجمة رديئة لنشيد "لا لحزب قد عملنا ـ لا لوطن قد عملنا ـ نحـــن للدين فداء " .

يقول القس القبطى انسطاس شفيق " ان بزوغ العلمانية وظهورها بصفة خاصة فى الاوساط شرط أساسى لاشتراك المسيحى فى قوميته العربيـــــة واختفاء العلمانية يعنى أن القبطى سيستشعر الخوف من هذه الفكرة"(١) .

ويقول ميلاد حنا (قبطى شيوعى) عضو مجلس الشعب الحالى :
" الاقباط يدورون أساسا حول الفكرة العلمانية وان التحرك القبطى كله تنبغى دراسته فى العصر الحديث من هذا المنطلق" (٢) .

ان اعتماد العلمانية على الارهاب لفرض وجودها لم يقتصر علــــى الاستناد الى السلطة الاستعمارية - بل استمر الى اليوم - وعندما انسحبت الجيوش الانجليزية من معظم الاراضى المصرية بعد معاهدة ١٩٣٦ أعلنت حالة الطوارئ فى مصر منذ ١٩٣٩ والى اليوم !!! (باستثناء أشهــــر قليلـــة) .

ومن المثير للسخرية أن القانون رقم ١٠ لسنة ١٩١٤ الذى فرض عند اعلان الحماية البريطانية غداة الحرب العالمية - هذا القانون مازال ساريا وهو يفرض العقاب" على اجتماع أكثر من خمسة أشخاص فى الطريق العـــام اذا أمرهم رجال الشرطه بأن يتفرقوا ولم يفعلوا ويكونون مسئولين عـــن أى جريمة تحدث بمناسبة هذا التجمهر حتى لو لم يعملوا بها أو يتوقعوها" .

ومع تزايد التحدى لمؤسسات الدولة العلمانية فقد صدر مزيد مــــن القوانين لتحقيق مزيد من الكبت - ففى ١٩٧٧ أصدر السادات قانونــــا يعاقب بالاشغال الشاقة المؤبدة كل من تظاهر أو أعتصم بل كل من شجــع

١- ندوة الاقباط والقومية العربية - مجلة المستقبل العربى - عدد مـــارس ١٩٨٢ ص ٢٤
٢- م.س.ذ . ص ١٢٣ .

على ذلك وفى ١٩٧٨ صدر (فى ٢٤ ساعة فقط) مايسمى بقانون حماية الجبهة الداخلية والسلام الاجتماعى وهو يعطى للمدعى الاشتراكى سلطة العزل السياسى والحرمان من الوظائف الهامة والمراكز القيادية والنقابية ويجرم الرأى - وفى ١٩٨٠ صدر مايسمى بقانون العيب الذى يجرم الفكر ويحرم صاحب الفكر من السفر بل ويحدد اقامته وفى مايو ١٩٨٠ أصبحت محاكم أمن الدولة هيئة دائمة (بعد أن كانت استثنائية) .

ومن المثير للسخرية أن المجلس الاعلى للهيئات القضائية يرأسه رئيس الجمهورية وينوب عنه وزير العدل (١) .

ان اعتماد العلمانية على القهر يجعلنا نطرح سؤالا : ماهى الفائدة من ذلك - أهو اصرار الحكام على الحفاظ على كراسيهم ؟ أم هى مصلحة طبقة مهيمنة اقتصاديا ؟ - ان مراجعة تفصيلية لاجراءات الكبت الفكرى والبوليسى وللقوانين الارهابية تجعلنا نصل الى نتيجة مؤكدة : ان الخشية من الحرية ومن العمل فى النور هو ما يؤرق العلمانيين - لان الحرية تعنى ببساطة العودة الى الاسلام .

ان الرعب من امكانيات الاسلام هو الذى دفع عبد الناصر الى اتخاذ قرار مايسمى تطوير الازهر الذى أعطى لرئيس الجمهورية حق تعيين شيخ الازهر ووكيل الازهر " وقصر دور شيخ الازهر على الشئون الدينية" (مادة ٤) و" يعين لتصريف شئون الازهر وزير بقرار من رئيس الجمهورية (مادة ٣) - وأثناء مناقشة القانون هدد السادات بأن الذى سيحاول

---

١ - تم ذلك فى عهد عبد الناصر سنة ١٩٦٩ - وقد انشئ المجلس ليحل محل مجلس القضاء الاعلى الذى تمت تصفيته ضمن مذبحة القضاء .

الوقوف أمام القانون " سيداس بالاقدام " (١)

٢- العلماني خارج عن الاسلام : لسبب بسيط لانه اما أنه يمتلك نظرية معرفة مضادة للاسلام على طول الخط (المادية الجدلية) أو أنه لا يملك أى اطار معرفى ويكتفى بالتلقى كيفما اتفق (الناصرية) - وفى كل الاحوال فان رؤية العلمانى للكون هى رؤية المشرك حيث الكون " تجمع متنافر مليء بالتناقضات غير واحد وغير متجانس له أقطاب مستقله ومتعارضة واتجاهات متصارعة ورغبات مختلفة وحسابات وتقاليد وأهداف وارادات منفصلة عن بعضها بعضا " (٢) . وهو ما يتناقض تماما مع رؤية المسلم للكون ككائن حى له مثل أعلى وهدف - ووفقا للعلمانية فهناك صراعات أو تناقضات بين الروح والجسد وبين الانسان والطبيعة وبين الدنيا والاخرة والعقل والوحى والدين والعلم والسياسة والدين والنخبة والجماهير والمتعلم والامى .

ان أناسا بهذه الرؤية (أو بالاحرى بهذا العمى) هم الذين وجهوا السياسة والفكر فى مصر طوال قرنين .

ان خروج العلمانى عن الاسلام يتعدى ذلك الى الخروج على بديهيات أى تصور اسلامى : فالسادات يصرح فى البحث عن الذات بأن (الله ليس جبارا كما يصوره لنا الشيخ فى كتاب القرية) بل (الله صديق للانسان) (والعياذ بالله) - وخالد محى الدين يصرح لاحمد حمروش أنه تعلم فى التنظيمات الشيوعية أن (الله يعطى أكثر مما يأخذ) .

---

١) عن المهزلة التى تم فيها اقرار هذا القانون راجع :
رفعت سيد أحمد : الدين والدولة والثورة - ماجستير فى السياسة نشرته دار الهلال ١٩٨٥ ص ١٩٢

٢) راجع ترجمة لكتيب على شريعتى (نحو علم اجتماع اسلامى) فى :
فاضل رسول (مترجم) : هكذا تكلم على شريعتى - دار الكلمة بيروت ١٩٨٣ .

٣) العلماني جاهل: بسبب اتباع العلماني للانموذج المعرفي الغربي فانه غير قادر على فهم الاسلام وتاريخه ـ وأنّى للانموذج الغربي أن يحكم على الاسلام ـ يقول كليم صديقي :

"وبما أنه لايمكن اختراق الانموذج الاسمي (١) بأنموذج جزئي ـ فان نتائج جهود المستشرقين قد جلبت العار على معيار العالم في الغرب ـ كما جلبت الشؤم على بعض المسلمين الذين تبعوا المستشرقين طلبة ومدرسين ـ ولم يحدث الا للقلائل جدا من المسلمين الذين تتلمذوا على المستشرقين أن يحوزوا على الامتياز العلمي في مجالات تخصصاتهم ـ ان غالبية هؤلاء التهوا بدراسة جوانب غامضة غير ذات أهمية متجاهلين حركة الاسلام الرئيسية عبر التاريخ ودوره العالمي " (٢)

ولذلك نصح على شريعتي العلمانيين في ايران بتعلم الاسلام :

" وعلى المفكر في المجتمع الاسلامي أن يكون عالما بالاسلام وهذا أمر حتمي ولا مناقشة فيه مهما كان دينه ومهما كانت عقيدته ـ وان فعل ، فسوف يحس فجأة بحالة ثورية مدهشة غير متوقعة ـ وسوف يتنبه الى أن مأساة عظيمة قد حدثت وهي كيف أن المفكرين الاخرين قد ضيعوا أوقاتهم وأفسدوا مواهبهم ونبوغهم وضللوا الناس نتيجة " لسوء البدء " ـ وكيف أنهم تسببوا في مأساة عظيمة بسوء فهمهم وتخبطهم وخطلهم وعدم معقوليتهم ومنطقيتهم في الربط بين الاشياء" (٣) .

---

١) يقصد الانموذج الاسلامي

٢) كليم صديقي (ترجمة ظفر الاسلام خان) التوحيد والتفسيخ بين سياسات الاسلام والكفر أوبن برس ليمتد ـ لندن ـ ١٩٨٤ ص ١٥-١٦ (اعادت نشره الزهراء للاعلام العربي ١٩٨٥) .

٣) عن محاضرة " المفكر ومسئوليته في المجتمع " في فاضل: م . س . ذ . ص١٣٢

ويذكر منير شفيق (١) أنهم عندما قابلوا ماو في الستينات وسألهم عن مقدار معرفتهم بالاسلام فأنكروا في أنفة أنهم يقرؤون في الاسلام - فقال لهم كيف تريدون أن تكونوا ثوريين وانتم لم تعرفوا الاسلام - وأوضح لهم أن لجوءه الى الشيوعية كحل لمشكلة بلاده قد جاء بسبب الافتقاد الى تراث اسلامي في الصين .

وبسبب الجهل العلماني (٢) فان اساليب محاربة الاسلام كانت غبية جدا - وأدت الى مزيد من الاسلام .

ان الجهل العلماني لا يقتصر فقط على الجهل بالاسلام - بل انهم جاهلون حتى بفكر أسيادهم - ان العلماني غير قادر بذاته على الابداع - ويصف حامد ربيع الفكر العربي بأنه " ليس الا عمليات متتابعة من السرقة للفكر الاجنبي " (٣) .

---

١) مفكر فلسطيني ومدير مركز التخطيط الفلسطيني - كان ماويا نصرانيا ثم هداه الله وألف كتابين في حتمية الحل الاسلامي ويعد حاليا كتابا عن خيانات الشيوعيين للقضية الفلسطينية .

٢) أنظر على سبيل المثال تلك الكتابات السطحية والمضللة لمن يعتبرون عباقرة الدراسات الاجتماعية في مصر :

- علي الدين هلال في دراسته التي قدمت بندوة رودس سنة ١٩٧٩ :
- The Revival of Islamic Organizations in Egypt
- السيد يس في دراسته التي قدمت بندوة أثينا (١٩٨٠) :
- Revitalization Islamic Movements.
- سعد الدين ابراهيم في دراسته عن مجموعات العنف الاسلامية واشنطن ١٩٨٠ .
- حسن حنفي في دراسته عن الدين والحركات الدينيه في حوض البحر المتوسط (امستردام ١٩٧٩) .

٣) حامد ربيع : الثقافة العربية بين الغزو الصهيوني وارادة التكامل القومي الموقف العربي ١٩٨٣ ص ١٦٦

ولكن كيف نشأ الفكر الغربى ؟

" ان الاسس التى قامت عليها أوربا نشأت فى جو من الخوف والضعف والشقاء وهو شقاء لا نستطيع تصوره فى العصر الحاضر حتى بعد الكوارث التى ألمت بالعالم فى أعقاب الحربين العالميتين "(١) .

وعلى أساس هذا الشقاء وعلى اساس نظريات ماركس عن توزيع الثروة المنهوبة من العالم المستضعف يريد العلمانيون أن يحكموا على تاريخنا .

٤) الاستخفاف بالعقل : وبسبب الجهل وعدم القدره على الابداع فقد افتقد العلمانى الحجة وصار الاستخفاف بالعقل سمة اساسية للمقولات العلمانية :

ـ يقول هيكل " ان حرب ١٩٥٦ كانت أكمل انتصار فى تاريخ العرب الحديث بل انه كان أكمل انتصار فى تطبيق نظريات الحرب المحدودة فى أعقاب التعادل النووى بين القوتين الاعظم ".

ـ ويقول كمال رفعت المتحدث باسم الناصرية (ان الدافع القومى للامة العربية أمر لا يختلف عليه اثنان وقد اصبحت عوامل القومية راسخة فى ضمير الشعب العربي ووجدانه) (٢) ويصف انقلاب ١٩٥٢ بأنه " أكبر حركة ثوريه فى تاريخ الشعب المصرى والشعب العربى " (٣)

---

١ ـ كرستوفر دوسن (مترجم) تكوين أوربا ـ سجل العرب ١٩٦٧ ـ ص(غ) والمعروف أن الحرب العالمية الثانية راح ضحيتها ٥١ مليون قتيل .
راجع أيضا مقدمه كتاب اقتصادنا لمحمد باقر الصدر .

٢ ، ٣) ناصريون نعم ـ الموقف العربى ١٩٧٦ ص ٥١ ، ص ١٠ على التوالى .

يقول فؤاد سراج الدين " الوفد سلم الجماهير الى الثورة حيث رحب بها ترحيبا كبيرا " (شهادته لعبد العظيم رمضان : عبد الناصر وأزمة مارس ص ٣٥٩) .

-يقول فؤاد سراج الدين " الوفد حقيقة ثابتة فى ضمير هذا الشعب وهو ايمان راسخ فى وجدان كل مصرى " !!!!(١) ويصف معاهدة ١٩٣٦ بأنها " استخلصت من أنياب الانجليز "(٢) ويعتبر أن الشخص الذى يملك ألف فدان ليس باقطاعى وفى رأيه أن الاقطاعى هو الذى " يمتلك ولايه بأكملها تزيد على مديرية من مديرياتنا " ليصل فى النهاية الى " لم يكن لدينا اقطاع " (٣) .

-عبد الناصر يدعى أن هدف الحروب الصليبية " لم يكن الا القضاء على القومية العربية " وأن نابليون " كان يريد أن يقضى على القومية العربية ويخضعها " (٤) .

- خلف الله يدعى " أن المجتمع المصرى يرى فى الصحوة الاسلامية مؤسسة عدوانية يجب القضاء عليها " - " وستمضى القافلة ولن تعوقها الصحوة(٥)

وبسبب الجهل - فان العلمانى لا يملك اطارا للتفكير - وهناك أمثلة كثيرة لتخبط أشخاص ذات اليمين وذات الشمال فى أزمنة قياسية :

فمثلا يقول حامد ربيع(٦)

" السعودية تنفذ تعاليم وأوامر القيادة الحاكمة الامريكية بحذر وخضوع لا حدود له " (٧) .

---

١) ٢)٣) لماذا الحزب الجديد - دار الشروق ١٩٧٧ ص ٢٤ و ص٣٦ ، ص٣٢ ومن الناحية الاصطلاحية الاجرائية لم يكن فى مصر اقطاع قبل ١٩٥٢ وانما كانت رأسمالية زراعية وهى أسوأ من الاقطاع .

٤) خطابة فى المؤتمر التعاونى فى ٢٦/١١/١٩٥٨ .

٥) راجع ملف المستقبلات العربية البديلة العدد ١٤ ص ٣٠-٤٩

٦) كان رئيس قسم العلوم السياسية بجامعة القاهرة ومن المنظرين الرئيسيين للقومية العربية

٧) الامن القومى العربى - دار الموقف العربى ١٩٨٣ ص ٣٣٦

وقبل ذلك بعامين يقول (١)

" قد يتصور البعض أن السعودية تسير فى فلك السياسة الامريكية بتبعية مطلقة .. على أن هذا غير صحيح على اطلاقه - السياسة السعودية تنطلق من مبدأ الدبلوماسية الهادئة المتأنية ولكن عن قناعة بأن على السعودية أن تؤدى وظيفة قيادية لصالح الدعوة الاسلامية وهى تسير فى هذا المعنى بحذر وحنكة ومن خلال أساليب ملتوية ولكنها ذات فاعلية حقيقية "

وربما لم يقرأ كاتب السطور فى حياته ما هو اكثر اثارة للسخرية من العبارة التالية :

" اليقظة الاسلامية تطرح حقيقة العلاقة بين الامة العربية والامة الاسلامية : أمن كل من هاتين الامتين من الاخرى (٢) "

- ٦ -

معظم العلمانيين عملاء بطريقة مباشرة - أما اقلية العلمانيين (الوطنيين) فهم لا يثقون فى امكانية الانتصار على الغرب .

ان سبب الهزيمة الداخلية امام الغرب واضح - فأنى للعلمانى أن يحارب سيده ومثله الاعلى - يقول عبد الناصر (خطاب ٢٣ - ٧ - ٦٧) "لانريد أن نكون فى حرب مع أمريكا - وأنا كررت أكثر من مرة أن أمريكا أقوى وأغنى دولة فى العالم وده أمر صحيح لا يجدى انكاره - وحين أقول اننا لا نريد ولا نقدر على حرب مع أمريكا فأنا مش شايف فى هذا عيب" (٣)

---

١) حامد ربيع : الاسلام والقوى الدولية - دار الموقف العربى ١٩٨١ ص١٣٥

٢) حامد ربيع : الثقافة العربية بين الغزو الصهيونى وارادة التكامل القومى - دار الموقف العربى ١٩٨٣ ص ١٧٢

٣) والغريب أنه يناقض نفسه بعد قليل فى نفس الخطاب فيقول " شعب فيتنام المسلح بالاسلحة الصغيرة والمقاومة للدبابات والطائرات ماعندهمش دبابات ولا طائرات بيعملوا ايه فى الامريكان - بيسببوا لهم خسائر كبيرة احنا مش أقل من شعب فيتنام " .

أما السادات فكان أكثرتحديدا من عبد الناصر : " أنا أعرف امكانياتي وأعرف حدودي ـ لن أحارب أمريكا (١) "

ان حامد ربيع ـ أكثر من يدعو الى الثقة بالنفس ـ اصدر كتابا ذو نزعة تشاؤمية تهول من قدرة أمريكا واسرائيل (٢) ـ وكان قصارى ما دعا اليه أن تتعامل مصر مع القوة العظمى العالمية الثانية لايجاد توازن ازاء القوة الاولى ـ وضرب أمثلة بمحمد على (لجأ الى فرنسا ضد بريطانيا) وعبد الناصر (لجأ الى روسيا ضد أمريكا) ثم فلسف هذا الامر " مرد هذا المبدأ الاستراتيجي أن القوة العظمى الاولى وهي تسعى للتحكم في المنطقة لابد وأن تبدأ بضرب مصر ـ وبحكم القدرة المصرية فان مصر لا تستطيع أن تواجه تلك القوة الاولى (لماذا لا تستطيع يا دكتور) ـ ومن ثم تورط القوة الثانية العالمية " ـ ولم يوضح لنا الدكتور ماذا علينا أن نفعل اذا لم تشأ القوة الثانية أن تتورط ـ مثلا لو تطور الانفراج الى أعلى مراحله (الوفاق) فماذا سنفعل ؟

ان الاعتراف بحقيقة التبعية للغرب قد جاء من الناصريين أنفسهم :

" لقد حكمت ظروف الانبعاث المعاصر للعروبة أن تتشكل العروبة المعاصرة في بداياتها على أنها تمايز عن العثمانية ولقد ذهبت في هذا التمايز أحيانا الى حد الاستعانة على العثمانيين بالغرب ، ليس كعدو فقط ـ وهذه مسألة سياسية كان يمكن أن تبقى ذات آثار محدودة ـ بل كمصدر أوحد للتقدم ونموذج شامل له " " ومع أن النضالات السياسية العربية بعد ذلك قد وضعت العروبة في تصادم دائم ومصيري مع الغرب فقد ظل الغرب يمثل بالنسبة لنا بشكل عام حالة مزدوجة فهو العدو السياسي المصيري وهو في الوقت نفسه المثال الحضاري المحتذى ـ لقد شكلت هذه الازدواجية مأساة معظم بل ربما كل القوى الوطنية العربية في النصف الاول من هذا القرن " (٣)

---

١) البحث عن الذات ـ المكتب المصري الحديث ١٩٧٨ ص ٣٤٨
٢) نظرية الامن القومي العربي م . س . ذ
٣) الياس سحاب : وجهة نظر سياسية في مسألة الاستقلال الحضاري ـ عن ندوة ناصر الفكرية : ملامح المشروع الحضاري العربي المعاصر ـ دار الوحدة بيروت ١٩٨٢ ص ١٥١

ويعترف أحد حكماء التطلع ((سعد الدين ابراهيم)) [1] بأن " التبعية أصبحت نفسية - فصانع القرار المصرى يضع نفسه سواء بإرادته أو بلا رضى منه في موقف العاجز عن التفكير المستقل "

وبسبب عدم الثقة فى النفس فلم ينتصر نظام علمانى فى أى حرب - ولو حدثت بعض الانجازات فقد كانت احياء لمد شعبى أو بجهد شعبى (حرب اكتوبر) - ان روح العجز تظهر أوضح ما تظهر فى عبارة لفرج فودة :

" حين حدثت هزيمة ٦٧ المروعة - توقف الزمن بالنسبة لى - أحسست بالتفاهة والبلاهة والعجز - تملكتنى رغبة فى الموت أو الاختفاء - أصبح كل شئ أمامى صغيرا وحقيرا - خيل لى أن مصر قد ماتت وانتهت "

ان روح التشاؤم واليأس السابق وصفها تنطبق على العلمانيين غير العملاء - أما العملاء (وهم أكثرية العلمانيين) فهم لا يشعرون بأى انتماء حقيقى الى بلادهم والى الشعب الذى نشئوا بين ظهرانيه - وهم يتداولون فى مجالسهم الخاصة ما يحقر من الشعب ويصمونه بالجهل .

ان هؤلاء الناس (أو بالاحرى هذه المخلوقات) قد تخلت عن كل مبدأ وشطت الى أبعد حدود اللامعقولية (عندما هاجمت الدين) من أجل حفنة دولارات - ان العمالة لعدة جهات أجنبية (ليبيا - العراق - سوريا - عرفات - روسيا - أمريكا) لم تعد سرا - وان عدد الذين (يقبضون) قد تضخم مؤخرا - وهم يلحون الان لتغيير قوانين الصحافة (باسم حرية الفكر) لكى ينشئوا قواعد للجهات الاجنبية التى تمولهم - ان اختفاء ياسر عرفات (الذى ندعو الله أن يكون قريبا) سيعنى توقف عشرات الصحف فى مصر وحدها - وسيعنى أيضا تعثر صحيفتى الحزبين اليساريين فى مصر .

ان مقالا لعبد الرحمن الشرقاوى (اهرام ٨٥/٧/٦ ص ١٥) يلخص شعور العلمانيين العملاء تجاه الاسلام - يقول الشرقاوى :

---

(١) مصر تراجع نفسها - دار المستقبل العربى ١٩٨٣ ص ١٤٤ .

" لابد من اعلان جبهة وطنية قوية قادرة ـ ان كل القوى الوطنية ـ وكل الاحزاب السياسية وكل المثقفين ممثلى القوى الشعبية (كذا) من مختلف الاراء والاتجاهات كل المسلمين والمسيحيين على السواء ـ الرجال والنساء (نسى الاطفال) كلهم مدعوون الى التضامن فى جبهة وطنية قوية . ندعوهم لانتشال الامة ـ وانتشال أنفسهم وأبنائهم من هول الفتنة الذى سينطح الجميع بقرنيه وسيسحق تحت اظلافه الدامية أجساد الصغار ! ! (علامتا التعجب من وضع الشرقاوى نفسه) .

" اننا ندعو الى جبهة وطنية صلبة من كل الاحزاب ومن غير المنتمين الى احزاب ومن كل الاتجاهات والافكار والعقائد . . . "

" يجب أن ترتفع كل الصحف الحزبية وكل القوى السياسية المتعارضة عن التناقضات الثانوية الجانبية لتهتم بالصراع العظيم لانقاذ حرية الوطن " .

" لا صغار بعد ولا صغائر ولا وقت للحسابات الشخصية الرخيصة ـ اننا أمام تناقض أخطر وأفدح من كل التناقضات الداخلية فلنواجهه بجدارة " ووصف الاسلام بأنه " القارعة ـ وستقرع الجميع بلا استثناء ـ ستقرع الجميع على السواء " ثم اتبع ذلك بسيل هائل من الشتائم الحقيرة التى تدل على مستوى الاخلاقيات التى (يتحلى) بها أمثاله .

ـ ٧ ـ

لم تكن العلمانية أبدا حركة جماهيرية ـ وانما هى اتجاه بين مثقفين معزولين عن واقعهم :

من المعروف أن المفكر هو دائما طليعة أمته ـ وهذا مالم يحدث لمفكر علمانى ابدا ـ فدائما كان المفكر تاليا لفعل الامة وكانت أعماله وأفكاره رد فعل لما يحدث ـ وأوضح مثال على ذلك عشرات الندوات التى تعقد حاليا لبحث ما يسمى بالاصالة والمعاصرة بعد أن تعاظم المد الاسلامى ولم يعد ممكنا تجاهله .

كذلك أظهرت استطلاعات الرأى حول تطبيق الشريعة مدى الاصرار الشعبى الجارف على التطبيق الفورى - أما المثقفون المتأثرون بالعلمانية فقد دعا قسم منهم الى " التمهيد " فى تطبيق الشريعة .

ان موقف العلمانية من الجماهير قد يتضح لنا من استقراء أفكار أول (زعيم) علمانى :

يقول سعد زغلول (فى مذكراته) (١)

" الفلاحين أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة ولا تثور لهم ثائرة الا اذا مست الجهة الضعيفة فيهم وهى الجهة الاعتقادية ، فهم منصرفون عن كل عمل عام الا اذا وسوس وسواس فى صدورهم بالدين وأحكامه " (كذا)

أما " الصناع والفعلة فلا يهتمون الا بأعمالهم وقبض أجورهم ولا يتحركون لعمل عام الا اذا حركتهم عوامل الدين أو رأوا فى الثورة مايسهل سبل النهب والسلب"

وبسبب علمانيته وعجزه عن فهم أنه لا ثورة بغير الاسلام فقد توصل الى أن الشعب المصرى غير مهيأ للثورة لان " جميع هذه الطبقات ليس فيها قوة الاعتماد على النفس التى هى منبع الحياة للامم فهى دائما تشعر بالحاجة الى الغير والاستعانة به " .

---

١) عن مصطفى النحاس جبر : سياسة الاحتلال تجاه الحركة الوطنية (١٩٠٦-١٩١٤) دكتوراه نشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ (نقلا عن الكراسة التاسعة من مذكرات سعد زغلول ص ٤٠٠)

أنظر أيضا : مصطفى النحاس جبر : مذكرات سعد زغلول - روز اليوسف - ١٩٧٣

ويقول هذا الشيوعى (ص ٩٨) :

" ان التأثير الاساسى الذى جعل الحركة الوطنية بقيادة مصطفى كامل يتجه الى الدعاية الاسلامية تأثير نابع من التخلف الجماهيرى"

من خصائص الاسلاميين

كما قلنا في المقدمة - لا يختص هذا البحث بتقييم الاسلاميين - لكن سنذكر هنا ملاحظات لابد منها [١]:

أ- لقد كان الجسم الرئيسي للحركة الاسلامية دائما حركة تعمل في الاطار الوطني وكانت برامجها دائما وطنية ولم تطرح مشروعا عالميا الا بصورة غامضة ورغم حركة التصحيح الداخلية على يد سيد قطب - فقد بقي معظم الحركة على حاله القديم ومازال كثير من الاسلاميين لا يعي أن الوطنية مناقضة للاسلام.

ب- لقد كان نظام التعبئة مبنيا دائما على العاطفة وليس على أساس عقائدي راسخ وهذا يفسر عدم ثورية معظم الاسلاميين المصريين - وفي الحقيقة فان تعبير (متدينين) قد يكون ادق في وصف حالهم من تعبير (اسلاميين).

جـ- لم يحدث ان فكرت القيادات الاسلامية بشكل استراتيجي - لقد كان كل همها دائما تحقيق انتصارات جزئية دون ادراك لما يمكن أن تسفر عنه في تشويه مفهوم أمة الشهادة على الناس (لدرجة ان حسن البنا مثلا رشح نفسه في انتخابات البرلمان) - واذا كانت حركة التصحيح بقيادة سيد قطب قد وضعت اسس التفكير الاستراتيجي فانها اهملت تماما التكتيك لدرجة انها تجمدت في محلها منذ الستينيات وحتى اليوم.

ان غياب الاستراتيجية ليس هو المشكلة الرئيسية - ان كثيرا من الاسلاميين لا يدركون حجم تناقضاتهم مع الاخرين وبذلك ادخلوا انفسهم في معارك ليست معاركهم.

د- ان الحركة الاسلامية قد فشلت تماما في ابداع اي فكر - عدا سيد قطب - كما فشلت في اقامة مؤسسات تعليمية او اجتماعية بديلة للمؤسسات العلمانية وبسبب ظروف الصدام مع السلطة فقد ركزت الحركة على الهياكل التنظيمية وجعلت من نفسها بديلا للجماهير لا طليعة لها.

---

(١) ان جميع الملاحظات الآتي ذكرها نسبية وليست مطلقة.

- ٩ -

الفكر السياسي (١)

ربما لم تشهد مصر في القرنين الماضيين من هو مفكر - بالمعنى الفني للكلمة - سوى سيد قطب - وهكذا فعلينا أن نتوقع أن ما نسميه (فكرا سياسيا في مصر) لم يكن سوى اجتهادات غير ناضجة وقابلة للتبدل السريع من النقيض الى النقيض - ذلك أن الذين وجهوا الفكر في مصر كانوا سياسيين متوترين ومفعمين بالامال - ولم يكن لديهم فكر مدون مقنن - ولا يعدو تراثهم أن يكون خطبا ومقالات يختلط فيها الفكر بالدعوة للضجة الجماهيرية .

ان السبب في ذلك ليس عجز مصر عن انجاب مفكرين ولكن السبب هو احدى خصائص الجماهير في مصر وهو تجاوزها في نضالها لكل الحركات السياسية والتنظيمات - وبالتالي فلكي تكون جماهيريا فعليك أن تلحق بالشعب دون ابطاء والا فيمكنك أن تكون مفكرا ولكنك ستبقى معزولا .

وطالما أن النضال السياسي يعلم الانسان سنن الله - فعلينا أن نتوقع أن السياسيين المتوترين - اما أنهم قد ازدادوا أصالة ووضوحا مع الزمن (مثل أحمد حسين الذي عاد الى الاسلام الصحيح سنة ١٩٧٦ بعد تخبطه الفكري العجيب - وقد بلغت عملية الاصالة ذروتها في حالة سيد قطب) - ومن الممكن أيضا أن يكون المناضل السياسي قد سحق قبل أن يصل الى مرحلة الاصالة - ومن الممكن أن يكون في طور النضج حاليا .

---

(١) قد يبدو سياق هذا الموضوع مختلفا قليلا عن السياق العام للبحث - لانه وضع في مناسبة أخرى .

الاتجاهات الثلاثة للفكر السياسي في مصر

لم يقدر لاى فكر سياسى غير اسلامى أن ينتشر فى مصر الا اذا أوجد لنفسه مبررات اسلامية ـ وهكذا سنستطيع أن نصنف الافكار السياسية التى طرحت وأحرزت نجاحا جماهيريا ـ فى جدول كالاتى :

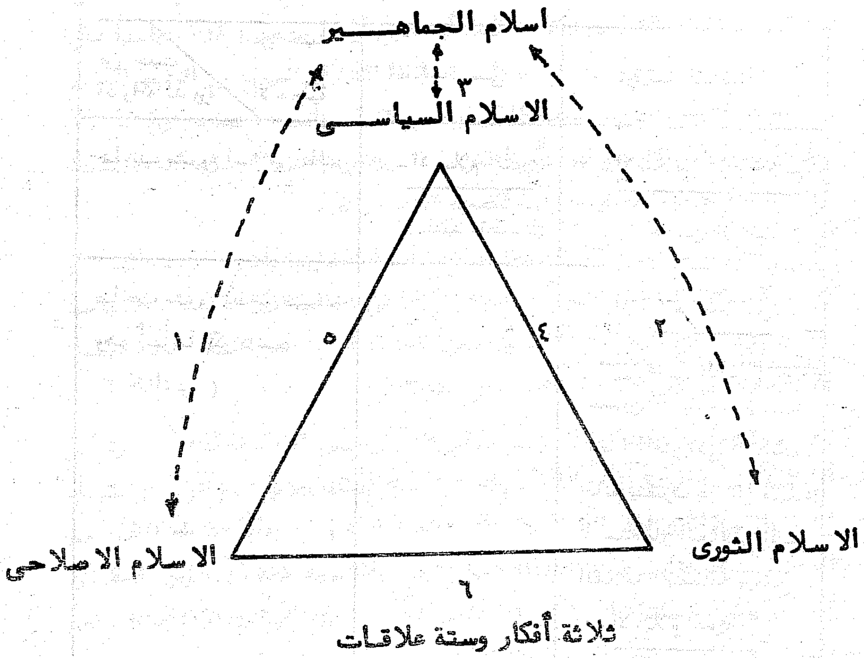
من حيث الاصولية / من حيث ادراكه لدوره	اصولـــــى	توفيقـــــــــى
صاحب مشروع اسلامى عالمى	١ ـ الاسلام الثورى* (سيد قطب)	٢ ـ الاسلامى الاصلاحى* (حسن البنـــا)
صاحب مشروع وطنى ضيــق وهو أساسا فكر دنيوى (علمانــى)		٣ ـ الاسلام السياسى* (مصطفى كامل ـ أحمـــد حسين) وعند ما يصـــل هذا الفكر الى السلطـــة فانه ينصرف عن مواجهـــة الاستعمار العالمى الـــى القضايا المحلية ويصبح ٤ ـ الاسلام المزيف* (عبد الناصـــر)

وفى الاجابة على سؤال : كيف تفاعلت هذه الافكار الثلاثة فيما بينهـــا ـ وكيف تفاعل كل منها مع اسلام الجماهير ، لابد ـ فى البداية ـ من أن ننظر كيـف نشأت هذه الاتجاهات وكيف تمت عمليات احلالها فى البيئة المصرية .

* * *

---

* المقصود بالاسلام هنا فهم أو تطبيق الاسلام .



ثلاثة أفكار وستة علاقات

عند ما قام محمد على باجراءاته القمعية لتصفية العلماء الثوريين كقيادة جماهيرية ـ فان قطبا جديدا للفكر (من خارج الازهر) كان قد ظهر ـ بتأثير التفاعل مع الحضارة الغربية وبعثات محمد على الى فرنسا ـ صحيح أن هذا الجيل من المفكرين لم يكن لهم أى تأثير فى البداية بسبب الطبيعة السلطوية لحكم محمد على ـ الا أنهم (وعلى رأسهم الطهطاوى) كانوا أول من أرسى دعائم التوفيقية فى الوطن الاسلامى كله .

وهكذا انتهى عصر محمد على وقد أفل الاسلام الثورى (عمر مكرم ـ الجبرتى) وكان الازهر قد أصيب بالشلل هو الاخر بسبب انكباب الازهريين على قضايا الجدل والمنطق .... الخ وفى الجملة ـ فلم يبق سوى التوفيقية التى اعتنقها المهزومون وحاولوا تبرير كل ما هو غربى بأنه اسلامى وقال الطهطاوى مبررا شعارات الثورة الفرنسية فى الحرية والمساواة بأنها هى ما نسميه العدل والاحسان ـ وقال آخر ان الاوربيين مسلمون ولا ينقصهم من الاسلام سوى الاسم ولقد خلطت التوفيقية خلطا شديدا فيما يتعلق بالقيم العليا فى الفكر السياسى فمثلا وصف الطهطاوى الحرية بأنها " عين العدل " !!!

قلنا ان التوفيقيين زمن محمد على كانوا مجموعة من المثقفين المعزولين ـ ولكن بسبب التخريب الذى أحدثه محمد على فى الاقتصاد والمجتمع المصرى ، فقد سهل على القوى الامبريالية أن تخترق مصر فى عهدى سعيد واسماعيل ـ وهكذا طرحت قضية الاستعمار وبالتالى انتعش الفكر السياسى .

ولعل الافغانى هو منبع كل الافكار التى ظهرت فى مصر منذ ذلك الوقت ـ ومن المثير أن نلاحظ أن فكر الافغانى يمكن أن يصنف بوضعه فى وسط المثلث (ص ٢٧٨) وهكذا نجد كلا من الاسلاميين وغير الاسلاميين يعتبر الافغانى استاذه (من وجهة نظره بالطبع) فحسن البنا اعتبر الافغانى استاذه من وجهة نظر أنه دعا الى البعث الاسلامى ـ والمسلم الثورى قد يعتبره أستاذه لانه عالج همومه الثلاثة : الوحدة الاسلامية / محاربة الاستعمار / العدالة الاجتماعية (كل ذلك فى وقت واحد) ـ والعلمانى يدعى انتماءه للافغانى لاضفاء الشرعية على أفكاره ـ فبسبب كون الافغانى سياسا أكثر منه مفكرا ولتأسيسه الحزب الوطنى

وعرضه برنامجا سياسيا تضمن اطلاق الحريات فقد توافق ذلك مع بعض اللبراليين وكانت له معهم علاقات أرادوا استغلالها للاعتراف بشرعيتهم .

وبعد الافغانى انقسمت مدرسته الى الاتجاهات الفكرية الثلاثة التى استمرت طوال تاريخ مصر :

- الاصلاحيون (محمد عبده ومن بعده رشيد رضا) وهم المهزومون الذين ارتضوا الاصلاح من خلال النظام القائم - ودعا محمد عبده الى بدء الاصلاح من التعليم - ولم يخجل من اقامة علاقات حسنة مع كرومر ومن مدح كرومر له - أما رشيد رضا ومحب الدين الخطيب فقد عملوا ضمن مجموعة موسعة من العملاء الذين دعوا للقومية العربية (على أساس اسلامى حسب قولهم) ! !

- الثوريون وكانوا نادرين جدا وعمل بعضهم من خلال الحزب الوطنى ومنهم الشيخ عبد العزيز جاويش (وهو تونسى الاصل) ورغم وجوده فى الحزب الوطنى فهو صاحب المقولة الشهيرة " لا وطنية فى الاسلام "

- الاسلام السياسى : وهو الذى أدرك البعد الجماهيرى فى الصراع مع الانجليز - وعمل على استثارة الثقافة السياسية للجماهير فحقق نجاحا منقطع النظير فى التعبئة - واعتبارا من سنة ١٩٠٦ وحتى سنة ١٩١٩ تتابع وقع الاعمال الثورية فى مصر .

* * *

ولد واعي الاختصار ـ فانه يمكننا تلخيص تاريخ الفكر في مصر كالآتي :

المرحلة التاريخية ونوع الفكر السائد	مبررات هذا الفكر	ميكانزم الاحلال ج = من وسط الجماهير أ = بمبادرة استعمارية	النتيجة
الاسلام السياسي 1900 الى 1919 (في المعارضة)	الحاح قضية الاستقلال	ـ ج ـ مصطفى كامل يؤسس الحزب الوطني الوطني وينجح في تعبئة الجماهير	ـ مد جماهيري وأعمال ثورية ضد الانجليز ـ لاول مرة في تاريخ مصر تظهر قيادات شعبية من خارج زمرة العلماء وهكذا أعطيت شرعية القيادة فيما بعد لمثقفين تربوا على الثقافة الغربية وأصبح سهلا على الاستعمار بعد ذلك أن يمرر (زعامات) من طراز سعد زغلول وعبد الناصر.
الاسلام المزيف 1919 1936 (في الحكم)	غياب قيادة اسلامية واقتصار التواجد الاسلامي في ثورة 1919 على المهيجين السياسيين	ـ أ ـ بعد وصول الجماهير لمرحلة الانهاك بعد ثورة 1919 (قتل 3000 وأعدم 70) قام الانجليزبتمثيلية صوروا فيها قيادات الوفد بأنها معادية للاستعماروأمكن تمريرها (ضمن خطة أشمل قام الانجليز بها لاقرار الهدوء في الشرق العربي كله)	ـ احباط المد الجماهيري ـ الاساءة الى فكرة الخلافة عندما طالب بها عدة ملوك ودعم الازهر الملك فؤاد (1926).
الاسلام الاصلاحي 1936 الى 1952 (في المعارضة)	غياب مفاهيم الاسلام الاساسية عن الكون والحياة . فشل النظام في طرد الانجليز وتفاقم الفروق الطبقية	ـ ج ـ ـ حسن البنا يؤسس "الاخوان المسلمون" ويأول في استغلال التناقضات بين القوى السياسية الكثيرة ـ المفكرون الرافضون للعلمانية الصريحة يلجئون الى التوفيق (محمد حسين هيكل ـ أحمد حسن الزيات ومجلته الرسالة).	كان لشخصية حسن البنا المهيمنة فكريا وتنظيميا دورا محوريا ـ وبسبب قناعاته بجدوى الاصلاح من خلال النظام فقد أخذ النظام اعترافا بالشرعية من الاخوان (خاصة وأن الاخوان في غمار عدائهم للوفد أيدوا الملك وتم تبرير السياسات القومية وأيضا تكرست فكرة شرعية القيادة من خارج العلماء . وقد أحبط مشروع للاصولية (انشقاق شباب محمد سنة 1940) بسبب هيمنة حسن البنا
الاسلام المزيف 1952 الى 1967 (في الحكم)	تقاعس الاخوان من الاطاحة بالنظام بسبب تركيبتهم الفكرية التى أورثتهم القصور والعجز في نفس الوقت كانت أمريكا تعتبر الاخوان خطرا على النظام وسعت لتطويق الثورة المحتملة	ـ أ ـ انقلاب عبد الناصر (بعد أن طمأنته أمريكا أنها لن تعترض على اصلاحاته الداخلية) .	ـ احباط تام للمد الجماهيري بتحقيق اصلاحات شكلية في شعب طالما سحق وظلم . ـ أكبر تهديد للاسلام الشعبي طوال تاريخ مصر كله ومع ذلك فقد ظهرت حدود امكانيات العلمانية في تهديد الاسلام :
1967 الى 1974	كبت فكري ورفع شعار " لا صوت يعلو فوق صوت المعركة "		
الاسلام الثوري 1974 الى اليوم (في المعارضة)	أول نظرية اسلامية ثورية (سيد قطب) مع استنفاد الانظمة العلمانية لكل الفرص التاريخية وفشلها في كل مرة ومن ثم انعدام مبررات بقائها .	مشروعات كثيرة لبدائل امريكية لا يبدو أن لأي منها نصيب من امكانية الاستقرار	تآكل شرعية النظام ومن ثم تنازله وانفتاحه السياسي ـ زيادة ملحوظة في الانتفاضات الشعبية

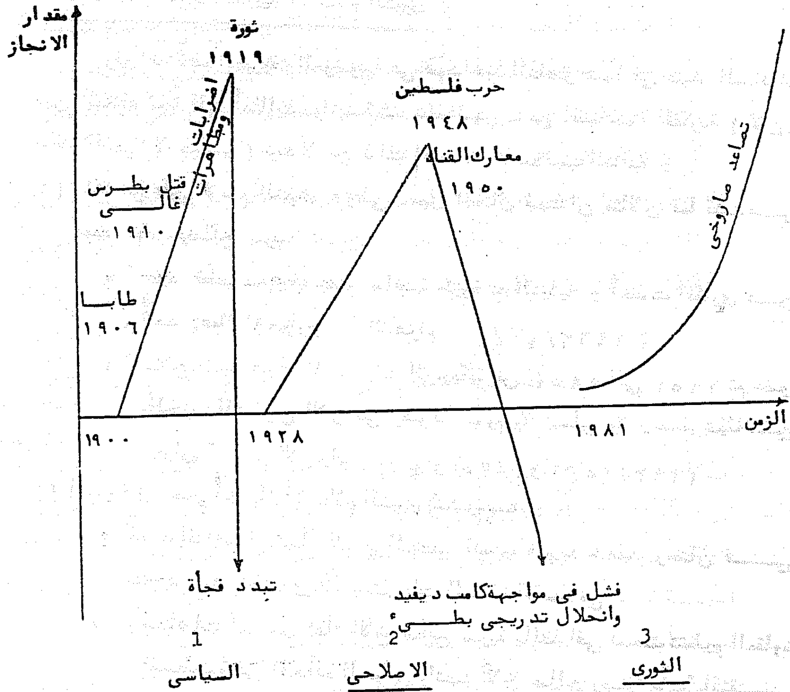
تفاعل الافكار الثلاثـــة
مع الجماهيـــر

تعطينا خبرة تاريخ مصر أساسا معقولا لاستخراج قوانين لتحديد العلاقات بين الاتجاهات الثلاثة وبين كل منها والجماهير. ومن الممكـــن تلخيص ذلك فى الجداول التالية بسبب ضيق المقام :

المذهب وفترات ازدهـــاره	خصائصــه الفكريـــــة	خصائصــه الحركيــــة	نتيجة ممارساتـــــه
الاسلام السياســـى (1900 - 1919) (سائد) 1936 - 1952 (هامشى) والاسلام العزيـــــف 1952 - 1967 (سائد)	لم يبدأ كفكر ثم تحول الى حركة ولكن حدث العكس أى حركة أرادت أن تبرر نفسهـــا فكريا بما لا يتعارض مع عقيدة الجماهير . - لا ينطلق من اطار معرفى محدد وتنطـــوى خطب رموزه على تناقض فكرى هائل (خاصة خطب عبد الناصر) . - هومذهب توفيقى بين الاسلام والتغريـــب ليس توفيقا بالابتكار ولكن بالتجميع فهـــو ينسب للاسلام كل ماهو قومى واشتراكـــى وديمقراطى . - لا يعرف التفكير الاستراتيجى ولا يتصـــوره وتصرفاته لحظية فمثلا محمد فريد فى ثـــورة 1919 أيد قيادات الوفد " لكيلا نظهـــر كمن يشق الصف - مع ايماننا بعدم اخـــلاص معظم رجال الوفد" .	- لا ينتشر الا بعاملين : * بلوغ الظلم بالناس منتهاه * مخاطبة الناس من خلال ثقافتهم السياسية أى الاسلام . - اذا وجد أى فكر اسلامى آخر فهو يحجمه بسهولة(كان النشطين فى مصر الفتاه فـــى ذروة نشاطها لا يتعدى 200 فرد) . - هو وطنى فلم يشغل نفسه بقضايا الاســلام العالمية الا بصورة شكلية . - غير مستعد لمواجهة القوى الكبرى بل انـــه يراهن على بعضها ضد بعض. * مصطفى كامل عمل فى فرنسا ضد بريطانيا * أحمد حسين امتدح رئيس أمريكا فى برقيه من ألف كلمة أملا فى محاربة الانجليـــز فى مصر ثم عاد وامتدح روسيا . * لم يقم عبد الناصر بأى دور صغيرا كـــان أم كبيرا لمحاربة أمريكا واكتفى بمحاربـــــة الاستعمار القديم - وعندما خرج عن اطـــاره (1964) فقد أيقن بقرب نهايته .	هو أكثر المذاهب نجاحا فى تعبئـــــة الجماهير بقدر ماهو أكثرها فى جلـــب الكوارث . - فهو الاكثر نجاحا لان اصحابه كانـــوا أكثر ادراكا لدور الجماهير من الاسلاميين انفســـهم . - وهو جالب الكوارث لانه مذهب دنيـــوى ولانه استغل الاسلام كمجرد وسيلة .

المذهب وفترات ازدهاره	خصائصه الفكرية	خصائصه الحركية	نتيجة ممارساته
الاسلام الاصلاحى 1936 - 1952 (سائد) 1974 حتى اليوم (هامشى)	- فكر اسلامى تقليدى قائم على النقول وليس فيه اجتهاد ولا يتمتع بروح المبادرة . - فكره السياسى ينطبق على ماسماه على شريعتى " التسنن الاموى" فى موقفه من قضايا الخروج على الحاكم والشورى وفى نخبويته . - فكره الاقتصادى غير ثورى بالمرة وهو يقر بالعدالة المطلقة ولكن بصورة نظرية أما مقولاته فتنطوى على تصوير الاسلام كتعديل فى اطار الرأسمالية . - ليس له تصور استراتيجي واضح ومعياره فى الحكم على الاشياء معيار لحظى . فلم يعارض السادات الا بعد كامب ديفيد - وعموما لم يتعظ من كل تجاربه السابقة . - كان مذهبا " نصف ثورى" فى فترة 36 -52 أما اليوم فقد ازداد انتكاسا . - أفكاره الاجتماعية فى الفترة الاولى تمثلها كتب الغزالى عن الاستبداد السياسى وعن الاسلام والمذاهب الاشتراكية . وكذلك مصطفى السباعى (اشتراكية الاسلام) أما أفكاره بعد 74 فهى منشورة من خلال مقالات بمجلة الدعوة وبعض كتب التلمسانى مثل " الحكومة الدينية - 1985 " .	- يقنع بالعمل من خلال النظام ولو كان لذلك تبرير فى البداية (1928) فانه قاوم محاولات سيد قطب لتطويره من داخله بل ان محاولات سيد قطب نفسها جاءت متأخرة . - مفهومه لتربية الانسان قائم على التربية الخلقية وليس التربية السياسية والجهادية - ممارسته السياسية لم تتناسب مع حجمه اطلاقا - وكان دائما يعتمد على نفسه أساسا وعلى الجماهير كرافد ثانوى .	- تحطيم حيوية المسلم بسبب اعتماد اسلوب التربية الاخلاقية . - الجهل بمبادىء النضال السياسى بسبب الاسلوب غير الصدامى الذى يتبعه . - كان الاقدر من غيره على اضفاء الشرعيه على أى نظام لانه بقبوله للنظام يعمل على حل تناقضاته وليس تعميقها - فهو يشارك فى الانتخابات البرلمانية ويركز فى أدبياته على الفساد الاخلاقى وليس على شرعية النظام ذاته - له قدرات هائلة فى التعبئة (نصف مليون عضو بالاخوان سنة 1948) ولكن التعبئة اساسا للطبقة المتوسطة التى حققت قدرا معقولا من الثقافة - ولكن ينهار كل ذلك بسبب عدم الاصاله والادراك الخاطىء للواقع . - ولكن أخطر ممارساته هو ارتباطه بأشد الدوائر عمالة فى العالم كله (السعودية) ومن ثم تشويهه للاسلام ولمبدأ أمة الشهادة على الناس . فبسبب نظريته الغريبة فى تقسيم البلاد الى مناطق اسناد (السعودية - الاردن) - وأخرى للعمل النشط فقد ارتبطوا - بوعى أو بدون وعى - بسياسات وأهداف أمريكا فى المنطقة وأعطوا المبرر لعبد الناصر لتشويههم ومن ثم تمرير القومية العربية كبديل للاسلام . وفى نفس الاطار نفهم محاربتهم فى معارك خاسرة منذ البداية (سوريا) وأيضا موقفهم البالغ السوء من الثورة الاسلامية فى ايران .

المذهب وفترات ازدهاره	خصائصه الفكرية	خصائصه الحركية	نتيجة ممارساته
الاسلام الثوري 1981 حتى اليوم (سائد)	- هو الاسلام كأيديولوجية أو هو اسلام الرسول . وحسب سيد قطب "الاسلام عقيده ثورية حركية بمعنى أنه مايكاد يمس القلب الانسانى مسا صحيحا حتى يحدث فيه انقلابا فى التصورات وانقلابا فى المشاعر وانقلابا فى تسيير الحياة وعلاقات الافراد والجماعات ثم مايحس الانسان حرارة هذه العقيدة حتى يندفع الى تحقيقها فى الواقع العملى بكل نفسه فما يطيق صبرا ولا سكوتا الى أن يتم له تحقيقها فعلا ". - كان يركز أولا على الاسلام والنظرية الاجتماعية (معركة الاسلام والرأسمالية - العدالة الاجتماعية فى الاسلام) ولكن بسبب التوجيه الايديولوجى فى الستينات فقد ركز على الاسلام كعقيدة فقط . ولم تتم أى اضافة الى سيد قطب فأصيب بالجمود . - اخترقته السلفية وانتكس عن اجتهادات سيد قطب (كتاب أصناف الحكام وأحكامهم للشيخ عمر عبد الرحمن) . - استراتيجيه تذكية الشروط الذاتية والموضوعية للثورة مع المحافظة على مفهوم الصدام مستمرا .	- يرفض كل الاوضاع القائمة جملة وتفصيلا - لم يطرح برنامجا سياسيا حتى اليوم - لم يحقق أى انتكاسات وهو متسق مع نفسه . - ثقة غير متناهيه بالوعد فى نصر الله .	- زعزعة الاستقرار فى مصر التى تعيش فى ظل قانون الطوارىء منذ 1981 . - ذعر النظام وافساح المجال للعلمانيين ولبعض دعاة الاسلام الاصلاحى .



ثلاثة نماذج من الممارسة

تعامل الاسلام المزيف (الحكومى) مع الافكار الثلاثة

أ ـ الاسلام المزيف مقابل الاسلام الثورى :

رغم اختلاف الظروف الموضوعية فى عهد عبد الناصر عنها فى عهد السادات فان النظام لجأ الى أساليب واحدة تضمنت الهروب من المواجهة الفكرية (لان فاقد الشئ لا يعطيه) وبدلا من ذلك اعتمدت الاساليب التالية :

١) التشنيع على الاسم الثورى ، وعلى سبيل المثال فهذان مثالان عما كتب عن سيد قطب وصالح سرية :

* " سيد قطب يعترف بعد مناقشة مثيرة مع النيابة : أخذت افكارى عن أحد زعماء الخوارج (الاهرام ١٠/ ٤ /١٩٦٦)
* " صالح سرية عميل للمخابرات الامريكية من ١٩٥٤ الى ١٩٥٧ ثم عضو بالحزب الشيوعى الاردنى وهو لا يصوم ولا يصلى ولا يحفظ شيئا من القرآن " (الاهرام ٢٠/ ٤ و ٢٥/ ٤ و١/ ٥/ ١٩٧٤) .

٢) استغلال بعض أخطاء الاسلام الثورى لتشويهه :

* فعبد الناصر استغل الدور المشبوه الذى قام به سعيد رمضان فى تشويه سيد قطب وربطه بمشروعات الحلف الاسلامى .
* والسادات استغل لقاء الاخ صالح سرية بالقذافى لبحث تنظيم المقاومة الفلسطينية فى العالم العربى واتهم الاخ صالح رسميا بأنه " التقى بالقذافى وسمع منه كلاما ضد مصر "

٣) تراجع النظام بطريقة محسوبة لاحتواء الاثر السياسى الذى يحققه الاسلام الثورى :

* فى البداية كان النظام يحارب الاسلام كمظهر (اللحية ـ الزى الاسلامى) ومع أول صفعة تلقاها النظام فقد تنازل عن محاربة الاسلام كمظهر للتفرغ لمحاربته كفكر سياسى .
* وبالمزيد من الزخم تنازل النظام واعترف بالافكار السياسية للاسلاميين لكى يتفرغ لمحاربة العنف .

* ووصل الامر غداة اغتيال السادات الى أن المفتي اعترف بأن السادات كان كافرا" ولكنه كفر دون كفر ولا يبرر اغتياله " .

٤) عمل النظام على ايجاد فجوة بين الاسلام الثوري والجماهير مستغلا :

* فكرة جاهلية المجتمع التي لم يعرضها الاسلاميون بطريقة مناسبة فأصبحت الجاهلية مرادفا للكفر - ان جاهلية المجتمع لا جدال فيها ولكن المجتمع رغم ذلك ذو ثقافة سياسية اسلامية ستكون هي المنطلق لأسلمة المجتمع من جديد .

* حتى عندما خفتت دعوة جاهلية المجتمع فقد حقر الجهاديون من الشعب المصري ودوره التاريخي واعتبروا تاريخه ليس الا سلسلة من الذل (وهذا مخالف للحقيقة بالطبع) .

* * *

واعتبارا من ١٩٨١ فقد لجأ النظام الى استراتيجية جديدة جاءت محصلة لثلاثة عوامل :

١ - ان الجماهير لم تعد تصدق دعاوى النظام حتى لو كان النظام صادقا فعلا .

٢ - ان دعاة الاسلام الاصلاحي قد اصيبوا بالهلع من امكانيات الاسلام الثوري وتوافقوا مع النظام في ضرورة نبذ العنف واللجوء الى الحكمة والموعظة الحسنة .

٣ - ان محاولات استئصال الاسلام قد فشلت في عهد عبد الناصر نفسه ثم فشلت محاولات تحجيم أو احتواء الاسلام في عهد السادات وأصبح مستحيلا تماما الان التفكير في توجيه ضربة شاملة للاسلاميين لان النظام يعرف عواقبها سلفا .

وان محاربة الاسلام لن تكون فاعلة الا باتباع سياسة الاحتواء (اذا أمكن) أو بتخفيض معدل الزخم الثوري ليس الا .

وأصبحت الاستراتيجية الجديدة تتضمن :

- وقف حملات التشويه والاتهام بالعمالة لجهات أجنبية والاكتفاء بمهاجمة

" التطرف " دون تحديد لمعنى هذه الكلمة .

- عدم اللجوء للوقيعة بين الاسلام الثورى والجماهير بسبب الاثر المعاكس الذى سوف يحدث .
- اطلاق الحرية للعلمانيين والمرتزقة (المتسلطون على جميع أجهزة التوجيه لمهاجمة الاسلام الثورى ثم يظهر النظام بمظهر المحايد والرافض لضرب الاسلام (وكأنه يستطيع ذلك) .
- اطلاق الحرية لدعاة الاسلام الاصلاحى - وهذه هى أكثر الاساليب خبثا وان لم تكن أشدها فاعلية - لسبب بسيط هو أن الجماهير لا تنظر لدعاة الاسلام الاصلاحى كزعماء سياسيين ولكن باعتبارهم مجرد مجموعة من المتقين الطيبين وهذا ما أظهرته انتخابات ١٩٨٤ التى كانت نزيهة والتى أظهرت فشل مجموعة هامة من رموز الاخوان أمام مرشحين حكوميين .

ان روح الهزيمة والعجز يظهرها النظام عند ما تعترف قيادات مباحث أمن الدولة للاسلاميين بأن ما يعملون له صحيح" ولكن من الواجب الوقوف بجانب الرئيس الذى يتعرض لضغوط لا قبل له بها من دول كثيرة تتآمر على مصر " .

ب - الاسلام المزيف مقابل الاسلام الاصلاحى :

بينما أظهر النظام بل وأجهزة المخابرات ومعاهد الدراسات فى الغرب غباوة منقطعة النظير فى فهم الاسلام الثورى (وهذا يرجع الى أن الثورى لا يخضع لقانون الفعل ورد الفعل) - فان الاسلام الاصلاحى كان التعامل معه سهلا بسبب :

× ان الضباط الاحرار أنفسهم كانوا مرتبطين به وفهموه من داخله .
× طول عهد تجربة الاسلام الاصلاحى وغنى هذه التجربة بالدروس .
× ان كل ما هو ليس ثوريا من السهل التعامل معه فى عالم تنتشر فيه الاذرع الاخطبوطية للقوى العظمى بحيث لا تعدم البدائل فى أى زمان ومكان .

وقد تعاملت الانظمة الحاكمة مع الاسلام الاصلاحي كالآتي :

١ - اذا كان قويا (مثل فترة ١٩٣٦ [illegible] وفترة ١٩٧٥ - ١٩٧٩) يحاول النظام احتواءه واستخدامه لتبرير السياسات القومية .

[illegible] عبد الناصر في البداية لم يكن يريد محاربة الاخوان وربما كانوا هم الذين ألجئوه الى ذلك وبدلا من ذلك حاول احتواءهم باعطائهم منصبين وزاريين بل ان سيد قطب كان عضوا هاما بهيئة التحرير التى أنشأها عبد الناصر لتقليص نفوذ الاخوان .

* السادات أعطى الغزالي ورءوف شلبي مناصب هامة بوزارة الاوقاف كما عرض على التلمساني دخول مجلس الشورى وطلب منه أن يقدم طلبا لوزيرة الشئون الاجتماعية لاعادة جماعة الاخوان الى الشرعية!!!...

٢ - اذا كان الاسلام الاصلاحي ضعيفا فان النظام يسعى لسحقه تماما منتهزا فرصة ضعفه - ذلك أن القوى الغربية تعتقد أن هناك تداخلات بين الاسلاميين الثوريين والاصلاحيين بحيث يستحيل تمييزهما أو الفصل بينهما كما يعتقدون أن الاسلام الاصلاحي هو مرحلة فى الاسلام الثورى أو هو متآمر وغير مأمون الجانب ، ولذلك تتخوف أمريكا من التجارب المزيفة لتطبيق الشريعة (نميرى مثلا) لانها يمكن أن تنقلب الى تجارب حقيقية (مثلا قيام مظاهرة فى الخرطوم من مليون شخص تهتف باسم الاسلام وليس باسم نميرى كوثن بعد عام واحد فقط من اعلان ما يسمى تطبيق الشريعة) .

٣ - وسواء أكان الاسلام الاصلاحي ضعيفا أو قويا فان النظام يريد استخدامه لاضفاء الشرعية على نفسه (سبق أن قلنا ان الاسلام الاصلاحي هو أكثر اتجاه قادر على اضفاء الشرعية على النظام) وفى هذا السبيل قام النظام بجر الاسلام الاصلاحي الى قضايا فرعية مثل " شرعية قرار حل الاخوان من عدمها" بدلا من أن تكون القضية "شرعية الذين اتخذوا هذا القرار من عدمها " .

كما أن النظام استخدم الاصلاحيين في تبرير بعض ممارساته (عند ما يكون هناك هامش التقاء بين الطرفين) مثل هجوم الاخوان على اليسار المصرى فى أوائل السبعينيات وهجومهم على القذافى وحافظ الاسد فى أواخر السبعينيات وحملتهم الحالية ضد الحرب الاسلامية البعثية .

لقد بلغ من قناعة الاصلاحيين بالعمل من خلال النظام أنهم بعثوا لعبد الناصر من السجن يطلبون الاشتراك فى حرب ١٩٥٦ ضد اليهود .

وفى الحقيقة ـ ان النقطة الاخيرة هى الحسنة الوحيدة للاصلاحيين فى تاريخ مصر كله ،فرغم عدم موافقتنا من الاصل على تبرير السياسات القومية فأن ممارسات الاصلاحيين كانت دائما (وطنية) وان شابتها بعض الاخطاء أما ممارسات غيرهم فكانت خيانية على طول الخط ـ وربما كان هذا هو السبب فى بقاء الاسلام الاصلاحى حيا فى مصر بعد أن انتهى عمره الافتراضى وتجاوزه التاريخ .

جـ ـ الاسلام المزيف مقابل الاسلام السياسى :

بانقلاب ١٩٥٢ كان فى مصر قوتان تمثلان الاسلام السياسى :

* مصر الفتاة وهذه (تبخرت) كعادة الاسلام السياسى عند ما يقع حادث جسيم .
* تنظيم الضباط الاحرار والذى كان كل همه حل المشاكل الداخلية فى مصر مع عدم الاستعداد لمواجهة القوى الكبرى .

ولما كان الاسلام هو أساسا الولاء لله وللمؤمنين ولما كان ذلك يتعارض مع أهداف العسكريين فى عدم الزج بمصر فى مواجهة الاستعمار فقد حرصت" فلسفة الثورة " على نفى الولاء كما قرره الاسلام فدعت الى " تعاون المسلمين تعاونا لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الاصلية بالطبع " !!!

عند هذه النقطة يتحول الاسلام السياسى الى الاسلام المزيف وينكشف على حقيقته ـ ولكن النظام يسارع الى :

١ - على المستوى الشخصى يظهر الحكام أنهم متقون ومسلمون صالحون وهناك

تقليد فى مصر أن يصلى الحاكم العيد فى الازهر أو مسجد الحسين فيما تقوم أجهزة الاعلام بتغطية واسعة لذلك وزادت (جرعات) التظاهر بالتقوى فى عهد السادات الذى كان الاعلام يغطى صلاة الجمعة التى يحضرها كل أسبوع كما سمى السادات نفسه " الرئيس المؤمن " وأصبح اللقب كما لو كان رسميا .

وربما حدث توسع فى انشاء المساجد أوالتركيز على الجوانب الشعائرية والخلقية فى الدين (وهى محتويات الكتب المدرسية عادة) وفى الحقيقة لقد شهد عهد عبد الناصر حركة هامة لافساد مخطط انجليزى كان يتضمن بناء كنائس فخمة فى الميادين الرئيسية بالقاهرة وأمام محطات السكة الحديد ـ فقد أنشىء مسجد بجوار كل كنيسة كانت مئذنته دائما أعلى من برج الكنيسة المجاورة .

لقد أظهرت خطب عبد الناصر والسادات تناقضا هائلا فى " تفسيرهما الرسمى" للاسلام ـ ذلك أن حكام مصر كانوا دائما فى حالة توتر بسبب الشد من اتجاهين :

- الجماهير التى لا تعترف بغير الاسلام (وكل ما يمت للذات عموما) كمصدر للشريعة .
- طاقم العلمانيين المحلى + القوى الاجنبية التى عمل الحكام على ارضائها .

وقد نشأ التناقض فى تفسير الاسلام بسبب محاولات الحكام الاستجابة لنوعى الشد السابق ذكرهما .

* فالسادات أعلن باصرار (وكررها عدة مرات) " أنا رئيس مسلم لدولة اسلامية " فى نفس اللحظة التى أعلن فيها " لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين "

* وعبد الناصر الذى طالما ادعى الاسلام عاد وأعلن فى حديث مع مراسل أجنبى (وكان يدعى الرد على دعاوى اسرائيل فى الدولة اليهودية) " لا أدرى ماالذى سيحدث لو أننا قررنا أن نقيم دولتنا على الاسلام وقرر آخرون أن يقيموا لدولتهم على المسيحية وقرر آخرون أن يقيموا دولتهم على البوذية ـ لسوف تكون فى كل مكان أعمال تنم عن التعصب "

مرحلة ما بعد ١٩٦٧ والافكار المولدة الجديدة

على خلاف المتوقع من تغيرات فكرية سريعة بسبب الحجم الهائل لكارثة ١٩٦٧ ـ فان مرحلة ١٩٦٧ ـ ١٩٧٤ لم تشهد تطورات هامة على صعيد الفكر (بسبب رفع شعار " لا صوت يعلو فوق صوت المعركة " لا رهاب كل من تسول له نفسه أن يفكر) ـ ومع ذلك فان السنوات السبع هذه قد شهدت تحولات هامة داخل نخب شديدة الضيق من حيث الحجم لكنها كبيرة الفاعلية :

* فبالنسبة للاسلام الثوري فقد انقسم قادته داخل السجون الى عدة أجنحة شكلوا طيفا فكريا واسعا ـ ولكن يمكننا عموما أن نجمعهم تحت فئتين :

١ ـ القطبيون (وكانت قياداتهم قد حكم عليها بالاعدام مع سيد قطب ثم خففت الاحكام) وهؤلاء لم يجد خصومهم حجة لمحاربتهم سوى قولهم انهم انحرفوا عن طريقة سيد قطب وان لم يوضحوا لنا كيف تم هذا الانحراف .

٢ ـ جماعة المسلمين (المشهورة باسم التكفير والهجرة) وقد قام شكرى أحمد مصطفى باجتهادات حقيقية لبلورة نظرية سياسية ـ بل وأصول فقه جديدة فى عدة كراسات أهمها " الخلافة " ـ " الهجرة " ـ الحجيات " ـ وقد رفض شكرى تاريخ الاسلام بعد الخلافة الراشدة ونفى صفة الاسلام الا عن أعضاء جماعته ، ورغم أن أفكاره ـ من الناحية النظرية ـ تعتبر افكارا ثورية ـ الا أنه فى الحقيقة قد حطم الحيوية لدى شباب الجماعة بعزلهم ليس فقط عن المجتمع ولكن أيضا عن تاريخ الاسلام والزمان كله .

ورغم التضخيم الاعلامى لجماعة المسلمين فالحقيقة الثابتة أن عدد أعضائها لم يتجاوز خمسة آلاف وهم رقم متواضع بمقياس مصر ـ ولئن كان للجماعة سيئات كثيرة استغلها النظام فى تشويه كل الاسلاميين ـ فان حسنة واحدة ربما عدلت كل هذه السيئات ـ وهى التركيز على الكفر بالطاغوت ورفض النظام جملة وتفصيلا ـ وهى أمور لم تكن واضحة لدى كثير من الاسلاميين فى ذلك الوقت ـ اذ لم يفرج عن القطبيين الا فى ١٩٧٦ .

* وبالنسبة للاسلام الاصلاحي فقد أصبح فاقدا لمبرراته بعد سيد قطب وعبثا حاول التصدى للاتجاه الثورى وقام مأمون الهضيبى (ابن حسن الهضيبى) وبعض اخوانه بتأليف كتاب " دعاة لا قضاة" داخل السجن وفيما بعد أصبح هذا الكتاب من كتب التثقيف المعتمدة لدى الاخوان وهو مفعم بالاستخذاء والاصرار على الاسلوب الاصلاحى .

* أما الاسلام السياسي فقد كان شبه غائب الا من أفراد يعدون على أصابع اليد سموا أنفسهم باسم اليسار الاسلامى - وعند ما صدرت مجلة المسلم المعاصر (١٩٧٦) كتب أحدهم انه يتوقع " أن تكون المجلة لسان حال اليسار الاسلامى " - ورغم وجاهة بعض أفكارهم فانهم ظلوا معزولين عن واقعهم وعن الجماهير - كما أن بعضهم يتميز بالوقاحة والاستخفاف بالاخرين .

* وعلى صعيد الاسلام المزيف (الحكومي) فقد اضطر النظام للتنفيس عن الكبت والاستجابة لعقيدة الشعب - ذلك أن أية قضية كان يمكن تكيفها فى السابق وفق المصطلحات القومية (مثل تأميم القناة وجلاء الانجليز) - أما وقد أصبحت الحرب مع اليهود فلن يفلح معها أى تفسير الا التفسير الاسلامى - ولذلك توسعت برامج اسلامية تدعو " للجهاد ضد اليهود " فى الاذاعة وفى نشرات ادارة الشئون المعنوية بالقوات المسلحة "[1].

وأصدرت مؤتمرات مجمع البحوث الاسلامية توصيات شديدة اللهجة لا تصدر عادة من مؤسسة حكومية .

وسرعان ما تحول الزخم الاسلامى فى المعركة ضد اليهود الى المطالبة بتطبيق الشريعة (لحقيقة أن الاسلام لا يتجزأ فلا يمكن استخدامه فى معركة وتنحيته فى مجال آخر) .

---

(1) أحصت مصلحة الاستعلامات ٤٢ برنامجا اسلاميا بالاذاعة موجهة لتعبئة الجنود للحرب ضد اليهود والتركيز على كلمة " الجهاد " لدرجة أن المدافعين فى قضية الجهاد (١٩٨٢ - ١٩٨٤) استشهدوا بذلك كأحد أسباب انتشار فكر الجهاد فى مصر .

قلنا من قبل انه كان هناك دائما تناقض بين الحكام في مصر وجوقة المفكرين الذين يبررون لهم ـ فالحاكم لا يستطيع مصادمة عقيدة الشعب بطريقة مباشرة بعكس المفكرين الذين كانوا علمانيين دائما ـ وهكذا بينما كان النظام يتجه لاضفاء صبغة اسلامية على كثير من ممارساته اذا بعصمت سيف الدولة (فيلسوف الناصريين) يصدر كتابه " نظرية الثورة العربية " (١٩٧٠) لمحاولة وضع عقيدة للقومية العربية ـ والكتاب في مجمله محاولة لوضع حد لانبهار القوميين بالاكلشيهات الماركسية ولكنه تهرب من الاجابة على أهم سؤال (أى ما هو مبرر القومية) واكتفى بالقول اننا لن نناقش مبرر القومية ويكفينا أن الاخرين يعترفون بنا كقومية عربية وحاول الكتاب وضع نظرية في المعرفة تبرر القومية كحتمية تاريخية (وان صدع رؤسنا في البداية بمقدمة نظرية عن الفرق بين فكرة الحتم المرفوضة وفكرة القوانين الحتمية الثابتة) ـ ولكن أخطر ما في الكتاب هو الاصرار الفج على العلمانية ووصف التفسير الاسلامي للقومية بأنه " غبى ومضلل " .

* * *

ويلاحظ على الفكر في مرحلة ٦٧ ـ ٧٤ ما يلي :

ـ الاسلام الثوري وحتى الاصلاحي كان ما زال منشغلا بتحدى التوجيه العقائدى الذى فرضته الدولة ـ ولذلك لم يتطرق نهائيا للقضية الاجتماعية (باستثناء جماعة اسلامية نشأت بجامعة القاهرة واتخذت طابع العمل السياسى لكن تم احباط جهودها بهجوم الجماعة الاسلامية الرسمية عليها وبمجهودات المباحث من جهة أخرى) ـ وفي الحقيقة لم يدرك الاسلاميون الا بعد وقت طويل أن مرحلة تحدى الاسلام كعقيدة قد ولت الى الابد منذ ١٩٦٧ وأن الجوقة الاعلامية العلمانية لم تكن الا مجموعة من المشاغبين تتحدى حركة التاريخ ولم يكونوا يستحقون كل الجهد الاسلامي الذى بذل لمحاربتهم ـ بل ان هذا الجهد هو ما اعطاهم حضورا دائما وأعطى الانطباع بأن الاتجاه العلماني هام وقوى .

ـ الاسلام السياسى والمزيف كان أمام أهم تحد واجهه منذ نشأته على

الاطلاق فمع التحدى اليهودى كان على الاسلام السياسى اما أن يموت فى هدوء أو أن يزداد اقترابا من الاسلام (السلوك الحكومى آنذاك) فيضمن هذا اطالة عمره ازاء سخط شعبى جارف (مظاهرات ١٩٦٨ - ١٩٧٢) ولكن كانت هذه الخطوة تنطوى على تضحيات أهمها التشكيك فى شرعية النظام على المدى الطويل بطرح قضية تطبيق الشريعة .

* * *

مرحلة ١٩٧٤ - ١٩٨١ :

* بعد شهور قليلة من النجاح الذى حققه الجيش فى حرب ١٩٧٣ (والذى كان من المفترض أن يعطى النظام شرعية لبضع سنين قادمة) - بعد شهور قليلة قام تنظيم الجهاد بأول عملياته ضد النظام (محاولة الانقلاب المعروفة بعملية الفنية العسكرية / ابريل ١٩٧٤) وبعد شهور أخرى بدأت تقارير المباحث تتوالى عن نشاطات جماعة المسلمين وكان هذا أول نذير للسادات بأن الاسلام الثورى سيتحداه حتى ولو كان فى أوج شرعيته - لكن عاملين أحبطا من قدرة الاسلام الثورى على تهديد كيان النظام - وكان كل عامل بمفرده كفيلا بتحقيق هذا الاثر .

١ - اعتمد الاسلاميون الثوريون مبدأ التربية العقائدية / الجهادية دون التربية السياسية - وهكذا تصوروا أن الاسلام سيأتى بانقلاب وكانوا يتندرون على السهولة التى تم بها انقلاب ١٩٥٢ ويريدون تكراره - وفى الحقيقة أن تراث الاخ صالح سرية كان أحد أسباب سيادة فكرة الانقلاب - ذلك أن عملية الفنية جاءت وسط ظروف موضوعية غير مواتية للثورة - ولما كانت اقامة الدولة الاسلامية واجبا شرعيا سواء أكانت الظروف الموضوعية ملائمة أم لا - فلم يكن أمام الاخ صالح سوى فكرة الانقلاب - ومع تغير الظروف الموضوعية فى مصر (خاصة بعد أحداث ١٩٧٧) فان فكر الجهاديين لم يتطور .

٢ - ولكن العامل الاخطر في تعويق الاسلام الثورى هو اختراقه بواسطة السلفيين المدرسيين - ان هؤلاء السلفيين يعتنقون ما سماه على شريعتى " بالتسنن الاموى" - بل ان كتاب الشيخ عمر عبد الرحمن " أصناف الحكام واحكامهم" (١٩٨٤) ليس الا نقولا فى اطار هذا النوع من التسنن .

ولكن كيف حدث هذا الاختراق السلفى ؟

عند ما كان عبد الناصر يوجه ضرباته للمنظمات الاسلامية كان يترك بعض الجمعيات الخيرية للتنفيس عن الكبت - وهكذا تربت فى بعض هذه الجمعيات (مثل أنصار السنة) المجموعات الاولى للجهاد - وكان الجهاد عند هؤلاء عاطفة أكثر منه فلسفة - وهكذا تحول بعض قيادات الجهاد الاوائل الى السلفية - بل ان محمد اسماعيل زعيم السلفيين بمصر كان عضوا فى أول منظمة جهاد (١٩٦٩) .

وفيما بعد ظهرت منظمتان اختلط فيهما الاعضاء (ما بين سلفيين وقطبيين) وكانت المنظمة الاولى (يحيى هاشم الذى قتل فى اشتباك مع الشرطة عام ١٩٧٥) ذات أغلبية قطبية فيما كانت منظمة الاخ صالح سرية (التى نفذت عملية الفنية) يتعادل فيها السلفيون والقطبيون حجما - وبمجرد أن سجنوا فقد حدث الانقسام الى مجموعتين على رأسهما الاخ كارم الاناضولى (قطبى) وحسن الهلاوى (سلفى) ومن يومها اتسع الخرق وازداد النفوذ السلفى داخل منظمات الجهاد فيما بقى القطبيون أسرى الاكلشيهات وظهر أن المرحلة قد تجاوزتهم - لان الشرعية داخل الاتجاه الثورى كانت لمن حمل السلاح بصرف النظر عن فكره .

* لقد اتسمت السبعينات بأنها مرحلة التعادل التقريبى فى القوى ما بين الاسلام الثورى والاسلام الاصلاحى - فقد كانت قوانين التاريخ عاملا فى صالح الثوريين بينما كانت الهالة التى ارتبطت بالاخوان تاريخيا عاملا فى اعطاء الانطباع بقوتهم - كما كانت التنازلات التى قدمها النظام للاخوان أيضا عاملا فى توسيع قاعدتهم ولكن ثبت فيما بعد أن هذا التوسع لم يكن على أساس متين اذ بدأ التمرد وسط صفوف شباب الاخوان الواعين وانشقت قطاعات هامة من الاخوان وانضمت لتنظيم الجهاد .

كانت تنازلات السادات للاخوان مبنية على ادراكه لنمطهم فى التحالف الذى لم يتغير (التحالف مع قوة حاكمة لتدمير خصم قوى أو ضعيف) ـ وهكذا وجد السادات ـ وهو المفلس فكريا ـ أن الاخوان مفيدون فى تدمير اليسار ـ ولم يكن السادات ولم يكن الاخوان أيضا يدركون أن اليسار لو ترك لحاله لمات ولشبع موتا ـ ولكن هجوم الاخوان على اليسار وسكوتهم على سياسة الانفتاح واتفاقيات فصل القوات فى سيناء فى بداية الامر ـ أعطى انطباعا بأنهم يؤيدون تلك السياسات وبالتالى أعطوا اليسار مبررا للشرعية .

ومع تفجر التناقض بين السادات والاخوان بسبب كامب ديفيد (١٩٧٨) فلم يستطع الاخوان قيادة ثورة كانت مصر مهيأة لها فعلا وهكذا ثبت من جديد حدود قدرات الاسلام الاصلاحى .

ومع الثورة فى ايران واعجاب الجهاديين بها ـ فقد تأكدت القطيعة بين الاخوان والاسلام الثورى الى أن فقد الاخوان شرعيتهم نهائيا وسط الاسلاميين بتصريح التلمسانى بأن " السادات قتل مظلوما مثل سيدنا عثمان" وبقوله فى كتابه"ايام مع السادات" (١٩٨٤) أن خالد الاسلامبولى كان ينفذ مؤامرة أجنبية .

وليس رفض الاخوان لفكرة الثورة هو السبب الوحيد لتناقضهم مع الاسلام الثورى ـ فهناك عامل يتمثل فى اعتماد الاخوان على بعض الدول كقواعد للاسناد ولما كانت هذه الدول مغرقة فى العمالة للغرب (السعودية ودول الخليج ـ والاردن) فقد تورط الاخوان بصورة مباشرة أوغير مباشرة فى محاربة الثورة فى ايران وكانوا من ضمن الداعين الى ما يسمى وضع حد للحرب بين الاسلام والبعث وشوهوا فكرة الجهاد الاسلامى واعتبروا صدام حسين على رأس طائفة من المؤمنين .

* وبالنسبة للاسلام الحكومى فقد كرست الجهود فى البداية للقضاء على اليسار خاصة كتابات عبد الحليم محمود شيخ الازهر ضد الالحاد ـ وفى مطلع

السبعينات انتشرت كتب طبيب يدعى مصطفى محمود اشتهر بلقب كاتب المراهقين وكان ملحدا ثم قال انه أسلم ـ وألف سيلا من الكتب فى الاسلام كان سبب رواجها ـ ليس عبقرية مصطفى محمود ولكن تطلع الناس بشغف الى كل ما يكتب عن الاسلام ومع تمييز الخبيث من الطيب ـ فقد انطفأ مصطفى محمود بنفس السرعة التى لمع بها .

وبعد القضاء على أفكار اليسار كرس الاسلام الحكومى نفسه لتبرير كامب ديفيد وتشبيه ذلك بصلح الحديبية .

* وفى ١٩٧٨ أصبح للاسلام السياسى حزب لأول مرة فى مصر منذ ١٩٥٢ (حزب العمل الاشتراكى) وكان رئيسه ابراهيم شكرى الرجل الثانى فى حزب مصر الفتاة القديم وقد اعتمد الحزب فى تثقيف اعضائه على كتابات أحمد حسين (وبعد ١٩٨١ أصبح حسن البنا والمودودى والامام باقر الصدر معتمدين أيضا)

ورغم البداية المشبوهة للحزب فقد كان أهم حزب معارض بسبب اعتماده على الاسلام أكثر من أى حزب آخر ـ بل واستخدمت قيادات الحزب المساجد مقرا لندواتها وهو مالم يلجأ اليه أى حزب آخر .

* * *

والخلاصة أن فترة ١٩٧٤ - ١٩٨١ كانت مسلسلا متصلا من الازمات ليس فقط على مستوى النظام الحاكم ولكن أيضا على مستوى الاسلام الاصلاحى الذى أثبت عجزه وعلى مستوى الاسلام الثورى الذى اخترقته السلفية وعلى مستوى الاسلام السياسى الذى برر كامب ديفيد .

مرحلة ١٩٨١ - ١٩٨٦ :

هناك عاملان يؤثران على الجو الفكرى العام فى مصر حاليا :

١ - الثورة فى ايران والقضية الفلسطينية ومدى الارتباط بينهما .

٢ - جو الحرية الذى يضطر له النظام مع تفاقم الازمات .

* ان تأثير الثورة فى ايران على الفكر فى مصر كان أقل من المتوقع بكثير وقد تضافرت عدة عوامل لتحجم من هذا التأثير :

- بالنسبة لقوى الاسلام السياسى (المرشحة لاكبر جرعات التأثير) - فلكونها دنيوية أولا - ولكونها لا تدرك التحولات الاستراتيجية وتكتفى بتطبيق معايير (التقدمى) و (الرجعى) على الانجازات القصيرة الامد - لكل ذلك فقد اعتبروا أن الثورة الاسلامية قد تورطت (كذا) فى حربها الطويلة مع البعث وأن هذا قد أثر بالسلب على القضية الفلسطينية (وكأنه كانت هناك قضية فلسطينية يوما ما) .

ولكن هذا لا يمنعنا من أن نسجل أن الناصريين هم القوة السياسية الوحيدة - مع الاسلام الثورى - التى تدين العراق بل ان منهم من يتعاطف مع ايران رغم قوميته لمجرد أن ايران ضد أمريكا .

- بالنسبة للاسلام الاصلاحى - فبسبب توافقه مع المحور السعودى فلم يجد أمامه الا أن يحارب حافظ الاسد والقذافى ومن الواضح أنهم كانوا يحاربون معارك خاسرة منذ البداية وهكذا تضمنت أدبياتهم شن حملة على ايران وعلى الحرب وبلغ تطاولهم أحيانا قيادة الثورة الاسلامية نفسها .

- كان هناك تقصير من جانب الاعلام الايرانى فى عرضه لصورة الثورة - خاصة وأن مصر تحوى أكبر تجمع من المرتزقة الذين (يقبضون) رواتب منتظمة من البعث وكانت المحصلة أن كثيرا ممن يفترض تأثرهم بالثورة - لا تعدو معلوماتهم تلك التصورات السطحية أو التصورات المزيفة التى يقدمها الاعلام .

* وبالنسبة لجو الحرية النسبية فى مصر اليوم وتأثيره على الفكر -

فقد كان عاملا ايجابيا أدى الى فرز من يقف فى جانب قضية الثورة ممن يساعد النظام على تجاوز أزماته الحالية والالتفاف حول الثورة القادمة - كما سيتضح بعد قليل باذن الله .

* * *

ان عامل الثورة الاسلامية + الحرية النسبية فى الداخل قد أوجدا لاول مرة أفكارا مولدة من خارج التصنيفات السابق ذكرها (الثورى - الاصلاحى -

السياسى) ـ فلقد تآكل الاسلام السياسى لحساب الاتجاهين الاصلاحى والثورى وظهر من ثم اتجاهين هجينين يجمعهما مصطلح " السلفيون الجدد " الــــذى أطلقه عليهم غلاة العلمانيين لارهابهم واعادتهم الى مواقعهم الاولى ـ ان السلفيين الجدد كما قلنا منقسمون الى :

١ - حصيلة التهجين بين الاسلام الثورى والاسلام السياسى وهؤلاء يطلـــق عليهم " الناصريون الجدد " وهم يشكلون القاعدة الواسعة من الناصريـــين وهم فى أغلبهم مخلصون ووطنيون ولكن تبقى الدنيوية والقومية العربيـــة أخطر أمراضهم ـ ويمثل هؤلاء أصدق تمثيل عادل حسين (رئيس تحرير جريدة الشعب لسان حال حزب العمل) والذى أصدر كتابه الاخير " نحـو فكر عربى جديد " (١٩٨٥) دعا فيه الى محاربة (الدنيوية) ولكنه ـ رغم تركيزه على الاسلام ـ فقد جعل للاسلام " دورا " !!! فى القضايا الوطنيـة ولم يدع أبدا للوحدة الاسلامية كما يفهمها أقل شخص فى الاسلاميين .

كما أن عصمت سيف الدولة الذى سبقت الاشارة اليه قد أصدر كتابـه " القومية والاسلام " (١٩٨٦) وفيه تراجعات هامة ـ أيضا رفعت سيــد أحمد الذى أصدر كتابا عن تنظيم الجهاد " لماذا قتلوا السادات " (٨٥) وآخر عن حادثة الحرم (دماء فى الكعبة) (١٩٨٦) وفيهما مـــدح الاسلام الثورى ودعا الى لقاء بين القوميين والاسلاميين !!! صدر كتابـه الاول باهداء لكل من خالد الاسلامبولى وعبد الناصر (اللذان اعتقد أن طريقهما واحد) !!!

ان جريدة الشعب لسان حال حزب العمل تعتبر المعبر الرئيســـى عن هذا الاتجاه الهجين وقد بذلك فيها جهود حقيقية للتوفيق بـــين الاسلام والافكار الدنيوية الاخرى خاصة عادل حسين والدمرداش العقالى (الاخوانى سابقا ونائب رئيس الحزب) .

٢ - أما حصيلة التهجين بين الاسلام الاصلاحى والاسلام السياسى فكانت اتجاها يرتكب أبشع اشكال الجرائم اليوم ويمثل هؤلاء أصدق تمثيل كل من

محمد عمارة الملفق الكبير والمستخف بالعقل (ولو أنه أصدر كتابا بعنوان " الفكر القائد للثورة الايرانية" ليعطى مصداقية لأعماله الاخرى) - وأيضا الاستاذ طارق البشرى الذى جعل همه على حد قوله "قضية الاستقلال الوطنى والوحدة بين المسلمين والاقباط" وله سفر ضخم "المسلمون والاقباط فى أطار الجماعة الوطنية " (١٩٨١) يبرر فيه الوطنية المصرية .

ولا يعنى ذلك أن العلمانيين راضون عن هذا الاتجاه التخريبى - بل لقد أحدث هذا الاتجاه بالفعل هزة خطيرة أفقدت العلمانيين صوابهم لان طارق البشرى الذى طالما دافع عن الشيوعيين عاد وصدّر الطبعة الثانية (١٩٨٢) من كتابه الهام (الحركة الوطنية فى مصر ١٩٤٥ - ١٩٥٢) بمقدمة من ٨٠ صفحة أعلن فيها تراجعه عن أفكاره القديمة ومدح الاتجاه الاسلامى وقال انه كان الوحيد المؤهل لمحاربة الاستعمار .

* * *

أما عن الاتجاهات التقليدية الثلاثة - فكما قلنا ان الاسلام السياسى أوشك أن يتلاشى تقريبا ويبقى الاصلاحى والثورى .

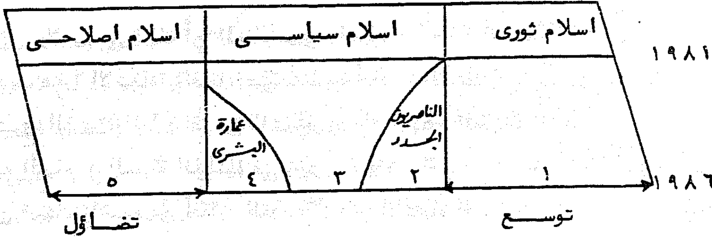
* ولقد أدى جو الحرية الى فرز القوى فى مصر - ومنه اتضح أن الاسلام الاصلاحى لا يقف فى صف الثورة وهكذا أعطى ممثلوه (التلمسانى - الغزالى - الشيخ كشك) صفحات طوال فى صحف الحكومة وغيرها - كما دخل هذا الاتجاه فى عملية استنزاف هائلة ضد أشباح العلمانية - فبسبب ثورة ايران واغتيال السادات ، وفيما يشبه صحوة الموت أخذت بعض الاقلام العلمانية تهذى (مثل كتاب "قبل السقوط" لفرج فودة ١٩٨٥) وبدلا من أن يتركهم الاسلاميون يموتون فى هدوء اذا بهم يردون عليهم (مثل كتاب تهافت قبل السقوط وسقوط صاحبه ، وكتاب الحكومة الدينية لعمر التلمسانى ١٩٨٥) وبالتالى أعطوا لهؤلاء حجما وبدأ تكرار خطأ الاخوان فى السبعينات عندما هاجموا اليسار بلا داع .

* أما الاسلام الثورى فلم يتأثر كثيرا - كما هو مفترض - بالثورة فى ايران ، سوى خطة الاخ عبود الزمر فى الثورة الشعبية - ومازالت التركيبة السلفية تحول دون

تقبل المؤثرات من ايران على نطاق واسع .

* * *

ويمكن تلخيص موقف الاتجاهات الخمسة الحالية فى مصر كالاتى :



ويعمل الاتجاهان ١ ، ٢ من أجل الثورة فيما تعمل الاتجاهات ٣ ، ٤ ، ٥ للاصلاح وتأييد السياسات القومية ودخول الانتخابات وقد توافقوا فى ذلـك مع الاحزاب العلمانية بل وساهموا فى نشاطها اذ تحالف الاخوان مع الوفد منذ ١٩٨٤ ودخل بعض سذج الاسلاميين (صلاح أبو اسماعيل ـ يوسف البـدرى) ـ حزب الاحرار ١٩٨٦ وهو حزب أكثر يمينية من النظام نفسه ـ وبعد أن أصبـح الحديث علنيا حول ضرورة ايجاد بديل للنظام فقد سارع عملاء أمريكا (الوفـد ـ تحالف اليسار من الناصريين العلمانيين والشيوعيين) بعرض خدماتهم على أمريكا فى صفاقة منقطعة النظير (كتاب مستقبل النظام الحزبى فى مصر ـ ١٩٨٤ للشيوعى محمد سيد أحمد) كما عقد الناصريون العلمانيون ندوة فى صيف ١٩٨٦ عـن مستقبل الناصرية لم يهاجموا فيها أمريكا ولم يذكر فيها الاسلام مطلقا ومن المثير للسخرية أن الذين دعوا للندوة كانوا من علماء الاجتماع الذين عملوا أبحاث كثيرة لحساب مراكز بحثية أمريكية مشبوهـة .

أما الوفد فلم يكن بحاجة الى عرض خدماته على أمريكا فتاريخه خير من يشهد له ولكن كانت تنقصه دائما المبررات الفكرية (وهو ما فشل فيه الوفد حتى اليـوم لسبب بسيط هو أن العلمانى لو فكر قليلا لتحول الى يسارى بالضرورة) وبدلا من

ذلك عمل الوفد على شن حملة ضخمة لتزييف تاريخ مصر ومحاولة ايهام الناس بأن الوفد لم يكن عميلا وكذلك جاء تحالف الوفد مع الاخوان ليوهم الغرب أنه الاقدر على احتواء الاسلام (كذا) وليعطى لنفسه المصداقية أمام الجماهير ولينفى عن نفسه وصمة العلمانية - كما جاء الوفد ببعض الوجوه القبيحة وأطلق على كل منهم اسم المفكر الاسلامى الكبير لكى يبرروا للوفد (مثل مقالات خالد محمد خالد الاسبوعية بجريدة الوفد) .

ان كل ما سبق يبين مدى تعقد مهمة الاسلام الثورى على الصعيد الفكرى :

١ - فمن الضرورى عزل القوى المعادية للثورة وتعريتها .

٢ - ومن الضرورى الاستمرار فى تراجعات القوميين لصالح الاسلام والا فلو توقفت تراجعاتهم الحالية لشكلوا هم بدورهم عقبة أخرى أمام الثورة .

٣ - ومن الضرورى أولا أن يتخلص الاسلام الثورى من سلفيته حتى يصبح ثوريا بحق .

ان طريقة تنفيذ هذه المهام لمما يخرج عن نطاق بحثنا هذا .

* * *

الجانب المؤامراتي في تفسير التاريخ

اعتاد الاسلاميون (فيما بعد الستينيات) الاعتماد على التفسير التآمرى وحده لفهم الاحداث - ولعل ذلك كان بتأثير الانظمة القومية والاشتراكية التى روجت هذه الطريقة فى التفكير فى العالم العربى .

على أن هذا لا يعنى رفضنا للتفسير التآمرى على اطلاقه - ولكن يعنى ضرورة اعطائه حجمه - ان المؤامرات على الاسلام والجماهير لم تنفك قائمة - لسبب بسيط هو أن هذه سنة الله (ويمكرون ويمكر الله) - ولكن علمنا بوجود مؤامرات شئ - والتصدى للتفسير التآمرى شئ آخر - بحكم ما يتطلبه ذلك من خبرات تفوق بكثير قدرة الباحث فى التاريخ - وبسبب قلة الوثائق اليقينية .

وفى الحقيقة - ان فرضيات كثيرة فى هذا البحث قد تنهار اذا أدخلنا الجانب المؤامراتى فى تفسير التاريخ - ولكن سيظل مجمل البحث سليما عدا فرضية واحدة أساسية - هى " ان سعى الحكام والعلمانيين لارضاء أسيادهم فى الغرب لم يكن عن قناعة منهم بأن ذلك فى صالح الوطن ولكن كان عن عمالة مباشرة - أما بعض الانجازات التى يمكن وصفها بأنها وطنية فقد كانت من ضرورات الاخراج المسرحى أو للحفاظ على صورة معينة لدى الجماهير " .

ان المتابعة التفصيلية لنسب الحكام والعلمانيين ونظام تنشئتهم ستساعدنا فى دراسة احتمالات تجنيدهم منذ وقت مبكر - ان التجنيد يتم عادة عن طريق السجون أو المدارس الاجنبية أو بالعلاقات المباشرة مع الاجانب .

* فمثلا سعد زغلول دخل السجن فى وقت مبكر من حياته بتهمة عضوية جماعة الانتقام .
* ومحمد حسنين هيكل كان والده قهوجيا فى حى عابدين الذى كان يحفل وقتها بالاجانب من كل جنس وملة .
* وعبد الناصر مثلا بعد وفاة والدته فى طفولته - تولت تربيته امرأة يهودية (زوجة الخواجة شموئيل) وكان ذلك فى المنزل رقم ٣ حارة خميس العدس بالخرنفش - وقد اعترفت احدى صحف النظام الناصرى (المصور

عدد ٢١٠٩ بتاريخ ١٩٦٥/٣/١٢) (١) بأن عبد الناصر تربى في حارة اليهود دون ذكر للتفاصيل - أما سكان المنزل الحاليون فيذكرون أن والد عبد الناصر كان ساعي البريد للمنطقة الواقعة بها حارة اليهود وأن عبد الناصر كان يسكن هناك حتى تخرجه من الكلية الحربية - وأن أبناء المسلمين الذين كانت أقدامهم تقودهم الى حارة اليهود كانوا يتعرضون لاشد العقاب من آبائهم (بسبب عادة اليهود في ذبح الاطفال المسلمين أو النصارى واستعمال دمهم في عجن فطير عيدهم) - كما يذكر سكان المنزل المذكور أنه عندما هرب معظم يهود مصر غداة عدوان ١٩٥٦ فقد عاد شموئيل حاملا " كارت " من عبد الناصر وأخذ كل متاعه الذي كان قد تركه وهرب . وحتى اليوم ما زالت النجمة اليهودية السداسية منقوشة على جدار المنزل فوق العلامة الدالة على رقمه

ان الارتباطات المشبوهة بالاجانب واليهود لمعظم حكام العرب تحتاج الى دراسات مفصلة لانها يمكن أن تساهم في تفسير كثير من الوقائع الغامضة (٢) - فمثلا لم يطلق عبد الناصر طلقة واحدة باتجاه

---

(١) قامت الايدي الآثمة بتمزيق كل نسخ المجلة بدار الكتب المصرية .

(٢) عن الاصل اليهودي لآل سعود - راجع على سبيل المثال :

مجلة الثورة الاسلامية في الجزيرة العربية العدد ٧٠ يناير ١٩٨٦ ص ص ٧٤ - ٧٦ .

ولمزيد من التفاصيل راجع : ناصر السعيد : تاريخ آل سعود - صفحات متفرقة .

لقد زار بعض أفراد الاسرة السعودية عام ١٩٨٥ قبر حاخام يهودي (في نتيفوت) للتبرك به (حسب القبس الكويتية والخليج الظبيانية) والخلاصة في مسألة النسب اليهودي لآل سعود أن جد سعود المدعو مقرن ابن سليمان اسلايم كان من يهود نجران وعمل بالتجارة بين اليمن والعراق واستقر أخيرا بنجد في حمى قبيلة وضيعة بين العرب وادعى الاسلام على غرار يهود الدونمة .

اسرائيل (١) ـ بل ان حرب ١٩٥٦ " لم تحدث فيها معارك على الاطلاق الا في منطقة الشيخ زويد " (٢) ـ كذلك حفلت حرب ١٩٦٧ بكمية ضخمة من الالغاز :

ـ فحسب حيثيات الحكم فى قضية قادة الطيران (ص ٩١) فقد " ثبت للمحكمة أن مركز قيادة العمليات العام كان مغلقا ولم يفتح الا يوم ٦٧/٥/٣ على سبيل التجربة ثم اغلق ثانية وعاد شاغلوه الى أماكنهم وقت السلم "

٢ ـ ورغم أن قائد مخابرات العريش أرسل انذارا الى قائد الجبهة سعت ٢٣٣٠ مساء ٦٧/٥/٤ بأن الهجوم باكر فجرا ـ ورغم أن اليهود احتلوا أم بسيس سعت ٧١٥ صباح ٦/٥ ورغم أن عبد الناصر كان يتباهى دائما بأنه كان يعرف ميعاد الضربة الاولى ـ رغم كل ذلك فقد كان عبد الحكيم عامر يلتقى مع رؤساء الفرق فى تمادة فى نفس لحظة هجوم الطيران اليهودى على جميع مطارات مصر ـ وهكذا بدأ الهجوم اليهودى وجميع مراكز القيادات خالية من قادتها .

٣ ـ وحسب شهادة الدغيدى قائد الطيران فى حرب ١٩٦٧ (جريدة الشعب ٨٢/٧/٦ ص ١١) فان " المظلة الجوية اختفت من سماء المعركة فجأة قبل ١٠ دقائق من الهجوم اليهودى " ـ وبعد عرض سلسلة من الوقائع ومنها موضوع الشفرة التى تغيرت فجأة قبيل الهجوم ـ تساءل الدغيدى " هل كل هذه الوقائع المذهلة التى لا يصدقها عقل مجرد مصادفات وبعبارة صريحة هل هناك خيانة حدثت تربط بين هذه الوقائع الشاذة وتفسرها "

---

(١) للانصاف نذكر أن عبد الناصر اضطر لمحاربة اسرائيل سبعة أيام فى شهر أغسطس ١٩٥٤ وكان ذلك ردا على اعتداءات اليهود على حدود مصر ـ وفى هذه الايام السبعة زجت المخابرات المصرية ببعض الفدائيين الفلسطينيين لمحاربة اسرائيل ثم توقفت العمليات اثر طرد ين يهوديين نسفا مصطفى حافظ (ضابط المخابرات العسكرية فى غزة) وصلاح مصطفى (الملحق العسكرى المصرى فى عمان) .

(٢) حديث هيكل للاهالى ١٩٨٦/١٠/١ ص ٧

٤ - ان لغز السفينة ليبرتى قد يسهم فى تفسير موضوع الخيانة - لقد هاجم اليهود السفينة يوم ٨/٦ بعد هزيمة مصر فعليا - ورغم أن السفينة لم يكن لها أية قدرة قتالية فقد أمطرتها الطائرات اليهودية وقطع الاسطول وزوارق الطوربيد بنحو ٨٢١ طلقة مدفع رشاش و ١٠٠ صاروخ جو/ سطح و ٥ قذائف طوربيد كل قذيفة احدثت بها فجوة قطرها ١٢ مترا - كما أطلق النابالم على قوارب النجاة مما دعا طاقمها من الامريكيين الى القول فى التحقيق " الاسرائيليون لا يريد وننا أحياء" ورغم سقوط ٢٥ قتيلا من طاقم السفينة فقد أصدر جونسون أمرا بالتكتم على المعلومات .

فهل كانت ليبرتى تحتفظ بتسجيلات الخيانة التى يخشى افتضاحها .

* * *

هناك وقائع أخرى فى الفترة الناصرية تحتاج الى دراسات تآمرية ونفسية لمحاولة تفسيرها - فمثلا حركة الالتفاف الواسعة النطاق حول الوعى المتعاظم للجماهير الذى بلغ ذروته سنة ١٩٥٢ وكيف استطاع عبد الناصر استغلال عواطف الشعب المصرى وكيف أجاد اخراج حادث المنشية - والخطب التى ألقاها بعد الحادث - وهذه (عينة) مما قاله (١) :

- الحمد لله على نجاتى لأحقق لكم العزة والحرية والكرامة .

الحمد لله على نجاتى من أجلكم لا من أجل نفسى (ص ٥٦٦)

- ان جمال عبد الناصر لم يكن له أعداء من قبل - كان يمشى فى الشوارع مطمئن النفس هادىء البال ولم يحاول أحد أن يعتدى عليه فلماذا يعتدون عليه اليوم .

انهم لا يقصدون جمال عبد الناصر ولكنهم يقصدونكم أنتم يقصدون هدم عزتكم وكرامتكم (ص ٥٧٢)

- وقال عن الاخوان " لماذا لم يقتلونى منذ ٣٦ عاما سابقة - ماذا بينهم وبين جمال - لأنه اليوم ينادى بعزتكم وكرامتكم وحريتكم (ص ٥٨٢)

---

(١) خطب وتصريحات عبد الناصر - الجزء الثالث - صادر عن هيئة الاستعلامات

- وبالحصر الاحصائي فقد ألقى عبد الناصر بعد حادث المنشية ٩٠ خطب في ٤ أيام ذكر فيها اسمه ٣٣ مرة وجعل اسمه مرادفا للحرية والكرامة ثم أعلن في النهاية :
- ولئن خيرت بين ثورة عرجاء وثورة حمراء ما اخترت أبدا ثورة عرجاء ولتكن ثورة حمراء . وفي خطاب ٢٩/١٠ وصف الحملة على الاخوان بأنها الجهاد الاكبر وقال " انتهى الجهاد الاصغر وبدأ الجهاد الاكبر "

* * *

هناك أمور أخرى لا يمكن تفسيرها الا باستدعاء الجانب التآمري في تفسير التاريخ مثلا لماذا تضخم جهاز الدولة البيروقراطي في العهد الناصري بهذه السرعة وكيف تم ترسيخ الآليات التي مازالت تعمل عملها في تضخيم هذا الجهاز . هل استفادت القوى المجرمة (١) من التطبيقات الفرعونية القديمة بربط مصير الانسان المصري بالدولة بالتحكم في نظام الري حيث طورت الفكرة الى تحويل الشعب المصري الى موظفين ومن ثم ابقائهم في حالة تهديد دائم بقطع أرزاقهم .

لقد ازداد موظفو الجهاز الاداري من ٣٤٠ ألفا سنة ١٩٥٢ الى ٢ر١ مليون سنة ١٩٥٩ الى ٨ر٢ مليون في الثمانينيات وبلغ عدد السعاة ما يتراوح بين ١٦٤ ألف (على أقل تقدير) و ٤٣٥ ألف (على أكثر تقدير) سنة ١٩٧٧ (٢)

والحقيقة أن الانسان المصري زمن عبد الناصر كان اما موظفا حكوميا أو مسحوقا يعنيه الا أمور عيشه اليومي - لقد ازداد عدد عمال التراحيل من مليونين (١٩٥٠) الى ٣ ملايين (١٩٦٦) وكانوا يشكلون أشد الناس بؤسا - وكان مقاولو الانفار يوردون العمال للجان حكومية " ويقتسمون العمولة مع اللجان " (٣) !!

---

١) حسبما ورد في مقدمة كتاب لعبة الامم فقد نصح رجال المخابرات الامريكية عبد الناصر بتضخيم الجهاز البيروقراطي والاغداق عليه ليكون عنصرا مساندا للنظام .

٢) الارقام عن جمال حمدان : شخصية مصر جـ ٤ عالم الكتب ١٩٨٤ ص ص ٢٠٧ ، ٢٠٨

٣) مجلة الطليعة عدد يناير ١٩٧١ ص ٢٥

فهل آن الاوان لمراجعة المقولات الرثة من أن الفترة الناصرية شهدت تحقيق العدل ؟

* * *

كلمة أخيرة

لقد كتب هذا البحث في عجالة بسبب الحاح قضية تقديم تفسير اسلامي للتاريخ ـ ورغم أن الكاتب ليس من الاختصاصيين في التاريخ ورغم أنه ما كان ينبغي له أن يكتب في هذه الموضوعات ـ فان قيمة هذا الكلام هي في الرؤية التي يقدمها وليس في تفاصيل البحث التاريخي .

ويقيني أن هذه الاوراق ستفقد قيمتها كلما ازددنا اصالة ووضوح رؤية ـ وحتى يأتي ذلك الوقت فما علينا الا أن نسعى لتطوير دراسات تاريخية ـ ان الجهد المطلوب منا يجب أن ينصب على :

١ ـ تحديد ما يصلح أن يكون وحدة للدراسة التاريخية ـ وفي الحقيقة أنه من مثالب هذا البحث أنه ارتضى أن يقتطع تاريخ مصر ويدرسه منفصلا ـ واذا أحسنا الظن ، فمن الممكن أن نعتبر دراستنا هذه عن مصر (عينة) للدراسة التاريخية لا (وحدة) للدراسة .

ان السؤال المطروح هو : هل يكفي أن ندرس تاريخ الاسلام منفصلا أم أن التاريخ الانساني كله يجب أن يكون وحدة الدراسة التاريخية .

٢ ـ لقد كانت الحقبة العلمانية في التحليل الاخير ـ تعبيرا عن هزيمة الحضارة الاسلامية ـ ولما كانت أسباب الانهزام داخلية ـ أي في أنفسنا ـ فان معالجة المرض العلماني تتطلب جهدا طويلا من التفسير الثوري ـ اذا صح التعبير ـ للتاريخ الاسلامي (بدلا عن التفسيرات المناقبية المتداولة) .

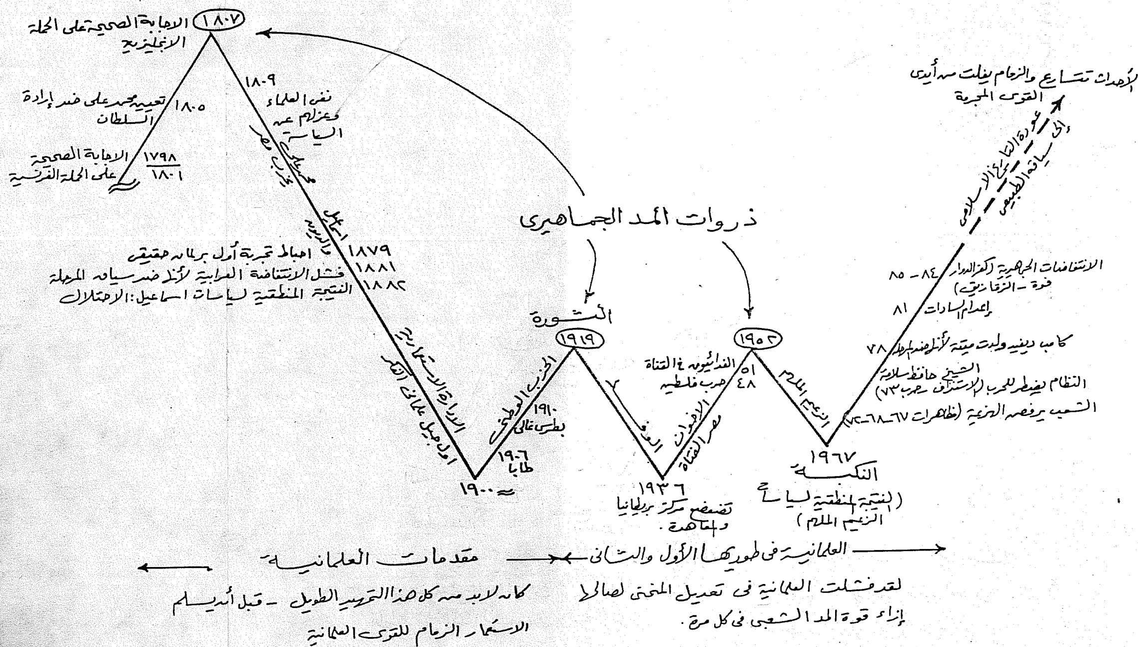
ان التفسير الثوري للتاريخ يعطينا الاجابة على التساؤلات :

١ ـ كيف تسنى أن ينحرف مجتمع بأكمله ليصل في النهاية الى حالة الجاهلية حتى من قبل أن يهزمه الغرب ـ أي كيف أمكن للقوى المجرمة أن تضرب مفاهيم : الحريات (من وقت مبكر جدا في العصر الاموي) ـ وحدة الامة الاسلامية ـ الجهاد الاسلامي (في العصور المتأخرة)

٢ ـ دراسة نفسية لعوامل انحراف الفرد وكيف يوظفه الشيطان في مخططه ـ وذلك لنفسر كيف تسنى للشيطان أن يشكل مركبه الفوقي (الحكام ـ اللصوص طاقم المفكرين العلمانيين) .

ان عيبا آخر فى صميم منهج البحث هو تركيزه اكثر مما ينبغي على دور النخبة العلمانية ـ ولكن عذره أننا وسط ركام هائل من الكتب لا تعرف من التاريخ الا تاريخ النخب ـ وليس من المفيد الان أن تبنى بيننا وبين كتابات الاخرين فجوة لا نستطيع عبورها ـ ان هذا البحث يعتبر نقلة بين ما هو متاح وما يجب أن نوجده .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ؛ ؛



موجز تاريخ مصر فى الحقبة العلمانية